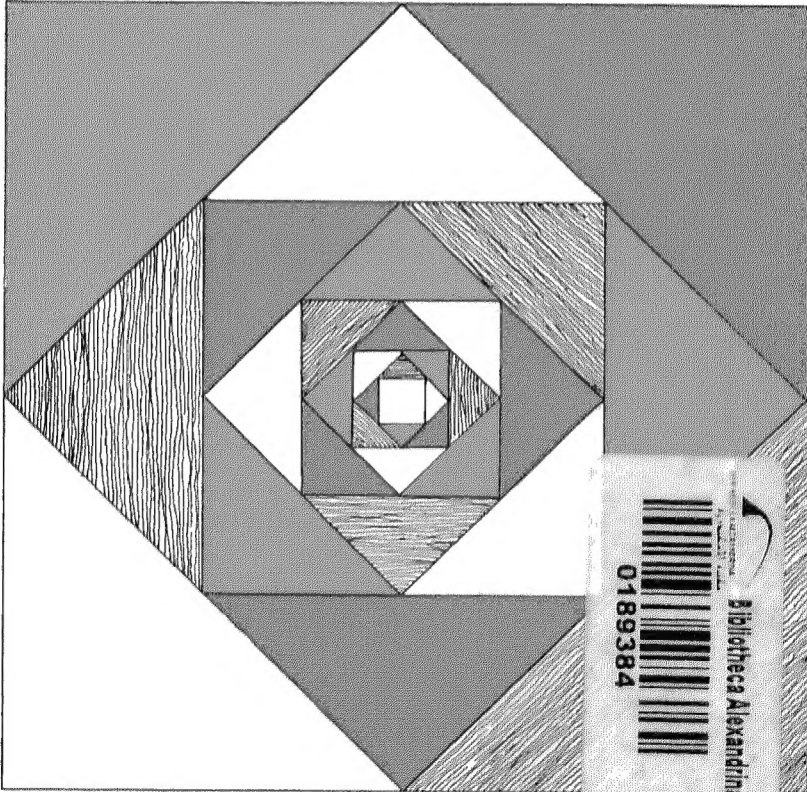


فلسفة

محمد الشيخ

المثقف والسلطة

دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر



0189384

Biblioteca Alexandrina



دار الطليعة - بيروت

المشقف والسياسة
دراسة في الفكر الفلسفي الغربي المعاصر

حقوق الطبع محفوظة
لدار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت ص.ب : ١١١٨١٣
تلفون : ٣١٤٦٥٩ - ٣٠٩٤٧٠
تلکس : 42168 - 20376 LE INTCO

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٩١

محمد الشيخ

المشقف والسلطان

دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر

تقديم

سالم يفتوت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

تقديم

سعدت بالإشراف على هذا البحث الذي يتصل موضوعه بجانب من الفلسفة الغربية المعاصرة، التي لم تحظ لدينا بعد بما ينبغي من اهتمام ودرس، هذا فضلاً عن افتقار المكتبة العربية إلى أغلب نصوصها، خصوصاً منها تلك التي ظهرت بعد السبعينات.

ولعل في هذا إشارة إلى أولى حسنات هذا البحث الذي اضطر صاحبه إلى جمع كل النصوص، بما فيها تلك التي كتبها «الفلاسفة الجدد»؛ وهي نصوص تتوزع بين مؤلفات ومقالات وحوارات واستجابات وبيانات... كما يغلب عليها، في العديد من الأحيان، طابع الكتابة المرتبكة، وهذا ما جعل من البحث وثيقة هامة، لا نظير لها، حسب ما أعلم، بما احتوى عليه من تتبع لأبرز بؤر الخلاف الفكري والصراع الأيديولوجي والسياسي بين فلاسفة فرنسا، منذ نهاية القرن الماضي، وملاحقة بؤر الاستقطاب الفكرية التي اجتذبت اهتمامهم، والمسار الذي اتخذته الفلسفة بعد أحداث ماي ١٩٦٨.

ثاني حسناته، أن صبر أيوب - وما أندره في زماننا هذا - الذي تحلى به هذا الباحث الشاب، مكنه من أن يطوع نصوصاً عديدة يشملها فضاء بحثه، تتوزع بين المجلات والدوريات والبيانات والمؤلفات، ويحصرها حصراً قصد الوقوف على الخطيط الرابط الذي ينتظمها، وإخراج اشكالياتها إلى واضحة النهار.

ولن أسترسل في تعداد حسنات هذا البحث، حتى لا أفوت على القارئ فرصة اكتشاف ما احتوى عليه عمل جاد كهذا من جرأة مكنت صاحبه من أن يتحول إلى موثق وجماعة ومنظر ومؤرخ للأفكار، وما تمتع به من حس نقدي جعله لا يركن إلى تتبع تطور الفكرة ورصد تحولاتها، بل يميز التحولات الحقيقية من التحولات الراكدة، والبدائيات الأصلية من البدائيات المكرورة.

ولا يسعني هنا إلا أن أنوه بهذا البحث لأن صاحبه يستحق التقدير الحق ، وأتمنى له مواصلة الطريق بنفس العزيمة والمثابرة والجد والتواضع ، وجميعها من صفات العلماء .

سالم يفوت

شعبة الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة محمد الخامس

الرباط

مقدمة

يتخذ هذا البحث من موضوع إشكالية المثقف والسلطة في الفكر الفرنسي المعاصر فضاءً إشكالياً له. فهو يحاول رصد خطاب السلطة في الفكر الفرنسي منذ أواخر القرن الماضي حتى الفترة الراهنة. لذلك يجد نفسه منذ الوهلة الأولى في مشكلة مع زمن الإشكالية وفضاء متنها.

وإذا كان قد حاول التغلب نسبياً على زمن الإشكالية بردها إلى ينابيع قضية دريفوس (١٨٩٤)، تلك القضية السياسية الخطيرة التي هزت الجمهورية الفرنسية الثالثة رداً طويلاً من الزمن، فإنه لم يستطع أبداً تصفية حسابه مع فضاء المتن.

إن المتن Corpus الذي يشكل فضاء هذه الإشكالية ليس كباقي المتن قابلاً للتطويع بعد بذل ساخ لجهود مكثفة. إنه متن ينفلت من بين أصابع اليد الكماء، موزع بين عدد هائل من المجلات والدوريات والبيانات والشهادات والمذكرات والمؤلفات، يصعب حصرها في الزمان والمكان، منها ما هو أكاديمي صرف وما هو صحافي بحث، ومنها ما يحاول أن يبتني لغة البحث الأكاديمي دون أن يفقد صلته بالجمهور الواسع.

إن المتن الذي يشكل فضاء هذه الإشكالية ليس كباقي المتن قابلاً للضبط التاريخي الصارم. إنه متن يلف الواقع ويلتف به في حركة سريعة الإيقاع. ومن ثمة فهو يتطلب جهداً كبيراً لضبط تاريخ المؤسسات الثقافية التي أنتجته: الجامعات والمعاهد الفرنسية، الرابطات والأحزاب السياسية، المذاهب والمدارس الفكرية. مما يولد تنوعاً خصباً في هذا المتن يجعل الباحث ينتقل من الأكاديمي إلى الحزبي ومن المذهبي إلى الصحافي.

إن المتن الذي يشكل فضاء هذه الإشكالية ليس كباقي المتن واضح المستويات ومحدد المعالم. إنه متن تتداخل فيه الأحداث والنصوص، والوقائع والتصورات. ومن ثمة فهو يتطلب حساً بنائياً تركيبياً دقيقاً يضبط قيم القضايا السياسية والاجتماعية الكبرى: قضية دريفوس، قضية الجزائر، قضية هنغاريا، قضية المنشقين السوفييت. . . على ضوء قيم الثورات الكبرى في العصر الحديث: الثورة الإنجليزية، الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية، الثورة البلشفية. . . وعلى ضوء التأويلات الكبرى لفكر هذه الثورات: هوبز،

روسو، مونتسكيو، روبسيير، توكفيل، ماركس، لينين، تروتسكي . . سولجنتسين .
لهذه الاعتبارات كلها يفرض هذا البحث على متناوله أخلاقية تستدعي المتطلبات
الفكرية - المنهجية التالية :

أولاً: أن يعمل كمؤرخ للافكار بحيث يتتبع الفكرة في تطورها من ينابيعها الأولى:
خاف على أحد نقص مكتباتنا الوطنية فيما يخص المجالات والصحف الرصينة التي
عالجت هذه الإشكالية .

ثانياً: أن يعمل كمهتم بسوسيولوجيا الثقافة، يعرف كيف يربط بين الفكر الفرنسي
والمؤسسات الاجتماعية والثقافية المنتجة له والمحيط به . وغير خاف على أحد صعوبة
خوض هذه المغامرة لاتساع رقعة البحث من جهة، ولصعوبة التدقيق في علاقة هذا
الفكر ببعض الأحداث العابرة من جهة أخرى .

ثالثاً: أن يعمل كمؤرخ للأفكار بحيث يتتبع الفكرة في تطورها من ينابيعها الأولى:
فكرة السلطة، فكرة الأستاذية، فكرة المثقف، فكرة التخيل والجسد . . وهو عمل
يتطلب حساً نقدياً كبيراً للتمييز بين التحولات الحقيقية وأشباه التحولات، وبين وضوح
اللغة الفرنسية وصعوبة الترجمة إلى العربية . فلا زلنا لم نصل باللغة العربية بعد حد المرونة
المطلوب .

لكل هذه الاعتبارات حكمنا على بحثنا منذ البداية بطابع المغامرة: لقد حاولنا أن
نقيم «جنيلوجيا» لإشكالية المثقف والسلطة في الفكر الفرنسي المعاصر، جنيلوجيا لم يكن
لها أن تدعي بكل تأكيد بأنها كانت «شكلاً من التاريخ يدرك تشكل المعارف والخطابات
ومجالات الأشياء . . دون أن يحتاج إلى العودة إلى ذات ما، سواء كانت متعالية بالنسبة
لخقل الأحداث أو تطارد باستمرار هويتها الفارغة عبر التاريخ»، على حد تعبير ميشيل
فوكو، إذ لم تشغل نفسها بمشكل الذات ولا بعودة الذات، وإنما حاولت تحقيق ثلاثة
أشياء أساسية :

أولاً: البحث في المهمل الذي غالباً ما لا يسترعي الانتباه، وهكذا دجت بين تحليل
النصوص الأساسية والاعتماد على الشهادات والاعترافات والانتقادات الذاتية
والمذكرات . .

ثانياً: البحث في مظاهر التشابه والاختلاف ورصد التقاطع في فكر أصبحت فيه كل
السلط رمادية وانتصر فيه ديوجين على أفلاطون، فأصبح همّ المثقف بناء جنيلوجيا
للسلطة/ الشر وإقامة أخلاقية للمقاومة . .

ثالثاً: البحث في تطور أربعة أجيال: «جيل الأساتذة» الذي أغرم «بالطبيعة البشرية»: هنري برجسون، ليون برانشفيك، آلان، و«جيل الأزمنة الحديثة» الذي أغرم بالتاريخ. جون بول سارتر، موريس بونتي، ريمون آرون، و«جيل الاختلاف» الذي أغرم بنقد فكر الحداثة وفكر التطابق: جاك دريدا، جيل دولوز، ميشيل فوكو. ثم «جيل الفلاسفة الجدد» المغرم بنقد التوتاليتارية وقضيم أوراق حياته بشكل كلي واضح. وكان لا بد من أن أتعسف، فأهمل أسماء وأعطي أسماء أخرى أكثر مما تستحقه.

وهكذا فإن هذا البحث لا يوازيه في طموحه إلا إقدامه على مغامرة شائكة. مغامرة لم تجد بداً من أن تعمق الثابت وتهمش المتحول أحياناً، وتستعمل مقصداً كبيراً بشكل مجازف أحياناً أخرى، وتحكم بالظاهر وتنسى السرائر أحياناً. فقادها ذلك إلى ضبط سؤاليين يشكلان محور هذه الإشكالية: كيف نشأت السلطة؟. وهو سؤال يتحول عند الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين إلى: كيف نشأ الشر؟، على اعتبار أن السلطة شر، وهذه مصادرة أساسية في مواقف المفكرين الفرنسيين. ثم كيف نقاوم السلطة؟ السؤال الذي يتحول إلى: كيف نقاوم الشر؟ أو كيف نبني جنيالوجيا للمقاومة؟.

جنيالوجيا الشر وجنيالوجيا المقاومة، أو نشأة السلطة وأخلاقية مقاومتها: هذان هما المحوران المنهجيان اللذان عاجلت من خلاهما إشكالية المثقف والسلطة في الفكر الفلسفي الفرنسي. وهما محوران توصلت إليهما بعد طول إمعان في متن هذه الإشكالية، فشكلا بذلك أصلاً لمنهجها الجنيالوجي.

وأخيراً، لقد استقر نظري على أن أقسم البحث وأبويه بالطريقة التالية:

١ - قسم أول، أبويه بمدخل، أتحدث فيه عن السلطة الثقافية للجامعة الفرنسية منذ عهد نابليون بوناپرت، وأقسمه إلى ثلاثة فصول، أتحدث في الفصل الأول عن منشأ مفهوم المثقف انطلاقاً من قضية دريفوس، وأضبط ثوابت وقيم هذه النشأة، وفصل ثان، أتحدث فيه عن نموذج تطبيقي لمفهوم المثقف وهو يبني جنيالوجيا للسلطة وأخلاقية للمقاومة: سياسة آلان. وأتابع في الفصل الثالث انسحاب «جيل الأساتذة» برجسون، برانشفيك آلان. وميلاد وتطور جيل «الأزمنة الحديثة»: سارتر، ميرلوبونتي، آرون. متابعة دقيقة أقف فيها عند خصوماته واختلافاته وأضبط اتفاقاته فيما يتعلق بدور المثقف وموقفه من السلطة.

٢ - قسم ثان أفتتحه بضبط مرتكزات القسم الأول. وأقسمه إلى ثلاثة فصول: الفصل الرابع أتحدث فيه عن الكيفية التي استبطن بها الفكر الفرنسي المعاصر «أساتذة

التشكيك»: ماركس، نيتشه، فرويد. وأختمه برصد تحولات الثقافة الفرنسية في الستينات وظهور «فكر الاختلاف». والفصل الخامس أوقف فيه عند ثورة أيار (ماي) ١٩٦٨، الحدث والدلالة. وأقترح قراءة متواضعة لهذا الحدث تحلل المتن وتستنتج الكتابة الجدارية وتستحضر الشهادات. والفصل السادس أبين فيه تأثير ماي ٦٨ في الفكر الفرنسي المعاصر من خلال مواضيع مختارة: المتخيل، الجسد، السلطة. ونماذج مختارة: ميشيل فوكو، جيل دولوز، فرانسوا ليوتار، جون بودريار.

٣ - قسم ثالث أحدد فيه مرتكزات القسم الثاني وثوابت جنيالوجيا المثقف والكتابة التشكيكية في ذات المثقف وأقسمه بدوره إلى ثلاثة فصول: الفصل السابع، أركز فيه على الخطاب حول الطغيان والتوتاليتارية، مازجاً بين الفلسفة السياسية والسوسيولوجيا السياسية، واقفاً عند نماذج أساسية: حنة آرندت، ريمون آرون، مدرسة فرانكفورت، كلود لوفور، بيير كلاستر، مارسيل غوشيه، كاستور ياديس، بيير لوجوندر. متحدثاً في الجزء الثاني منه عن ظهور «الفلاسفة الجدد» وتبلور أسطورة «الفلسفة الجديدة». والفصل الثامن أتحدث فيه عن «جنيالوجيا الشر» عند «الفلاسفة الجدد»، وفهمهم للسياسة والتاريخ وقراءتهم للتراث الفلسفي الغربي، مركزاً بالخصوص على ثلاثة نماذج: موريس كلافيل، برنار هنري ليفي، أندريه كلوكسيان. والفصل التاسع أتحدث فيه عن «أخلاقية المقاومة» عند «الفلاسفة الجدد»، مع ضبط مرجعياتهم وثوابت تشكل خطابهم وتضمن ما يمكن تمييزه ونقد ما يمكن نقده.

وهكذا أحاول في الأخير إبداء بعض الملاحظات التي تهيأت لي وأنا أراقب باهتمام كبير ما يحدث الآن في الساحة الثقافية الفرنسية، عسى أن تكون هذه الملاحظات باعثة على فهم أحسن للدعوات التي بدأت ترتفع اليوم حول: «موت المثقف»، و«هزيمة الفكر». يقول مثل روسي: الرغبة الأولى يكون دائماً مليئاً بالرماد.

من الذات إلى التاريخ: مغامرة جيل

"L'historicité reflua sur nous,
dans tout ce que nous touchions,
dans l'air ce que nous respirions,
dans la page que nous lisions,
dans celle que nous écrivions, dans l'amour même, nous découvrions un
goût d'histoire, c;à;d; un mélange amer
d'absolu et de transitoire".

J - P Sartre. Situations II

تمهيد

يقدم لنا الجو الثقافي الفرنسي نفسه قبل الحرب العالمية الأولى وفيها بين الحربين، أولاً، على أنه تعزيز متزايد للسلطة الفكرية للجامعة الفرنسية، وثانياً على أنه تكريس متنام لتوق المثقف الفرنسي - جامعيّاً كان أو على هامش الجامعة - نحو تساؤلات السياسة وهموم الساحة العمومية. وبالفعل، فقد حسم - منذ عهد نابليون بونابرت - صراع سياسي تربوي قديم حول سلطة الجامعة باعتبارها ممثلة سلطة ما سمي آنذاك بـ «المذهب الامبراطوري»، وباعتبارها - تحت وطأة عملية تحديث قوية - شأنًا «من شؤون الدولة»، فقانون ١٠ ماي ١٨٠٦ يكرس بشكل رسمي، أي سياسي، مفهوم «التربية الوطنية» الذي حملته الثورة الفرنسية ضمن ما حملته من «إصلاحات ثورية»، وذلك عبر إنشاء ما سمي آنذاك بـ «الجامعة الملكية»، وهي مؤسسة جامعية أريد لها أن تكون النموذج المدشن للتنظيم التعليمي المعقلن الحديث، وما ترتب عن ذلك من اعتبار رجل الجامعة «موظفًا عمومياً»، أي موظفًا في قبضة الأيديولوجية الرسمية، ومن إحداث «المدرسة العليا» سنة ١٨١٠ كباب لولوج الجامعة الملكية.

ومن مفارقات هذا التأسيس التي حكمت على الجامعة الفرنسية الناشئة أن تعيش وضعاً حرجاً: أنها خلقت إلى جانب «الموظف العمومي» - مؤسس «جمهورية الأساتذة» - «جماعة الأيديولوجيين» *les idéologues* التي شككت في الاطار السياسي والأيديولوجي لتأسيس هذه الجامعة نفسها. يقول أحد أولئك الذين شعروا بخطر هذا النسق الوظيفي الجديد: «إن الجامعة هي ذلك البناء الموحش، الذي من بين كل تصورات بونابرت، الأكثر إرهاباً للإنسان الذي يملك تفكيراً حراً مستقلاً، والأكثر معاداة من حيث العمق لكل ما يتنسب إلى المجتمع»^(١).

غير أنه وبالرغم من هذه المقاومة الراديكالية لبعض رجال الفكر الفرنسيين، سيتم تكريس سلطة الجامعة الملكية، وستدخل فرنسا في مرحلة «الدورة الجامعية»، حيث

(1) Lamenais, cité par Louis Bodin, in "les intellectuels", coll.: "Que Sais-je?". PUF, 1962 p.38

ستصبح الجامعة هي أداة إنتاج الأفكار وتسويقها، إلى حدود ثورة أيار (ماي) ٦٨ التي يمكن اعتبارها محاولة لبذر بذور الشك في القيم الثقافية والايديولوجية لهذا «البناء الموحش».

كيف حضرت الفلسفة داخل هذا الفضاء الثقافي الجديد، فضاء الجامعة الفرنسية المتصرة، فضاء الدورة الجامعية؟ يقول أحد أبرز منظري التعليم الفرنسي آنذاك، معرباً عن رغبة الجهات الرسمية في ربط التعليم الفلسفي الثانوي والجامعي بالمذهب السياسي للدولة: «إن السبب الحقيقي للترسخ المتزايد للمذاهب السلبية في ذهن شبيبتنا يتمثل في ضعف التعليم الفلسفي بثانوياتنا. لذلك فإن تطوير الدراسات الفلسفية في هذه الثانويات هو خير علاج وقائي يوقف زحف المادية»^(٢). هذا الدور الثقافي الايديولوجي للتعليم الفلسفي - الثانوي والجامعي - بفرنسا سيظل السمة الثابتة للحياة الثقافية والفكرية الجامعية الفرنسية. إلا أنه سيعرف هزتين عنيفتين: أولهما الهزة العنيفة لروح أخطر قضية سياسية فكرية عرفتها فرنسا أواخر القرن التاسع عشر، قضية دريفوس Af-faire Dreyfus، التي زادت في ترسيخ فكرة «الجامعة الشعبية» كأساس ثقافي واجتماعي لـ«تربية الشعب» وللوقوف في وجه النفوذ المتزايد «للجامعة الرسمية». وثانيهما الهزة التي رافقت ثورة ماي ٦٨، والتي جعلت من بين مراميها تأسيس نوع من الجامعة الموازية: «الجامعة النقدية» التي من شأنها «توعية الطلبة بدور الجامعة الرسمية داخل المجتمع الرأسمالي»^(٣).

لا بد من أن نسجل إذن ملاحظة تتعلق بالمصدرين اللذين غديا - معرفياً وايديولوجياً - الفكر الفلسفي الفرنسي من سنة ١٨٩٤ (قضية دريفوس) إلى حلول الحرب العالمية الثانية. ويمكن أن نجمل صياغة هذين المصدرين في: الإرث السياسي الثقافي لقضية دريفوس، وثقل الارث الديكارتي والكانطي - الوضعي والروحي معاً - على الحياة الجامعية الفرنسية. وسنعمل على أن ننشئ في هذا الفصل «جنيالوجيا» لهذين الإرثين مركزين على ما من شأنه أن يوصلنا إلى فهم ما يروج حالياً في الساحة الثقافية الفرنسية وبالأخص ما يتعلق منها بالخطاب حول «المثقف والسلطة» و«حقوق الانسان».

(2) Victor Duruy, cité par Jacques Derrida: "la philosophie et ses classes" in "Qui a peur de la philosophie?" Grèph. Flammarion. p.447.

(3) Manifeste du 22 mars, cité par Sylvain Zegel in "les idées de Mai" nrf. Gallimard. 1968 p.33.

الفصل الأول

قضية دريفوس ونشأة سلطة المثقف

*"C'est parce qu'il était juif qu'on l'a arrêté
C'est parce qu'il était juif qu'on l'a jugé
C'est parce qu'il était juif qu'on l'a condamné".*
Bernard LAZARD

برنار لازار أول أنصار دريفوس

تجمع كل الأبحاث الاجتماعية والتاريخية على أن مفهوم 'المثقف' l'intellectuel نشأ أول ما نشأ بفرنسا مع انفجار قضية دريفوس (*). وهذا لا يعني مطلقاً أن مضمون هذا المفهوم كان غائباً فيها قبل . فقضية سقراط وقضية فولتير - إذا لم نرد أن نذكر إلا هاتين القضيتين - تحملان دلالة هامة في هذا الصدد، وتقدمان نموذجاً واضحاً عن مفهوم المفكر أو الفيلسوف أو رجل الآداب الذي لا تشغله همومه المعرفية وتأملاته الفلسفية عن الاهتمام بشؤون المدينة والنزول إلى الساحة العمومية l'agora صادعاً باسم «الحق» و«العدل» و«الخير» ومدافعاً عن القيم الإنسانية العامة المجردة التي يلخصها شيشرون في «حب النوع البشري» . يلخص لنا أفلاطون قضية سقراط فيما يلي : «ظننت أن النظام الجديد سوف يضع حكم العدل مكان حكم الجور، وكرست له كل انتباهي لأرى ما سيفعله . فرأيت هؤلاء السادة في وقت قصير جداً وقد جعلوا الديمقراطية التي حطموها تبدو وكأنها العهد الذهبي! لقد ذهبوا إلى حد أمرؤا فيه سقراط - صديقي المسن الذي لن أتردد في تلقيه بأعدل رجال عصره - أن يشترك في القبض على مواطن كانوا يريدون إزاحته

(*) طرحت المسألة أيضاً في الثقافة الروسية والألمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولكن ما يهمنا هنا هو طرح المسألة داخل الثقافة الفرنسية .

عن طريقهم . وكانوا يبعون من وراء ذلك إشراك سقراط ، أراد هو أو لم يريد ، في أعمال النظام الجديد . وقد رفض سقراط الخضوع لهذا واستعد لمواجهة الموت ، مؤثراً هذا على أن يصبح أداة لجرائمهم»^(١).

أما قضية فولتير ، أو بالأحرى ، قضية كالاس affaire Callas فتتلخص في أنه في السابع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٦٢ ، وعند عودة تاجر تولوز البروتستنتي كالاس من عمله ، والذي كان وحده وأسرته يعيشان وسط مدينة ذات أغلبية كاثوليكية مطلقة ، اكتشف ابنه مشنوقاً بيته . وخوفاً من عار القضية وإقدام الكاثوليك على إحراق الإبن لمخالفته - بانتحاره - تعاليم المسيح ، إدعى الأب أن الأمر يتعلق بجريمة قتل . وسرعان ما دارت الدائرة على كالاس ، فاتهم بقتل ابنه منعاً له من التحول إلى الكاثوليكية ، فحاكمه برلمان تولوز محاكمة صورية وأعدمه كما صادر ممتلكاته . إلا أن زوجته وأبناءه اهتموا بالقضية وأقنعوا فيلسوفاً كبيراً مثل فولتير بالدفاع عنها . فكان كتابه «محاولة في التسامح» (١٧٦٣) صرخة ملتزمة في المجتمع الفرنسي أدت إلى إعادة فتح ملف القضية سنة ١٧٦٥ برلمان باريس الذي أعلن براءة كالاس ودفع الملك إلى أن يوصي بمنح هبة لذويه تعويضاً عما لحق بالأب كالاس من اضطهاد ديني .

هاتان القضيتان اعتبرتا في تاريخ الفكر الغربي نموذجاً لسلوك المثقف في مواجهة طغيان السلطة أو سلطة الطغيان . بل اعتبرتا علامة للمثقف ولسلطته حين ينزل إلى الساحة العمومية مقرأً لحق أو دافعاً لشبهة . إلا أن ما حدث أواخر القرن التاسع عشر في فرنسا كان أقوى سواء من حيث المشاركة المكثفة للمفكرين في الحدث أو من حيث حجم تأثير القضية ، مما كان كافياً بأن يخلق حدثاً ثقافياً جديداً في تاريخ الفكر الغربي : إنه نشأة «المثقف» كما بلوره الفكر الحديث .

للمثقف كما سنرى شهادة ميلاد ، إنه وليد قضية اجتماعية وسياسية شهيرة عرفت في تاريخ فرنسا الحديث باسم «قضية دريفوس» .

في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول (دجنر) ، سنة ١٨٩٤ ، أدانت إحدى المحاكم الفرنسية ضابطاً فرنسياً برتبة قبطان يدعى ألفريد دريفوس Alfred Dreyfus بتهمة تسريب معلومات عسكرية إلى ألمانيا العدو التقليدية لفرنسا . وقد بدت القضية في الوهلة الأولى قضية تجسس وخيانة استحق مقترفها الإهانة أمام الملاء والنفي إلى إحدى

(1) Platon: Lettres. lettre VII.

الجزر الغابرة. يقول أحد أولئك الذين تحملوا مسؤولية هامة في محاكمته بتاريخ ٤ دجنبر ١٨٩٧ في جمع عام: «ليست هناك قضية اسمها قضية دريفوس»^(٢) إلا أن تعقد الوضع الاجتماعي الفرنسي آنذاك من جهة، وغياب أدلة كافية تثبت تورط هذا القبطان ذي الأصل اليهودي من جهة ثانية، كذب تكذيباً قاطعاً هذا التصريح المطمئن، وجعل هذه المحاكمة تتحول إلى فتيل أوقد قضية سياسية كبرى عصفت بالحياة الاجتماعية والسياسية الفرنسية وبالجمهورية الثالثة ما يزيد عن عشر سنوات، وقسمت الشعب الفرنسي ونخبته المثقفة إلى مناصر لدريفيوس Dreyfusard ومعادٍ له anti Dreyfusard.

إجتاحت فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر موجة قوية من معاداة اليهود عرفت تحت اسم Anti-sémitisme. ويكفي الإطلال على ببليوغرافيا المؤلفات الفرنسية الصادرة آنذاك لإدراك حجم الكراهية المتنامية لليهود، وملاحظة أن أهم المؤلفات السياسية الناجحة آنذاك كانت - أمام سيطرة حقيقية وفعالية لليهود على الحياة المالية الفرنسية - تحمل نزعة معادية لليهود واضحة. فكتاب الاشتراكي الفرنسي إدوارد دريمون Edouard Drumont المعنون بـ«فرنسا اليهودية»، والذي يعبر فيه صاحبه عن حنقه على سيطرة اليهود على الحياة المالية الفرنسية، طبع ما يزيد عن مائة طبعة خلال سنة واحدة، سنة صدوره (١٨٨٦). وقبله كان كتاب آخر قد عرف نجاحاً منقطع النظير أنكر فيه مؤلفه على الطائفة اليهودية احتكارها للمناصب المالية الهامة في البلاد، اسم الكتاب موج جداً: «اليهود، ملوك العصر» (١٨٤٥)، وصاحبه يساري معروف: ألفونس دي توسنيل Alphonse de Toussenel تلميذ الاشتراكي الفرنسي شارل فوريه. وبين هذا وذلك يحتل كتاب أوغست شيرك المعنون بـ«ملوك الجمهورية» (١٨٨٥)، والذي يدين فيه صاحبه سيطرة اليهود على الشؤون السياسية بالبلاد، موقعاً مهماً ضمن هذه الأدبيات التي ساهمت في خلق «الرابطة المعادية للسامية» - la ligne anti sémite سنة ١٨٨٩، والتي تسربت إلى قنوات الإعلام خصوصاً منها الصحف اليمينية كصحيفة «l'anti-juif»، وصحيفة الصليب «La croix» التي كانت تفتخر بكونها «الصحيفة الأكثر معاداة لليهود في فرنسا والتي تحمل صليب المسيح»، رمز دعر اليهود»^(٣).

(2) Jules Méline cité par Maurice Páléologue, in "Journal de l'affaire Dreyfus 1894- 1899" Paris, Librairie Plon. 1955, p.82.

(3) Cité par Christophe Prochasson in "Dreyfusards et anti Dreyfusards", revue" histoire n° 115 Octobre 1988, p.36.

وقضية دريفوس كانت تنويعاً لهذه المرحلة. فبمجرد الإعلان عن محاكمته بادرت هذه الجماعات المعادية لليهود - عبر حملة مكثفة في الصحف الموالية لها - إلى اعتبار دريفوس نموذجاً لـ «اليهودي الخائن»، الذي لم ينخرط في الجيش الفرنسي إلا «قصده الخيانة». مقابل هذا، وفي الضفة الأخرى، بادر بعض أصدقائه - بإيعاز من أبنائه - إلى بيان «براءة» دريفوس والمطالبة بمحاكمة «المجرمين الحقيقيين».

هنا ستعرف الحياة الثقافية الفرنسية ظاهرة جديدة. يتعلق الأمر بنزول الأدباء والمفكرين الفرنسيين إلى حلبة الصراع، إلى الساحة العمومية، في حجم مشاركة مكثف، وفي سجلات عنيفة امتدت أحياناً إلى ساحات السوربون. وهنا أيضاً سيظهر أول بيان في تاريخ الفكر الغربي توقعه جماعة من رجال الأدب والفكر، تسمى نفسها جماعة المثقفين les intellectuels جاء في بيان «المثقفين» هذا "le manifeste des intellectuels" المنشور بجريدة «الفجر» بتاريخ ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ ما يلي: «إن الموقعين أسفله، يحتجون ضد خرق الأشكال القانونية لمحضر سنة ١٨٩٤، ويحتجون على التعيينات المحيطة بقضية استرازي (*)، ويلحون على مراجعة الحكم الصادر في حق دريفوس» (٤) وقعت البيان أسماء كبرى كإميل زولا وأنتول فرانس ومارسيل بروس وليون بلم. ويعد اليوم هذا البيان شهادة ميلاد المثقف. فكيف سيتحدد وضعه انطلاقاً من هذه القضية؟

إن البحث في الالتباسات اللغوية المتعلقة بمفهوم «المثقف» قد تعيننا على إيضاح ذلك. إن أول معجم فرنسي يشير إلى كلمة "intellectual" هو معجم لالاند الشهير. يقول برانشفيك معلّقاً على هامش كلمة intellectualisme ومتحدثاً عن لفظة "intellectuel": «أذكر أنني سمعت أستاذي أولي لبرون Ollé Laprunه يستعمل هذه الكلمة حوالي سنة ١٨٩٠ في مناقشة عابرة. لقد بدت الكلمة آنذاك وكأنها لفظة مولدة». إلا أن الكلمة استعملت حينئذ كصفة لا كاسم، وكانت تحيل إلى مذهب L'intellectualisme. غير أن ما جمع فيها بين الصفة والاسم هو المعنى القدحي الذي اتخذته منذ البداية. يقول أندريه لالاند: «هناك دائماً تقريباً معنى قدحي مرتبط بالاستعمال السلبي الذي استعملت به كلمة intellectuel أيضاً في المناقشات السياسية» (٥). إن استعمال هذه الكلمة، أي كلمة «مثقف»، لا يمكن أن يفهم إلا

(*) أحد أطراف قضية دريفوس والمعل المدبر للمحاكمة. هرب لما انكشف أمره إلى ألمانيا.

(4) Cité par Louis Bodin in "les intellectuels" op. cit. p.6.

(5) Rubrique "intellectualisme" vocabulaire technique et critique de la philosophie. André Lolande 7ème édition PUF 1956 p.523.

ضمن السياق العام للمواقف المتخذة إزاء قضية دريفوس . فلقد انقسم الجسد الثقافي الفرنسي إلى جماعتين متعارضتين لم تخل ساحات الجامعات الفرنسية أحياناً من تشابكهما بالأيدي والعصي كانت الجماعة الأولى ترى في هذه القضية مسأً بشرف الجيش الفرنسي و«محاولة يهودية فاشلة» للنيل من كيان فرنسا الوطني . ولقد مثل هذه الجماعة مفكرون وطنيون من أمثال موريس باريس Maurice Barres وأعضاء الأكاديمية الفرنسية وأغلب الصحف والمجلات اليمينية وبعض رجال الجيش والأعمال والسياسة الذين قاموا بانقلاب فاشل بمناسبة تشييع جنازة الرئيس فليكس فور سنة ١٨٩٩ . أما الجماعة الثانية ، فقد كانت ترى في هذه القضية تهديداً للديمقراطية وتكريساً للعنصرية ومداً للعسكراتية . مثل هذه الجماعة إلى جانب اليسار السياسي الفرنسي - ليون بلوم ، جان جوريس - بعض الأدباء الشباب الملتفين حول جماعة الرمزيين les symbolistes من أمثال أندريه جيد ومارسيل بروست . ودخل أهم أديب فرنسي آنذاك مثل المذهب الطبيعي 1.٥ naturalisme إميل زولا لين كل ثقله الثقافي في هذه القضية من خلال سلسلة مقالات صاخبة ، وبالأخص من خلال رسالته إلى رئيس الجمهورية بتاريخ ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ المعنونة بـ«إني اتهم» والتي يدين فيها «الاجحافات والتدليسات والجرائم القضائية للقيادة العليا للجيش»^(٦).

هذا الاختلاف بين الجماعتين لم يكن محض اختلاف سياسي ، بل كان أيضاً اختلافاً بين جيلين ثقافيين ، جيل القدامى الذي مثلته الأكاديمية الفرنسية بميولها الوطنية المحافظة وبمعاداتها لكل ما من شأنه أن يمس بـ«الإرث الأدبي للغة الفرنسية» ، وجيل المحدثين بميوله الطليعية وبتعاطفه مع كل النزعات «التجديدية» . لقد حمل الجيل الأول أحياناً اسم «الورثة» les héritiers ، أي جيل الصالونات الأدبية الرفيعة الذي كان يحتقر احتقاراً شديداً الجيل الثاني ، جيل الممنوحين les Boursiers ، أي الجيل الذي تكون في الجامعة الفرنسية وتدرس فيها بمنح مساعدة علاوة على عوزه المادي وأصوله الريفية . لقد كانت باريس كلها برجال أدها ضد دريفوس . وكان أدباء ومفكرو فرنسا من غير عاصمتها نخبة مثقفة مدافعة عنه . يقول أحد أولئك الذين عاينوا هذا الصراع في كتاب له غني الدلالة «جمهورية الأساتذة» : «لقد كانت قضية دريفوس ثورة وانتصاراً للمثقفين . لكن من هم هؤلاء المثقفون؟ لا يتعلق الأمر بأولئك الذين كانوا ينظرون إلى الأمور في استعلاء . لقد كانت رابطة الوطن الفرنسي رابطة أكاديميين ، فأغلب الكتاب

(6) Cité par Maurice Paléologue in "Journal de l'affaire Dreyfus", op. cit. p.107.

الباريسيين كانوا معادين لدريغوس»^(٧).

وقف ضد الجيل الأول الجيل الثاني، جيل المحدثين جيل المدرسة الرمزية والمدرسة الطبيعية، جيل شباب كان يبحث عن مكان له بالأكاديمية فحرم منه غالباً وتحول تدريجياً ليحرب حظه مع قوى اليسار. فلا غرو إذن أن نجد إلى جانب الأكاديمية سياسياً يمينياً مثل موريس باريس، وإلى جانب جيل الشباب هيسياً يسارياً من حجم جان جوريس. ولا شك أن يكون ناقد أكاديمي فرنسي ضد جيل «المثقفين»، بل ضد مفهوم «المثقف» نفسه. يقول برونيتير Brunetière في سجال عنيف ضد «المثقفين» وفي تعليق حول «بيان المثقفين»: «... وهذه العريضة التي يتم ترويجها بين «المثقفين»! إن واقعة نحت كلمة «المثقفين» هذه وحدها، للتدليل على جماعة أشبه بطائفة شرفاء، على رجال يعيشون في المختبرات والمكتبات، تدلنا على أحد التدليسات الأكثر إثارة للسخرية في عصرنا، أعني رفع الكتاب والعلماء والأساتذة والفلاسفة إلى مرتبة تجعلهم فوق الناس أجمعين. إن المؤهلات، والتي لا أحط من قيمتها بالتأكيد ليست لها إلا قيمة نسبية. إذ بالنسبة لي، وحين نكون إزاء النظام المجتمعي، فإنني أعطي قيمة أكبر لجلبة الإرادة وقوة الطبع ويقين الحكم والتجربة العملية. وبهذا لا أتردد في أن أضع هذا الفلاح الذي أعرفه جيداً أو ذلك التاجر، في مرتبة فوق مرتبة ذلك العلامة أو ذلك البيولوجي أو الرياضي الذي لا يعجبني أن أذكره باسمه»^(٨). المثقف إذن ليس أهلاً للنزول إلى الساحة العمومية وليس أهلاً لأن يلج عالم السياسة أو إطار النظام المجتمعي من باب الثقافة أو القيم الثقافية الكبرى كالحق والخير والعدل. إن هذه القيم غير قابلة لأن تجسد في فعل سياسي مشخص. ولهذا فحين يكتب زولا رسالة إلى رئيس الجمهورية، فإن هذه الرسالة في عكسها للطابع «الادعائي الاستعلائي»، ليست إلا «علامة حماقة وتعجرف وفضاظة» بل إن «تدخل هذا الروائي في مشكل لا يهيمه، مشكل القضاء العسكري، لا يبدو لي أقل سخفاً وخسة مما سيكون عليه الأمر لو أن ضابط درك تدخل في مناقشة تتعلق بالنحو أو العروض»^(٩). تقسيم العمل إذن لا يترك مكاناً للمثقف، ومن ثمة فإن عمل زولا عمل «تخريبي» يهدف إلى المس بشرف المؤسسة القضائية والعسكرية معاً. والحال أن المصادرة التي تبني عليها هذه الجماعة موقفها هي أنه «بدون محاكم لا وجود للمجتمع». المثقف

(7) Albert Thibaudet: "la république des professeurs", les écrits, Grasset 1927 p240.

(8) Cité par Maurice Paléologue "journal...", op. cit. p91 - 92.

(9) Ibid p.6.

بهذا هو إذن حسب تعبير موريس باريس - أحد أعنت أعداء دريفوس وزولا على السواء - «هو ذلك الفرد الذي يقنع نفسه بأن المجتمع يجب أن يقوم وفقاً لمنطقه وإرادته هو، والذي يجهل أن المجتمع هو قائم فعلاً وواقعاً على ضرورات داخلية قد تكون لا علاقة لها مطلقاً بإرادة العقل الفردي»^(١٠). المثقف بهذا المعنى هو ضحية وهم منطق أو هو «منطقي المطلق» الذي ينحط حين يصبح «منطقي النسبي». والمثقفون إذن هم جماعة طوباوية فـ«كل أرسقراطيو الفكر هؤلاء يؤكدون على أنهم لا يفكرون كما تفكر الجميع التي ينظرون إليها على أنها دنيئة. ومن ثمة فنحن نلاحظ بشكل واضح كيف أنهم لا يشعرون باتفاق عفوي مع جماعتهم الطبيعية». إن هؤلاء المثقفين المتعطرسين الأدعاء هم نفايات ضرورية لسعي المجتمع الحثيث إلى خلق نخبة. . . هؤلاء العباقرة المهزوزون من أساسهم، هؤلاء العقول المسكينة المسمومة، تستحق شفقة تماثل شفقتنا على فئران الاختبار التي يلقحها بالسعار أساتذة مختبر باستور»^(١١).

تري هذه الجماعة إذن أنه باسم مصلحة الدولة العليا *La raison d'état*، وباسم شرف القضاء والجيش يجب على «المثقف» ألا يتدخل في هذه القضية. وكما عبر عن ذلك وزير المالية حينئذ، ريمون بوانكريه، إنها قضية قضائية أساساً. فيجب علينا أن نتركها بين جدران المحكمة وألا نسحبها، كما يفعل البعض اليوم، إلى الساحة العمومية»^(١٢).

أمام منطق مصلحة الدولة العليا، يقوم منطق آخر، منطق أسس «رابطة حقوق الإنسان»، واعتبر أن القضية هي قضية ديمقراطية وعدالة اجتماعية. ومن أهم الذين رسخوا هذه القناعة جماعة من أساتذة الفلسفة بالجامعات الفرنسية، كبروشار Broeh-ard (١٨٠٧ - ١٩٠٤) أستاذ تاريخ الفلسفة الذي حل محل إميل بوترو، وسيل Scailles (١٨٥٢ - ١٩٢٢)، أستاذ الفلسفة بالسوربون، يؤكد هؤلاء الأساتذة في تدخل موجه ضد برونيتير وجماعة «مصلحة الدولة العليا»: «نعم إن العدالة هي أساس المجتمع. ولكن ليست المحاكم بل الحق هو مؤسس العدالة. . . وشرف رجل ليس أقل من شرف جيش بأكمله. . . يقول شيشرون: «ليست العدالة إلا حب النوع البشري». . . فأن نعتقل إنساناً على أساس جرائم لم يترفها ليس فقط خرقاً للقانون بل هو أيضاً جريمة قضائية. . . وادعاء مصلحة الدولة العليا ليس غالباً إلا إخفاء للجهل والحماقة أو لجرائم

(10) Maurice Barres, cité par Louis Bodin: "les intellectuels" op. cit. p. 7-8.

(11) Ibid p.6.

(12) Raymond Poincaré, cité par M. Paléologue "journal..." op. cit. p.84.

الاوليغارشية». وتستخلص هذه الجماعة ان «المثقفين وحدهم اليوم هم المعنيون بتجسيد التقاليد الحقيقية للوعي الفرنسي والروح الفرنسية»^(١٣).

بهذا يتم افتتاح سجال سياسي وثقافي خصب هيمن على الحياة الثقافية الفرنسية زمناً طويلاً وهو لا يزال إلى اليوم أهم سمة لها: منطق المطلق ومنطق النسبي، سلطة الروحي وسلطة الزمني، حقوق الانسان ومصلحة الدولة، حقوق الفرد ومنطق الاوليغارشية. ولقد امتد هذا الجدال ليترسخ داخل الجامعة الفرنسية خصوصاً منها السوربون. «لقد سجلت قضية دريفوس، باعتبارها صراعاً ثقافياً، انتصار الانتلجنسيا الدنيا على الانتلجنسيا العليا؛ أو انتصار «صغار المثقفين» على «كبار المثقفين» وفي رأي مفكر على مذهب سان سيمون يمكن القول: إنه كان انتصار استحقاق حكم الفكر méritocratie على حكم aristocratie»^(١٤).

لم تنته قضية دريفوس بانتحار أحد العقول المدبرة لها العقيد هنري وهروب دماغها المخطط استرازي، وإعادة الاعتبار للقبطان دريفوس في الواحد والعشرين من شهر تموز (يوليوز) سنة ١٩٠٦ بل وترقيته، وإنما ظلت توجه - في خفاء - الثقافة الفرنسية زمناً طويلاً وهي لا زالت توجهها حتى اليوم. ما يهمنها من هذا التوجيه هنا هو تعامل الفيلسوف مع مخلفات هذه القضية.

إن أهم أستاذ فلسفة توفي مع بداية القضية وتكون تلامذته في ظلها هو الفيلسوف الفرنسي جول لانيو Jules Lagneau (١٨٥١ - ١٨٩٤). لقد دشّن هذا الفيلسوف، في وعي كامل، بما يمكن أن يجره تجسيد القيم الثقافية العليا في سلوك سياسي مشخص، وما يمكن أن يجره الانغماس في هذه السياسة من «ميوعة» للسلطة الناشئة للمثقف، نموذجاً لأولى طرائق التعامل مع السياسة. مثل نموذجاً للانفتاح على السياسي في حذر ومواجهة الأكاديمي من غير عنف. يقول أحد أولئك الذين عرفوه معرفة مباشرة: «إن أهم ما في لانيو هو شخصه، وأكثر من ذلك تعليمه وحضوره وكبرياؤه الداخلي بل الاحساس القوي عند تلامذته بفكر لحمته كنور في مشكاة، فكر من أجل ذاته على طريقة آله أرسطو تماماً أكثر منه فكراً للناس وللآخرين. والأهم في تعليم لانيو هذا كان ما يلي: لقد كان هذا التعليم كصاحبه تماماً بل وأكثر من صاحبه يمثل نسخة مثالية

(13) Ibid, p.91.

(14) Régis Debray: "le pouvoir intellectuel en France" edit. Ramsay. 1979. p.65,

لتلك النخبة من قساوسة الجامعة والذين هم أساتذة الفلسفة عندنا»^(١٥). منذ أن طرحت قضية دريفوس سيجد الفيلسوف نفسه في وضع إشكالي حرج: فهو لا ينسى تراث قضية سقراط وقضية كالاس، ولكنه لا يريد من جهة أخرى أن يفقد وضعه كـ«قسيس» يدافع عن المثل العليا دون أن يقيس أحكامه على «سمولاكرايتا»، لقد ظل استاذ الفلسفة يؤمن بفكرة أفلاطون القائلة إن التشخيص انحطاط. كان لانيو هذا لا يفصل بين الروحي والزماني، بين ما للفيلسوف وما لرجل السياسة، إلا ليفصل بين السياسي والسياسة. كان يريد للسياسي أن يحضر في المفكر ولا يريد للمفكر أن يحضر في السياسة، ومن هنا جاء ميثاقه الذي يعد بحق إعلاناً عن ميلاد نوع خاص من المثقفين في فرنسا هو المفكر الذي يريد أن يلعب بالسياسي دون أن تحرقه نار السياسة، إنه بصفة خاصة: سقراط المستحيل - تلك الصورة التي رافقت المثقف الفيلسوف منذ ولادته حتى يومنا هذا. يقول لانيو في هذا الميثاق: «إننا ننكر على أنفسنا كل توق إلى الشهرة أو الشعبية ونمنع على أنفسنا كل طمع في أن نصبح ذوي سلطة أو قوة أو نفوذ. إننا نلزم أنفسنا بالآ نكذب أبداً مهما كان الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه، وألا نخلق أو نساند بأقوالنا وكتاباتنا أوهاماً حول أمور هذا العالم المتقلبة»^(١٦).

يريد أستاذ الفلسفة لنفسه أن يكون «نصف قسيس» demi-clerc، أن يدين دون أن يتورط، أن يفكر دون أن يخطط، أن يلتزم دون أن يندمج، أن يكتب عن السياسة دون أن يكتب فيها. «من هو إذن أستاذ الفلسفة؟ ليفي برول أو برجسون، لانيو أو الآن؟ إنه سقراط الأبدي. لكن إلى أي حد يمكن أن نرى في سقراط عدواً أو صديقاً للدولة؟. كان لانيو يتبنى مقولة كانط التي تفيد أن للتربية عدوان: الدولة والوالدان»^(١٧).

هكذا يتحدد المثقف انطلاقاً من قضية دريفوس على أنه سياسي بالسلب. وقبل أن نحلل النسق السياسي لأحد أبرز تلامذة جيل لانيو وأحد أكبر أولئك الذين طرحوا إشكالية السلطة في الثقافة الفرنسية المعاصرة والذي بدون الحديث عن نسقه لا يمكن أن نفهم ما يروج حالياً في هذه الساحة، تجدر الإشارة إلى أن أساتذة فلسفة آخرين وقفوا

(15) Albert Thibaudet: "la république des professeurs" op. cit. p.139.

(16) Jules Lagneau, cité par Albert Thibaudet in "la république des professeurs" op. cit. p.147.

(17) Ibid. p.149.

موقفاً «كلاسيكياً» من هذه الإشكالية فلا هم استقلوا بتحليل آلياتها ولا هم عملوا على تحديد ميكانيزماتها، بل ظلوا على هامش هذه الإشكالية. فمثلاً يفضي برجسون بهذا الاعتراف إلى أحد تلامذته حين سأله عن علاقته بالسياسة، وعن رأيه في تعامل الفيلسوف مع مشكلة السلطة: «لم أفعل ذلك إلا في استثناء واحد: كان ذلك خلال حرب ١٤ - ١٨، ولم أكن أهدف بذلك إلا خدمة بلادي»^(١٨) وهو يلمح بذلك إلى سعيه لحمل الولايات المتحدة الأمريكية على الدخول إلى الحرب الأولى بجانب فرنسا وضد ألمانيا. وفي نفس السياق أيضاً نجد أحد أبرز فلاسفة القرن الماضي يحذر تلميذه آلان Alain من الاكتواء بنار السياسة، يقول التلميذ: «عندما كتب إلي جول لاشلييه Jules Lachelier يقول: «أتوسل إليك ألا تورط نفسك في السياسة»، لم أصب بدهشة تذكر. ففي نظر هذا المفكر لا يمكن للنظام السياسي إلا أن يبدو كاستمرار للنظام الكوني. إذ أن تكون هناك سلط فمعنى ذلك الأمر عنده كما لو أن هذا كان استعداداً طبيعياً لعالمنا البشري. وأن يكون من الممكن أن تصبح هذه السلط عمياء فإن ذلك ناتج عن تصفية حساب بين الناس وهم في يد القدر وبين هذا القدر نفسه. كل مقاومة وكل نقد عمومي كانا إذن كما لو أنها فعلا للربح والعواطف يعكسان فوضى في الدولة وفوضى في الفرد»^(١٩).

ضد هذا الموقف هناك سياسة المثقف، وهي في صورتها الأول تأخذ شكل سياسة الآن.

(18) Albert Béguin et Pierre Thévenaz, in "Essais et témoignages" édit. de la Baconnière Neuchâtel. Les cahiers du Rhone 1943 p.371.

(19) Alain: "souvenirs concernant Jules Lagneau" 3ème édit, nrf Gallimard. 1925. p.53 - 54

الفصل الثاني

سياسة آلان

*"Il y aura toujours deux politiques:
Celle des politiques et celle des citoyens".*

ALAIN

"Alain, c'est d'abord l'anti-pouvoir".

GEORGES BURDEAU

يعد آلان - الاسم المستعار لإميل شارتييه Emile Chartier - من أشهر أساتذة الفلسفة في النصف الأول من القرن الحالي بفرنسا، إن لم نقل أكثرهم شهرة وأبلغهم تأثيراً في جيل ما بين الحربين. عبّر هذا الفيلسوف عن أفكاره وعن مضمون تعليمه في شذرات حول الأخلاق والسياسة والفن سميت بأراء آلان les propos d'Alain، وهي تفوق الألف وتتنوع في عدد من الكتب نشر بعضها تلامذته بعد وفاته. على أن ما يهمنا من هذه الآراء ما تعلق منها بالسياسة وبالضبط ما سمي لاحقاً بسياسة آلان la politique d'Alain أو سياسة الفيلسوف la politique du philosophe والتي نعتقد أن أهم القضايا التي طرحتها ظلت ولا تزال مهيمنة على الفكر الفرنسي خصوصاً ما تعلق منها بعلاقة المثقف بالسلطة. ونحن نعتقد بالإضافة إلى هذا أن المدشن الحقيقي لإشكالية المثقف والسلطة هو آلان. وهو، سواء بالنسبة لأولئك الذين ساندوا طرحه أو أولئك الذين مالوا إلى معاكسته، يظل الموحى المستتر لأغلب الخطابات المتعلقة بهذه الإشكالية: فهو المحدد الأول لقوانين لعبتها وهو المقدم لأكثر الأجوبة نسقية عنها.

يجب أن نضع نصب أعيننا، ونحن نتحدث عن سياسة آلان، أنها تنحدر أولاً عن قراءة سياسة ثقافية لقضية دريفوس، أي كجواب عن السؤال: ماذا نفعل بقضية دريفوس؟ وثانياً، عن فلسفة سياسية شكل الخط الثلاثي: أفلاطون - روسو - كانط أهم مرجعياتها.

إن ما استفادته الفلسفة السياسية الفرنسية المعاصرة من قضية دريفوس يمكن إجماله

في فكرتين :

الفرد كقيمة في ذاته والسياسة كسلب في ذاتها . أي الفرد في مواجهة السياسة كسياسة للفرد . نجد أحسن تصوير للقيمة الأولى فيما يكاد أن يكون بياناً لروح النزعة الفردية التي هيمنت على فرنسا فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، والذي سمي بالبيان الفرداني - mani feste individualiste في الفلسفة الفرنسية . يقول صاحب هذا البيان - المقال «كلما أقدمنا على التفكير في أشياء هذا العالم فإن فكرنا يجد مركزه في وعينا الفردي وينطبق هذا الفكر على أشياء ترتبط فيما بينها لتشكل أطراف وأجزاء الكون ، إن حكمنا المتواضع يأخذ قياس العالم ، وإرادتنا الصغيرة تضيف الموجود إلى الواقع الذي تنفذ فيه . لسنا إلا خيطاً في النسيج الضخم الذي يتمايل بريح السماء . ورغم ذلك فإننا نحس بحركة المجموع ونعرف كيف نقلل أو نزيد من سرعتها»^(١).

هذه النزعة الفردية الواضحة ستظل مهيمنة على الفلسفة الفرنسية زمناً طويلاً ، بل - وكما اكتشف فلاسفة ما بعد الحرب الثانية ذلك - ستعوق هذه الفلسفة عن فهم المجتمع والتاريخ .

أما القيمة الثانية فسنجدها في ذلك السعي الحثيث إلى وضع خط فاصل بين الفرد والسياسة ، المواطن والدولة ، الشخص والمجتمع باعتبار أن ما هو اجتماعي وسياسي سلب لما هو فردي وشخصي وحميمي . فالسياسة قدر ، ولكن قدر بمعنى شر . فلما أن نتعد عنها «لأشلييه ، برجسون ، برانشفيك» ، وإما أن نواجهها بعنف ، أن نؤسس سياسة الفرد ضد سياسة السياسة ، سلطة الفرد ضد السلطة . لكن ما معنى أن يفهم المثقف السياسة ؟ ما معنى أن نفهم السياسة ؟

يجيب الآن : «أن نفهم السياسة ليس معناه في رأيي ، أن نقارن الأنظمة السياسية فيما بينها ونختار ، إن أمكن ذلك ، أحسنها على الإطلاق . أن نفهم السياسة ، معناه قبل كل شيء ، أن نفهم التأثيرات وردود الأفعال التي تحدث بين السلطة والأفراد المحكومين»^(٢) . مع الآن نسجل تحولاً في تعامل المفكر مع السياسة . إذ ليس التعامل هنا هو إقامة تصنيف ونمذجة typologie لأنواع الحكم على طريقة أرسطو مثلاً ، ليست السياسة هنا هي «سياسي» أرسطو ، بل التعامل هنا هو رصد تقاطع حقوق المواطن وسلطة السلطة ،

(1) Darlu cité par André Glucksmann in "Descartes, c'est la France". Flammarion p42- 43, 1987.

(2) Alain: "Eléments d'une doctrine radicale" 3ème édit. nrf/Gallimard 1925. p.164.

السياسة هنا سياسة المثقف . ولعل مثل هذه السياسة ، سياسة المثقف كسياسة للفرد ، هي ما سيطفو على السطح بعد ثورة ماي ٦٨ ، ولكن بشكل أكثر أصالة .

لكن ما معنى أن نفكر في السياسة؟ ما معنى «نحن»؟ الحقيقة أنه لا مكان لـ«نحن» في خطاب الآن . وكما أنه لا مكان للشاعر في جمهورية أفلاطون ، فإنه لا مكان لنحن في سياسة الآن . وكما انه علينا أن نلبس الشاعر في جمهورية أفلاطون تاجاً من الشوك ونطرده خارج المدينة باعتباره يفسد عواطف الناس ، فإن كل تفكير يأتي عن طريق «نحن» وتقوم به الجماعة إلا وهو بلاذة وبربرية في سياسة الآن . يقول الآن : «يفكر الإنسان دائماً في وحدته وصمته أمام الأشياء . وبمجرد أن يفكر الناس جماعياً حتى تسوء الأمور بسرعة»^(٣) ليس أعدى عند الفيلسوف من سياسة المجتمع ، فسياسة الفيلسوف هي سياسة الفرد ، ذلك لأنه عند الآن «المجتمع هو دائماً قهر وقمع . إنه دائماً أعمى فهو ينتج بصفة دائمة ومستمرة الحرب والعبودية والشعوذة بطبيعته الخاصة . إن الإنسانية تجد نفسها دائماً في الفرد ، في حين تجد البربرية نفسها في المجتمع»^(٤) . لهذا فعلى الفرد أن يفكر دائماً ضد المجتمع . «الفرد الذي يفكر ضد المجتمع الذي ينام ، ذلك هو التاريخ الأبدى ، وللربيع دائماً نفس الشتاء ليهزمه»^(٥) وحتى قضية كبرى مشتركة كقضية دريفوس لم يكن أبداً من الممكن أن نقرأها جماعياً وأن نؤسس - بناء عليها - سياسة جماعية مشتركة . هناك إذن دائماً إمكانية قراءة خاطئة فجأة لقضية دريفوس ما دمنا نفكر فيها جماعة وبشكل مشترك «في زمن دريفوس كان هم المواطنين هو أن يتساءلوا أولاً عما إذا كان دريفوس متورطاً أم بريئاً وكان الأجدر بهم أن يتساءلوا عما إذا كان الرأي مستعداً لمواجهة السلطة إذا ثبتت براءة دريفوس . كان ذلك هو السؤال الحقيقي الذي يجب أن يطرح»^(٦) قضية دريفوس إذن ولدها الرأي العام ميتة لأنه لم يطورها ولم يحافظ على المواجهة الأبدية والاستعداد الدائم لمواجهة السلطة . «ظلت قضية دريفوس رائعة بقدر ما كنا نصنعها باستمرار وبقدر ما كنا نحملها بين الذراعين . لكن لما أصبحت جالسة كانت قد تحولت آنذاك إلى جثة هامدة»^(٧) .

يجب إذن أن نفكر في قضية دريفوس ونحن واقفون أو وهي واقفة ، والفيلسوف دائماً يطور باستمرار قضية دريفوس : «لم أصبح من أنصار دريفوس إلا مرغماً وبعد أن قرأت

(3) Ibid, p.157.

(6) Ibid, p.164.

(4) Ibid, p.284.

(7) Ibid, p.286.

(5) Ibid, p.286.

بعض البلادات التي كان يكتبها العسكر في بعض صحفه . لقد تلقيت ببرودة خبر تورط ضابط من القيادة العليا وهو يلعب بنار العسكر الخطيرة ، لأنني كنت قد قرأت تاريخ اللعبة العسكرية ولم أكن أتوفر على رأي خاص في هؤلاء الرجال العنيفين الحذرين . كما كنت أحتقر كل ما يتعلق بأمور التجسس ومحاربه . لقد وجدت نفسي هكذا في موقع حكم غير متحمس . غير انه لما تبين لي بوضوح ان قواد الجيش الكبار كانوا يفخرون بارتكاب الخطأ بل ويستغلونه لتذكيرنا بأنهم يحكموننا بالقوة ، ارتقيت فجأة في أحضان الثورة والتحققت بأصدقائي المناصرين لدريغوس . لقد أقسمنا ألا نصبح أبداً بعد هذا «يحميا الجيش» . . وأصبحنا نلقي خطباً على منابر الساحة العمومية بمساعدة عمال الورش ورجال البحرية . لقد أصبحنا فجأة سادة المدينة وأنشأنا عن كئيب كومونة مستقلة نواجه بها حالة محتملة لانقلاب يقوم به العسكر . لقد ارتقيت إذن في أحضان الأهواء السياسية . . ولحظتها بدأت أدرك حبال السياسة . لهذا كان علي أن أقرأ ما كنت أجده من كتابات ماركس وبرودون ، وكان علي أن أصعد إلى العقد الاجتماعي حيث أخذت زهور الثورة تنمو⁽⁸⁾ . هكذا ينشأ المثقف إذن ويحضر بكل ثقله . . إنه الوريث الشرعي للثورة الفرنسية ولكومونة باريس ، وإنه القارئ المتميز لروسو وماركس ، وإنه المدافع عن حقوق الإنسان وعن الديمقراطية . كم تبدو شهادة الميلاد هذه مغرية ، ولكنم أغرت بالفعل كل المثقفين الفرنسيين بعد الحرب الثانية وإبان ثورة ماي ٦٨ . أن يكون المفكر مثقفاً معناه إذن أن يفهم السياسة ، وأن يفهم السياسة معناه أن يعود إلى الفرد ، إلى الإنسان في درجة الصفر ، إلى الإنسان العاري . يقول الآن بئرة روسوية واضحة : «بمجرد أن نحاول التفكير في الإنسان العاري حتى نجد أنفسنا وقد ارتقمنا في أحضان السياسة»⁽⁹⁾ بين الإنسان العاري والسلطة السياسية هناك - في سياسة الآن - جدل صاعد ونازل . وسياسة الانسان العاري هذه - التي لم يستطع الآن أبداً تجاوزها نحو سياسة الإنسان الاجتماعي - تدعي الانتماء إلى روسو أساساً وترث كل ثنائيات الفلسفة السياسية عند روسو: الفرد في مواجهة المجتمع ، المواطن في مواجهة الدولة ، العبد في مواجهة السيد . هذه الثنائيات تجد أصلها في نزعة طبيعية واضحة . يقول الآن : «إن المجتمع بسلطه هو نتاج للطبيعة تماماً كالثباتات والحيوانات فكل مجتمع هو إذن إفراز

(8) Alain: "les arts et les dieux, histoire de mes pensées "bib / nrf de la Pléade 1958. p.39.

(9) Ibid p.44- 45.

طبيعي، وبنيت تابعة للطبيعة البشرية وقبل كل شيء للقوانين البيولوجية. لكل مجتمع بهذا قياسه الخاص وقواه ومزاجه واستعداداته الخاصة به»⁽¹⁰⁾ المجتمع إذن آلة ضخمة لإنتاج الرغبات. وأخطر هذه الرغبات على الإطلاق الرغبة في أن نحكم، الرغبة في السلطة، وفي الخضوع إليها معاً، الرغبة في حب السلطة، ذاتها. فإذا كانت هناك سلطة فاعلم أن وراءها راغب. هناك من يحب ويرغب أن يتسلط وهناك من يحب ويرغب أن يتسلط عليه. هذه الفلسفة في الرغبة ستطفو على السطح خلال السبعينات من هذا القرن ولكن بشكل أكثر أصالة. يقول ألان: «كل دبلوماسي يرغب في مشاريعه، وكل مدير شرطة يرغب في النظام، وكل موظف يرغب في توسيع حقه في المراقبة وامتيازاته. وبما أنهم كلهم يتواطأون من أجل ذلك، فإنه تتشكل مباشرة دولة حاكمها لها قواعدنا ومناهجها، تحكم من أجل عظمتها الخاصة. وباختصار إن الاستعمال المبالغ فيه للسلطة هو نتاج طبيعي للسلطة نفسها»⁽¹¹⁾ الرغبة في السلطة إذن هي التي تخلق السلطة نفسها والسلطة تأكل أبناءها. لكن ما السلطة إذن؟ ما مهيتها؟

إنها - وألآن يستوحي هنا الفلسفة السياسية الكلاسيكية - اللوفياتان Leviathan. ليست السلطة هي النظام السياسي القائم فقط بل هي كل قوة لا يراقبها العقل. إنها اللوفياتان مفهوم في معنى أوسع من ذلك الذي أعطاه له هوبز. يقول ألان في تعريفه للسلطة - اللوفياتان: «إنه ليس جميلاً ولا حكيماً. لوفياتان هو الجمعية، هو المكتب والرئيس، هو الرأي المشترك الذي ليس هو رأي شخص بعينه والذي هو لا شيء. إنه الاحصاء. إنه المعدل، إنه النظام، إنه الانضباط، إنه تقليد الكل للكل، إنه روح القيادة والطاعة العقيمة، إنه العلاقة الخارجية التي تحول الناس إلى أشياء. لوفياتان هو الرقيب الأعلى»⁽¹²⁾. وباختصار هو كل ما يجمع الفرد ويقهره اجتماعياً، وسياسياً هو الدولة والجماهير معاً، الجماهير التي تصنع الدولة عن طريق إضفاء طابع القدسية عليها. لوفياتان هو رغبة الجماعة، هو السلطة يمنحها الأفراد للجماعة وتنقلب ضدهم، تحب السلطة لحم البشر: «فالسلاط متروكة لذاتها خلقت التعذيب كأساس للتأديب. غير أن الناس لم يفكروا قط في هذه الواقعة البسيطة العارية والتي هي زهرة الحضارة

(10) Alain; "Eléments d'une doctrine radicale" op. cit. p.153.

(11) Ibid. p.124.

(12) Cité par Georges Burdeau in "Alain". encyclopédia Universalis, vol.I. France SA. 1968 p.543.

الأوليغارشية»^(١٣) كل سلطة إذن هي سلطة تعذيب، وما حدثتنا إلا حادثة التعذيب، حادثة الأوليغارشية، حادثة العسكر. إن السلطة هي المقابل السياسي لحكم العسكر. والآن واضح في نزعتي المعادية للعسكر. فهو يرى أن المصدر الأساسي لاهتمامه بالسياسة هو السلطة العسكرية بل هو يفكر في قضية دريفوس نفسها انطلاقاً من مشكلة سلطة العسكر. فهي السلطة التي جعلت الآن يرتعد باستمرار من كل الرقابات، يدين كل أنواع الطغيان بل يبدو أحياناً مهووساً بهذه الإدانة. فالفرد يظل بالنسبة له الملجأ الأخير والوحيد، ووجهة نظره هي وجهة نظر «المواطن ضد السلط» وهذا هو معنى أن يكون الفرد راديكالياً عنده. غير أن هذا العنوان يتخذ أحياناً عنده شكلاً صوفياً، انه يصبح احتجاجاً ملتهباً باستمرار لعقل ذي إرادة ضد إغراءات كل القوى العمياء والأساطير الأخطبوطية والمخاوف المحدقة والسلطة الطاغية. حادثة الأوليغارشية إذن هي حضارة السلط العسكرية. «إن الناس الذين ينصحتوني قائلين: «لا تورط نفسك في السياسة، اشغل وقتك وقواك بأمر الفكر التي هي بالأحرى مهمتك»، لم يعرفوا قط الخدمة العسكرية التي جعلتنا سياسيين بالرغم منا»^(١٤). فلا فرق إذن عنده بين «الاستبداد السياسي» و«الاستبداد العسكري» بل أن كل استبداد سياسي هو عسكري بطبعه. «كل سلطة هي سلطة عسكرية»^(١٥) كل سلطة هي حرب على المواطن، على الفرد وعلى الفكر الحر. «إن كل سلطة هي مطلقة بطبعها، الحرب هي التي جعلتنا نعرف هذه الأشياء»^(١٦). لقد خبر الآن الحرب والسلطة العسكرية - وهو ابن الأربعين - في الحرب العالمية الأولى كما أنه رفض أن تتم تربيته، «كمشارك اختياري في اليوم الأول، كان يكره الحرب ولم يكن يتحملها إلا وهو يعيشها بين المحاربين»^(١٧) وهي تجربة كانت بالتأكيد جد قاسية على كل من كان يحمل بين جناحيه نزعة سلمية فردانية ذات حساسية قصوى مثل الآن. فهو يقول: «لا أرى في حياتنا العامة إلا مشكل الحرب الذي يعد بحق أعقد المشاكل»^(١٨) وصعوبة هذا المشكل تتمثل عنده في كون الحرب التي تأتي فجأة ودون سابق إنذار - على حد تعبيره - كالمطر الغزير، تقررها دولة بدون وجه وبسياسة عمياء، تتجاوز الحرب

(13) Cité par Albert Thibaudet in "la république des professeurs" op. cit. p.245.

(14) Alain: "éléments d'une doctrine radicale" op. cit. p.180.

(15) Ibid. p.278.

(16) Ibid.

(17) Raymond Aron: "Mémoires: 50 ans de réflexion politique" Julliard 1983. p.41.

(18) Alain: "éléments..." op. cit. p.244.

الجميع وتنصب نفسها ملكة للعقل . لا تتخذ الدولة القرار بالحرب بل الحرب هي التي تتخذ القرار . بالحرب يهيء القرار بارداً وبدون وجه «لأسباب متعلقة بالنظام الإداري ، وطبقاً لثلاثة آلاف وستمئة منشور سابق أغلبها سري ، فإن كل الحريات تصادر وحياة المواطنين الذين تقل أعمارهم عن خمسين سنة تصبح غير مضمونة»^(١٩) الحرب إذن هي الوجه الدميم للامعقولية السلطة . لماذا يتحارب الناس ؟ لأن القرار لم تتخذه دولة مشخصة ، بل اتخذته دولة عمياء ، اتخذته آلة حرب ، «دولة بدون وجه» ، «دابة بدون وعي» ، حولت الإنسان إلى حيوان حرب والإنسان العادي إلى قرد مسلح . أين هو الشر إذن ؟ إنه يتمثل في هذا : فالدولة الغريبة المكونة من عسكريين ودبلوماسيين ورجال إدارة ليس لها قائد أبداً . إنها آلة عمياء تسير وحدها . يتحرك فيها الشعب كقوة ولا يمثل فيها الشعب كفكر . والحكومة ليست عند نهاية المطاف إلا رأس الحرية الأقصى في هذه الآلة الميكانيكية»^(٢٠) . في الحرب المعلنة لا يتحارب الإنسان ضد الإنسان ، بل البذلة ضد البذلة ، البذلة الخضراء مثلاً ضد البذلة الزرقاء ، وفي الحرب المعلنة نشهد لعبة السيد والعبد ، السيد هو الضابط ، هو القوة الآمرة ، والعبد هو الجندي العادي ، هو القوة المأمورة التي أراد الآن أن يكونها إلى الأبد . لكن هذه اللعبة - السيد يأمر والجندي ينفذ - لا تتحول عند الآن أبداً إلى جدل من نمط جدل السيد والعبد في فينمولوجيا . فنحن في حالة حرب ، نحن بعيدون عن حائل الجدل الاخطبوطية . العبد لا يرغب أبداً في أن يصبح سيداً والآن يرفض أن تتم ترقيته . حائل الجدل الهيفلي لا تنفع هنا فنحن في حالة حرب ، والأمر يحتاج إلى ثورة عنيفة عنيدة «الثورة الكبرى في هذا العصر هي الثورة ضد السلطة العسكرية . ولكن ليس هناك إلا الإنسان في كتيبته هو الذي يمكنه أن يرى الأمور بوضوح»^(٢١) .

كل السلط إذن رمادية فكيف نبحث عن بومة منيرفا ، كيف الخلاص من أخطبوط السلط ؟ .

يجب في رأي الآن أن نؤسس أولاً سياسة «المواطن ضد السلط» - وهو عنوان موج لأحد أهم كتبه السياسية - المواطن الفرد في مواجهة السلطة العسكرية والسياسية معاً بل وكل السلط .

(19) Alain: "le citoyen contre les pouvoirs" 2ème éd. Editions du sagittaire 1926. p.86.

(20) Ibid. p.88.

(21) Alain: "Eléments.." p.250.

وأول عمل يجب أن نقوم به كأفراد وكأفراد فقط هو إزالة الأوهام وتحطيم الأصنام وقهر الظلاميات . نحطم أول ما نحطم وهما عن السلطة . «إننا نخيل لوفياطان على صورتنا . إن الأمر هو عكس ذلك تماماً فاللوفياطان وحش جبار برأس غليظة وجمجمة صغيرة»^(٢٢)، ونحطم ثاني ما نحطم وهم السلطة عن ذاتها ، نسق أحلام الطاغية ، نحطم وهم الطاغية عن نفسه : «يريد الطاغية أن يكون مرغوباً فيه ومحبباً بسبب جبروته . هذه هي حماقة الطاغية»^(٢٣) ويتسفيه أحلامه سيكون علينا أن نحطم فيتيشية الوهم وأن ندين من يصنعونه ثقافياً «كل الصالونات هي ضد المساواة»^(٢٤).

علينا إذن أن نؤسس أخلاقية مقاومة *une morale de résistance* موجّهة ضد منشأ البشر، ضد اللوفياطان وضد الحرب . علينا أن يكون قسمنا صدى لبيان لانيو: «ألا نخاف أبداً، أن نظل دائماً نزهاء، ألا نؤمن بأي صنم: ثلاثة عناصر أصيلة ضد الطاغية»^(٢٥) إن أخلاقية المقاومة تبدأ حين نهزم أخلاقية القلب *la morale du coeur* ونهزم أخلاقية القلب يعاد تعريف أهم المفاهيم في الفلسفة السياسية . أول هذه المفاهيم «الحرية» ، فالحرية «أمر ليس وليد المؤسسة بل يجب أن نصنع حريتنا كل يوم»^(٢٦)، ثاني هذه المفاهيم «الفرد» ، فالفرد «يجب أن يظل دائماً فرداً أينما حل وارتحل ، سواء كان في المقام الأول أو الأخير، إذ إنه ليس هناك إلا الفرد الذي يفكر، وكل جمعية هي بطبعها بليدة متبلدة»^(٢٧)، ثالث هذه المفاهيم «الديمقراطية» ، فالديمقراطية: «ستصبح بهذا المعنى جهداً مستمراً للمحكومين ضد تعسف السلطة»^(٢٨).

يمكن تلخيص سياسة المقاومة هذه : *la politique de la résistance* سياسة المواطن ضد السلط ، في تأكيد الآن على أن : «المهم هو أن نؤسس كل يوم متراً صغيراً، أو إذا أردنا، أن نقدم في كل الأيام ملكاً إلى المحكمة الشعبية . ولنقل أيضاً أننا بمنعنا أن تضاف كل يوم صخرة إلى معتقل الباستيل نوفر على أنفسنا عناء هدمه» . ما المراد إذن من سياسة الآن، من سياسة المواطن ضد السلطة ؟ .

«ما أريده هو أن يظل المواطن عنيداً من جهته ، عنيداً في فكره ، مسلحاً بالتحدي وفي

(22) Ibid. p.157.

(23) Ibid. p.276.

(24) Ibid. p.47.

(25) Ibid. p.50.

(26) Alain: "le citoyen contre les pouvoirs" op. cit. p.151.

(27) Ibid. p.160.

(28) Alain: "Eléments" op. cit. p.152.

تشكك مستمر حين يتعلق الأمر بنوايا ومشاريع وأهداف حاكمه»⁽²⁹⁾، قيمتان إذن لأخلاقية المقاومة: الشك والصمود. غير أن أخلاقية المقاومة هذه لا تريد لنفسها أن تنام فوق فوهة بركان أو مدفع، لا تريد أن تكون تحريضية ولا فوضوية شاملة. إذ يجب دائماً «أن يتحقق تكافؤ بين الفكر والقوة»⁽³⁰⁾ فالعقل الراديكالي - كما يسميه الآن - يجب أن يكون عقل رقابة ومراجعة مستمرة للحاكم وسياسته دون أن يكون سلباً وسلبياً ولا فوضوياً. «فالمقاومة والطاعة، تلك هما فضيلتا المواطن. بالطاعة يؤمن النظام وبالمقاومة يؤمن الحرية»⁽³¹⁾، معنى هذا أن أخلاقية المقاومة تهضم بسرعة فكرة الطاعة. ومعنى ذلك أن نؤسس نوعاً من الجدل: «أن نطيع ونحن نقاوم. هذا هو السر. إن ما يحطم الطاعة هو الفوضى، وما يحطم المقاومة هو الطغيان»⁽³²⁾. وبهذا تصل سياسة الآن إلى نوع من التوفيق، نوع من «اختلاط الأمزجة» واعتدالها.

هكذا تنتهي سياسة الآن إلى نزعة طبيعية واضحة. إن أخطر ما في هذه السياسة كونها مبنية على أساس طبيعي لا تاريخي. فلا شك إذن أن تنتهي على صعيد الممارسة السياسية الواقعية إلى نزعة سلمية فردانية، وهي نزعة يسهل تبريرها فلسفياً ولكن يصعب الدفاع عنها تاريخياً واجتماعياً.

إنها أفق مسدود بالنسبة لحيل أغرم بالتاريخ.

(29) Ibid, p.124.

(30) Ibid, p.279.

(31) Ibid, p.157.

(32) Ibid, p.281.

الفصل الثالث

الجامعة الفرنسية والجيل الجديد

"Je rêve un temple pur d'où je m'excommunie".

Léon Brunschvig

*"Ma génération a vécu un autre destin:
les désaccords politiques y brisèrent
les relations personnelles".*

Raymond Aron

ثلاثة أسماء ستهيمن على الجامعة الفرنسية فلسفياً منذ أواخر القرن الماضي حتى الحرب العالمية الثانية، بل إن البعض منها سيستمر تأثيره حتى حدود ثورة ماي ٦٨. يتعلق الأمر بهنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١)، وليون برانشفيك (١٨٦٩ - ١٩٤٤) وإميل شارتييه - ألآن - (١٨٦٨ - ١٩٥١). اخترنا هذه الأسماء من بين نخبة من الأساتذة مارست التدريس في الثانويات والجامعات الفرنسية لتلك الفترة لأننا وجدنا لها تأثيراً قوياً في الساحة الفلسفية بفرنسا أكثر من غيرها، ثم لأن أغلب الأجيال (*) التي تكونت في فرنسا ما قبل الحرب الثانية لم تختلف في أن تضع أهم مصادر تأثيرها بين هذه الأسماء المذكورة. ومن بين هذه الأجيال الجيل الذي شكل بالفعل ظاهرة ملفتة للنظر في تاريخ النخب الفكرية الفرنسية وأصبح الجيل الأكثر تأثيراً في الحياة الثقافية الفرنسية لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. هذا الجيل لم يكن موحد المشاغل النظرية ولا الاهتمامات المعرفية، ولكنه مع ذلك شكل أهم جيل متناغم في تاريخ فرنسا المعاصر. وفي الحقيقة فإن «مجموعة جيل لا تتكون بما يوحد بينها بقدر ما تشكل بما يفرق بينها». ليس

(*) يحد الشخص الذي يريد أن يرسم لوحة لأهم الاتجاهات الفلسفية الفرنسية المعاصرة نفسه مجبراً على استعمال مفهوم «الجيل الثقافي» وهو مفهوم سوسيولوجي رخوا، يُستعمل بعفوية ولكنه يطرح مشاكل إبستمولوجية عويصة، إلا أنه مع ذلك قادر على رسم حدود ووضع منارات وعلامات قيمة لتسهيل عمل مؤرخ الأفكار وتيسير اجتهاد مؤرخ الفلسفة.

الجيل منسجماً نسبياً إلا بتاريخه الزمني أما ثقافياً فهو متنافر. وذلك لأن الخلاصات الفلسفية والسياسية والأدبية لعناصره تكون متنوعة، وهي متعارضة في بعض جوانبها حول مواضيع هامة. إذ المواضيع الهامة بالنسبة لجيل معين هي في الحقيقة ما يشكل قاسمه المشترك. انها بهذا تمكن من تحديد جيل معين». لهذا فنحن سنعتمد في رصد هذا الجيل المبدأ التالي: «حين يلوح في الأفق أن ميدان الصراع قد تغير، فإن ما يجب استخلاصه هو أن جيلاً جديداً قد أخذ المبادرة»^(١) سنسلك في تحديد هذا الجيل طريقة اصطفاء إجرائية، سنعمل هنا بمجرد «نصل اوكام». سوف لن نحفظ إلا بالأسماء ذات الدلالات الكبرى في الإشكالية التي نحن بصدد معالجتها. يتكون هذا الجيل من عناصر وجدت ذاتها في مذاهب فلسفية واجتماعية وسياسية مختلفة بل متعارضة أحياناً: فلاديمير جانكليفيتش (١٩٠٣)، جورج كانفليم (١٩٠٤)، جون بول سارتر (١٩٠٥)، ريمون آرون (١٩٠٥)، موريس دي كوندريك (١٩٠٦)، فبرناند ألكيب (١٩٠٦)، أمانويل ليفيناس (١٩٠٦)، موريس ميرلوبونتي (١٩٠٨)، كلود ليفي ستراوس (١٩٠٨).

إن ما يوحد بين هذه الأسماء التي تبدو متنافرة هو كرونولوجيا تكوينها الجامعي من جهة أولى، ورفضها - العلني أحياناً والمضمر أحياناً أخرى - للجو الفلسفي الذي كان سائداً في الجامعات الفرنسية آنذاك (ما بين الحربين) مع البحث الحثيث عن طريق مغاير للتفلسف. لكن كيف تتحدد سمات الطريق المفروض؟. إنه طريق جيل الأساتذة. فبرجسون مثلاً تقلب في أرقى المؤسسات الثانوية والجامعية آنذاك كهنري الرابع والكوليج دي فرانس طوال سنوات (١٨٩٥ - ١٩٤١). وبرانشفيك درس بالسوربون على امتداد ثلاثين سنة. وكان لمدة طويلة رئيساً للجنة امتحانات التبريز، كما ساهم في دوريات ومجلات هذه المرحلة بل احتكر الفكر الفلسفي الفرنسي عبر أكبر قنواته الحديثة بإنشاء «مجلة الأخلاق والميتافيزيقا» الشهيرة. أما الآن فقد تقلب في ثانويات عديدة ودرس لمدة تنيف عن أربعين سنة.

يقول ريمون آرون في مذكراته الهامة: «لكي نستلهم استاذاً ما، لكي نجعل فكره يموت أو يشكل استمراراً فكرياً له، لم يكن لدينا خيار إلا بين ثلاثة: ليون برانشفيك، والآن، وبرجسون»^(٢) ليس المقصود هنا ببرجسون، «برجسون الأول»، في قوته وقدرته على

(1) Claude Digeon: "la crise allemande de la pensée française" 1870- 1914 thèse de Doctorat PUF 1959. p.7.

(2) Raymond Aron: Mémoires. op. cit p.38.

هزم أوهام النزعة الميكانيكية والتطورية على حد سواء، برجسون الذي يقول عن نفسه: «إن كتاباتي كانت دائماً تعبيراً عن غضب، عن احتجاج. كان من الممكن أن أكتب كتاباً أخرى ولكن لم يكن لي أن أكتب أبداً إلا لكي أحتج على كل ما كان يبدو لي وهماً»^(٣). بل المقصود هنا «برجسون الثاني» الذي تحول اسمه إلى عنوان للمذهب حدسي فج. يقول ميرلوبونتي متذكراً برجسون الثاني هذا: «إن الجيل الذي أنتمي إليه لم يعرف إلا برجسون الثاني وكان قد اختفى من التعليم وأصبح صامتاً تقريباً خلال التهيؤ البطيء لكتابه «المصدران». . (برجسون الثاني هذا الذي عرفه جيلي) اعتبرته الكاثوليكية نوراً بدل أن ترى فيه خطراً عليها، وقد درسه الأساتذة ذوي المنحى العقلي الضيق في الفصول الدراسية»^(٤). برجسون الروحي هذا حتى معاصره الآن كان يقول عن جماعته «في العمق كنت أراهم قادمين وفي حقائقهم الكاثوليكية والطغيان والحرب أجمعين»^(٥). يقول عنه أحد تلامذته وقد أحس بالفرق بين فكر الأستاذ ومآل مذهبه: «إن الجميل في هذا هو أن برجسون يخلصك من وجهات النظر البسيطة والمقلوبة «للبرجسونية»^(٦) غير أنه إذا لم يكن الخطأ خطأ برجسون نفسه، فإن في تعليمه ما كان يوحى بهذه القراءة الروحية الخلاصية. تتحدث زوجة الفيلسوف الروحي جاك مريتان عن التعليم الفلسفي كما تلقتة هي وزوجها عن برجسون قائلة: «لقد وجدنا الفيلسوف (برجسون) في قمة شهرته ومجده. إن ما كان يوجه المستمعين إليه هو غريزة متأكدة من ذاتها. لم تكن بدون شك الوحيدين الذين رد إليهم إيمانهم بالروح عن طريق إعادته بناء الميتافيزيقا في حقوقها الثابتة التي لا يشك فيها أبداً، مؤكداً على أنه بإمكاننا معرفة الواقعي وأنا بالحدس وحده ندرك المطلق. لم تكن في الحقيقة نهتم بها إذا كان ذلك ممكناً بالحدس أو بإعمال الفكر. إن ما كان يهمني آنذاك هو عودة الحياة»^(٧). لم تكن هذه المريدة كاذبة في انطباعها ولا مبالغة، فلقد كان برجسون نفسه «يقبل بشكل واضح جداً أن توضع فلسفته كاستمرار لفلسفة توما الأكويني»^(٨). كانت الفلسفة التي درسها برجسون بالجامعة الفرنسية محاولة تتبع

(3) Albert Béguin et Pierre THévenaz: "Henri Bergson: Essais et témoignages" op. cit. p.350.

(4) Maurice Merleau- Ponty: "Signes" édit. Gallimard 1960. p.227.

(5) Alain: "histoire de mes pensées" in les Arts et les dieux, op. cit. p.26.

(6) Jean de la Harpe in "Henri Bergson: essais et témoignages" op.cit. p.364.

(7) Raissa Maritain. Ibid. p.352.

(8) Ibid. p.353.

«للميوديا الداخلية»، وحتى مفاهيمه ومقولات فلسفته الأساسية كالديمومة والحدس والتطور الخلاق، لم تخل من نزعة روحية واضحة. يقول في كتابه «الفكر والمتحرك»: إن التطور الخالص والديمومة الخالصة، شيء روحي أو مطبوع بالروحية»^(٩) ويكشف صدره لأحد تلامذته: «إنني أؤمن بالروحية المطلقة»^(١٠). ويؤكد لتلميذ آخر القصد من تعليمه الفلسفي: «منذ أفلاطون والفلاسفة يتحدثون عن خلود الروح غير أن معرفة الروح باعتبارها جوهرًا لم تتقدم ولو خطوة واحدة: إن هذا التقدم هو الذي أعمل على تحقيقه»^(١١). وحتى العلم نفسه هو مقدمة للحياة الروحية. «لم يكن برجسون يفتح أفقاً بالنسبة لأولئك الذين كانوا يحاولون أن يصبحوا فلاسفة المستقبل. لقد كان يعود باستمرار إلى الحقيقة العلمية ويستخرج منها نوعاً من الميتافيزيقا بالاعتماد على نقد بعض نتائج العلم»^(١٢). هكذا ينتهي تعليم برجسون إذن إلى أن يشكل عائقاً أمام طموحات الجيل الجديد.

أما ليون برانشفيك فقد كان تعليمه أقل إيغالاً في الذاتية والروحية. كان معادياً للحدس بشكل صارم، كان مؤمناً بالعلم ويجهد العقل. غير أنه كان يقرأ نتائج العلم قراءة كانطية. كان يريد عموماً «أن يرد الفلسفة كلها إلى نظرية معرفة». وكانت نظرية المعرفة هاته التي يتم احتزال الفكر الفلسفي فيها ذات سحنة كانطية واضحة. يقول دوزنتي: «ظل برانشفيك شديد الاقتراب من كانط فيما يخص موقفه من المعرفة. إذ أن المعرفة عنده كانت بالدرجة الأولى نتيجة لعمل الفهم، وكان محتواها يتمثل في تلك العلاقة الفكرية باعتبارها منسجمة مع موضوعها»^(١٣). كانت هذه «المثالية الأكاديمية» عند برانشفيك لا تؤمن إلا بالوضعية والكانطية، أو لنقل بكانطية وضعية، وكانت تخضع تاريخ الفكر الفلسفي كله إلى هذه القراءة وتقرأه على ضوء هذه التجربة، وهذه التجربة وحدها. يقول أحد أكبر تلامذته احتراماً له فيرناند ألكيه: «لقد كان برانشفيك أستاذاً لي، غير أنني ارتبطت أكثر بالفلاسفة الكلاسيكيين الكبار. أكيد أن برانشفيك كان يجهم كثيراً إلا أنه كان يستعملهم وفقاً لفلسفته الخاصة. بل كان يذهب إلى حد اعتبار

(9) Bergson: la pensée et le mouvant. introd. 2ème partie p.37.

(10) Jean de la Harpe in 'Henri Bergson: essais et témoignages: op. cit. p.360.

(11) Georges Cattani in "Henri Bergson: essais et témoignages" op. cit. p.131.

(12) Raymond Aron: Mémoires p.51.

(13) J.T. Deasanti: introduction à l'histoire de la philosophie. Edi. Sociales. p.p. 30-31. 1956.

انه ليس هناك أقل ديكارتية من القول: «أنا أفكر إذن أنا موجود»^(١٤). بهذا يكون الرجل قد وصل في إخضاعه كل المذاهب الفلسفية إلى كانهيته إلى نقطة اللاعودة. فهو الذي قطع مع كل نزعة حيوية وحدسية يعود أخيراً إلى اعتناق نزعة عقلية تنفي به إلى توجه روحي نجده واضحاً في كتاباته الأخيرة. فليس العلم عند آخر تحليل الا «مقدمة الحياة الروحية». وبهذا يصبح الاختلاف بين تعليمه وتعليم برجسون ليس في نوعية المعارف التي كان أساسها «بعض بقايا الفلسفة الكلاسيكية» معززة «بسيكولوجيا فلسفية»، نصفها «ميتافيزيقي» ونصفها الآخر «تجريبي»، بل اختلافاً فقط في درجة الروحية. وكان تعليم الآن أكثر تحمراً. كان أولاً مرتبطاً بتجربة كبرى في الشذرات والآراء المختصرة الأنيقة، لذلك ظل دائماً تعليماً مفتوحاً. وكان ثانياً متعدد الاهتمامات ومتنوع «الأطباق»، شغلت الموسيقى والفن والسياسة حيزاً كبيراً منه. يسجل أحد تلامذته في مذكراته ليوم عطلة من ربيع سنة ١٩٢٩: «إن مذهب أستاذنا، الذي يستلهم الكثير من أفلاطون وباسكال وكانط ولانيو، كان يهتم كثيراً بروحية العقل، أي بمعرفة ما الأشياء وفق تجربة الحرية. ولكن بالإضافة إلى ذلك كانت هناك ميثولوجيا عقلية، أي مادة للخيال يمكن أن تقارن بالموسيقى والرقص». بالإضافة إلى هذا المذهب الفلسفي كانت هناك السياسة، سياسة الآن، يقول عنها هذا التلميذ: «كنا نعلم جميعاً أن الأستاذ راديكالي، أي أنه كان يعتبر كل الأنظمة السياسية كآلات ثقافية تهدف دائماً إلى التعبير عن ضرورات بوليسية، وأنه هو، كان يقاوم بنشاط باسم الفرد»^(١٥). غير أن هذه الحساسية الفردية في تعليم الآن كانت مبنية هي الأخرى على تصور ميتافيزيقي لما يسمى بـ«الطبيعة البشرية»، وكانت تؤول ثانياً إلى نزعة سلمية متشائمة على الطريقة التولستوية، مما جعلها - كتجربة جيل - تصل مع الحرب العالمية الثانية إلى إخفاق شامل.

إن هذا التعليم وقد وصل إلى الطريق المسدود - روحانية كانطية ضيقة، فردانية مطلقة - كان يطرح على الجيل الجديد سؤالاً أحسن ريمون آرون صياغته: «لماذا هذه الجماعة من أساتذة الفلسفة المنغلقة على ذاتها الجاهلة لما يدور بالخارج؟»^(١٦).

(14) "Entretiens avec le monde". 1. Philosophes. La découverte/ Le monde 1984.

(15) "Alain Professeur" par X.X. élève de rhétorique supérieure à Henri IV, édit. Paul Hartmann 1932 p.26- 27 et 30.

(16) Raymond Aron: Mémoires p.41.

الحقيقة أن هذه النخبة من الأساتذة لم تكن جاهلة بالمرّة لما يدور بالخارج، بل لم تكن في الحقيقة محتاجة لهذا الخارج، لم تكن ترغب فيه عن قصد. فلم تأخذ منه في أغلب الأحيان إلا... كانط. وذلك «لأن كانط كان يندمج بسهولة في تلك الشمولية اللاتاريخية للفكر الفرنسي»^(١٧) كانت هذه النخبة مكتفية بذاتها أو هكذا خيل لها العيش الحميد. فهناك أفلاطون وأرسطو والقدّيس توما وديكارت، وهناك فيكتور كوزان ورافسون ورونييه ولوسين... والبقية غائبة. معجم لالاند الشهير خير معبر عن هذه الفلسفة: إنه ليس معجم فلسفة محايد، إنه ليس معجماً نقدياً وتقنياً للغة الفلسفية، إنه فلسفة قائمة الذات، فهو يمارس انتقاء، رقابة، تحديد، لكل المفاهيم الفلسفية ولا يستعمل إلا ما أثبتته برانشفيك وعلمه برجسون وآمن به لوسين... لماذا يحدث هذا في الوقت الذي فتحت فيه بألمانيا فينومولوجيا هوسرل، وبعده هيدغر وإسبرز، أفقاً جديداً للفلسف؟. هذا هو السؤال الحقيقي الذي طرحه الجيل الجديد. والحقيقة أنه من بين أهم العوامل التي ساهمت في انغلاق الفكر الفلسفي الفرنسي على ذاته آنذاك، عامل تاريخي قومي، يتعلق الأمر بها أسماء أحد مؤرخي الفكر الفرنسي بـ«الأزمة الألمانية» للفكر الفرنسي» والمقصود بهذه الصيغة الملتبسة: «عقدة» فرنسا اتجاه ألمانيا بعد هزيمة ١٨٧٠. إنها أساساً «عقدة سيكولوجية أحدثتها إقامة الوحدة الألمانية»، إذ أن المتتبع لتطور الفكر الفرنسي خلال أواخر القرن الماضي سيلحظ أنه: «خلال أكثر من نصف قرن ظلت المسألة الألمانية بالفعل عاملاً هاماً في الثقافة الفرنسية: «المسألة المفتاح». فمنذ انقضاء عهد فلاسفة التنوير بفرنسا سوف يكتب الفكر الفرنسي كبوّة كبيرة، ولن يستيقظ من جديد إلا بعد عهد نابليون، ليجد أن ألمانيا أحدثت ثورة كبرى في الفلسفة، وأنه مجبر على أن يتتلمذ، وهكذا: «يمكن أن نتحدث عن أزمة في الفكر الفرنسي سببتها المسألة الألمانية، فمن سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ (وحتى اليوم)، نشأ صراع ونها، تواجهت فيه من جهة أولى حركات ثقافية جديدة كانت في نفس الوقت موجهة ضد ألمانيا ومستلهمه لها، وفكر أكثر ترسخ في القدم وأكثر تجذر في الوعي الفرنسي»^(١٨)، يمكن تقديم أمثلة عديدة عن عقدة فرنسا اتجاه ألمانيا ولكننا سنكتفي هنا بمثال واحد هو عقدة أساتذة الفلسفة الفرنسيين اتجاه هيجل لمدة طويلة. يقول الآن - وهو لا يخرج عن هذا الإطار رغم النفحة

(17) Ibid. p.67- 68.

(18) Claude Digeon: "la crise allemande de la pensée française" op. cit. p.1 et 535- 539.

التحريرية لكلامه - «عندي مع ذلك سبب للإيمان بأن المفكرين الرسميين اليوم يرون في هيغل ما كان يعتقد فيه الأساتذة الكبار والصغار زمن متابعتي للدراسة. هذا لغز لدي. وعلى أي حال، لم يكن استاذي لانيو يتجاهل هذه الفلسفة إلا أنه بالرغم من ذلك كان يتقاسم مع الأساتذة الآخرين رأياً سيئاً في كل ما هو بروسي»^(١٩) ولعل من بين هؤلاء «الأساتذة الآخرين» الذين يشير إليهم الآن كان هناك أحد كبار أساتذة الفلسفة جيل لاشيليه. ينقل لنا سارتر: «كان لاشيليه يقول»: «طالما أنا رئيس للجنة امتحانات التخرج فإن كل من يتحدث في ورقة امتحان عن هيغل سوف لن ينجح»^(٢٠) يمكن التذرع بمشكل الترجمة، إذ أن أعمال هيغل لم تكن مترجمة آنذاك، غير ان الاختيار في الترجمة لا يكون بريئاً. المسألة في العمق ليست مسألة ترجمة، وإنما هي مسألة حصار مضروب على الفكر الألماني الجديد.

لم يكن أمام الجيل الجديد إذن إلا أن يبحث عن مخرج لانسداد الأفق هذا، وغالباً ما كان يجد هذا المخرج إما في عودة إلى تاريخ الفلسفة ومحاولة جعله فلسفة قائمة بذاتها، كما حدث مثلاً لفيردناند ألكيه الذي رغب في تعليم برانشفيك وأصبح يتابع دروس اميل برهيه وجلسون، وأما في ممارسة فكر خارج تقاليد الفلسفة والفلاسفة، وليكن مثلاً الاثنوغرافيا كما حدث ذلك لكلود ليفي ستراوس، غير أن الجو الأكاديمي للعلوم الاجتماعية بفرنسا لم يخل من وطأة تصدير الفلسفة إليه. يقول كلود ليفي ستراوس واصفاً تعليم أستاذه كوستاف رودريكيز: «كان مذهبه يقدم على الصعيد الفلسفي خليطاً من النزعتين البرجسونية والكانطية الجديدة خيب آمالي بعنف»^(٢١).

إلا أن الموقف الذي كان يعد بفلسفة جديدة هو محاولة العودة إلى «المعيش le vécu» من خلال فلسفة «وجودية»، ستحاول في البداية الانتماء إلى أفق كيركجارد وجابرييل مارسيل، وهذا ما حصل بالضبط لموريس دي كوندياك الذي سيحاول الفرار من الحجر الذي يفرضه برجسون وبرانشفيك على الفكر الفلسفي وستتابع دروس جابرييل مارسيل ويكتشف الوجودية. يقول عن هذه المرحلة: «في الوقت الذي كان فيه برجسون يحرك مشاعر بعض أساتذتنا بخطاباته الشاعرية وكان برانشفيك يدافع عن التقليد الكانطي،

(19) Alain: "histoire de mes pensées". op. cit. p.24.

(20) Jean- Paul Sartre: Situations IIX Gallimard 1972 p.190.

(21) Claude Lévi- Strauss: "Tristes tropiques" Plon 1955, p.54.

والكانطني الجديد بالخصوص، اكتشفنا كيركجارد والوجودية^(٢٢) فلا غرو إذن أن نجد برانشفيك - وهو الذي اختزل الفكر الفلسفي برمته في نظرية معرفة فجّة - يجارب بشدة كل فلسفة «وجودية». يحكي موريس دي كوندريك هذه الواقعة عن برانشفيك: «لقد طلب مني أحد الأصدقاء أن أحرر موضوعاً في مشكلة الشر، فطلبت من جون فال أن يعالج الجانب «الوجودي» من المشكلة فما كان على برانشفيك إلا أن يضرب على كلمة «وجودي» بدعوى أن لا معنى لها إطلاقاً»^(٢٣) هذه المقاربة الوجودية تستتهي بصفة عامة إلى معانقة الوجودية. فدروس هوسرل بفرنسا لم يكن قد مضى عليها زمن طويل. ومن هنا سنلاحظ عند هذا الجليل هروباً «فيزيقياً» و«ميتافيزيقياً» إلى ألمانيا. وهكذا سيهاجر إلى ألمانيا أهم أعضاء هذا الجليل، لوفيناس. موريس دي كوندريك، ريمون آرون، جون بول سارتر. يقول امانويل لوفيناس مثلاً: «لقد كان هالبواخ يدرّسني السوسيولوجيا، وكان مارسيل كيرو يفتنني بتمكّنه من الانساق الفلسفية الكبرى، إلا أنني كنت أريد أن أستمّر في البحث لهذا قررت أن أصبح تلميذاً لهوسرل وأتابع دروسه»^(٢٤)، لذلك سترجم أعمال أستاذه ويدخلها إلى فرنسا، وفي سنة ١٩٢٨ سيذهب إلى ألمانيا ويلتقي بهيدجر فيتتلمذ على يد صاحب «الوجود والزمن». سيهاجر أيضاً موريس دي كوندريك سنة ١٩٢٩ ليتابع دروس هيدجر ويحضر اللقاء التاريخي الذي جمع بين هيدجر وإرنست كاسيرر. وفي سنة ١٩٣٠ سيهاجر ريمون آرون بدوره إلى ألمانيا، وهو ينقل في انطباع أولي عن اكتشافه للفكر الألماني: «إن قراءاتي تأرجحت بين قطبين: هوسرل وهيدجر من جهة، ومن جهة ثانية كل من علماء الاجتماع، المدرسة الكانطية الألمانية الجنوبية الغربية، ريكتر، ماكس فيبر. كلاهما أعطياي الاحساس بغنى خارق للعادة جعلني أدرك أن الكتاب الفرنسيين كانوا من النوع الرديء القريب من الضحالة الفكرية التامة»^(٢٥) وبعد عودته سيحكي لسارتر عن الفينمنولوجيا، عن «فلسفة المعيش» التي تمكّن من التفلسف حول مواضيع بسيطة وبدون انقطاع. سيقضي الثلاثة - ريمون آرون، جون بول سارتر، سيمون دي بوفوار بـ «ليلة خالدة في حياة سارتر»: «لم تكن لدي إلا فكرة واحدة هي أن كل نظرية لا تناقش ما إذا كان الوعي يدرك الأشياء الخارجية كما هي، كانت عرضة

(22) "Entretiens avec le Monde" op. cit. p.38.

(23) Ibid. p.39.

(24) Ibid.

(25) Raymond Aron: Mémoires p.68.

للفشل . هذا ما جعلني في نهاية المطاف أذهب إلى ألمانيا لما قيل لي بأن هوسرل وهيدجر كانت لهما طريقة خاصة في إدراك الواقعي كما هو عليه»^(٢٦) ستم رحلة سارتر بعد سنة واحدة من رحلة آرون، أي سنة ١٩٣٢، غير أن ضغط الزمن الألماني المهدد بالنازية الشاملة، والذي جعل توينبي يحس بأن «التاريخ يتحرك من جديد». سيولد «صدمة» في نفوس هذا الجيل، فإضي «الأزمة الألمانية للفكر الفرنسي» لم يتم نسيانه بعد، وذكرى الحرب العالمية الأولى لازالت طرية في الأذهان. هذه «الصدمة» ستتحول إلى نوع من «التناقض الوجداني» اتجه ألمانيا: حب لجوها الفكري وكرهية عنيفة لضغط زمنها التاريخي. نرصد هذا «التناقض الوجداني» بشكل واضح عند موريس دي كوندياك: «لقد فهمنا بسرعة ضرورة أن نقاوم هتلر بقوة، ولكننا كنا ندرك أيضاً كيف كنا لا نستطيع ذلك بالمرّة. بالإضافة إلى هذا كانت هذه المرحلة فاتنة: ففي سنة ١٩٢٩، بدافوس، استمعت إلى كاسيرر وهو يناقش هيدجر، والتقيت بالشاب لوفيناس الذي كان يحاول الولوج إلى عالم «الوجود والزمن»^(٢٧) ولوفيناس بنفسه يلامس هذا الاحساس: «لقد جذبني هيدجر إليه كلية. كان لا بد من حجز مقعد منذ الصباح الباكر إذا أراد المرء أن يحظى بالاستماع إليه بعد الظهور. كانت تلك المرحلة مرحلة «الوجود والزمن» ولم يكن بوسعنا آنذاك أن نتنبأ أن هيدجر سيتخذ مواقف سياسية تراجيدية بعد سنوات قليلة»^(٢٨) أما ريمون آرون فهو ما يفتأ يصور هذا «التناقض الوجداني» وينقله عبر «وسواس»: وسواس لم يكن غير مبرر البتة: إنه الخوف من النزعة القومية الضيقة التي أحسست بتناميها، وأنا في كولونيا وأيضاً في برلين، دون مقاومة تذكر^(٢٩). نفس الاحساس يعبر عنه سارتر في لغة وجودية: «في لحظة ميونيخ كنت ممزقاً بين نزعتي السلمية الفردانية ومعاداتي للنازية. لقد ظهرت لنا النازية آنذاك على أنها القوة العدو التي تريد أن تمزقنا نحن الفرنسيين»^(٣٠).

مغامرة هذا الجيل ستنتهي إذن في مرحلة أولى إلى إحساس بالمأزق. لكن أكيد أن هناك خلل ما في تكوينها. تعود بنا هذه النخبة إلى خلل التكوين الجامعي نفسه. ماذا

(26) Jean- Paul Sartre cité par Simone de Beauvoir in "la cérémonie des adieux" Gallimard 1981 p.205.

(27) "Entretiens avec le Monde". op. cit. p.94.

(28) Ibid.

(29) Raymond Aron: Memoires p.67.

(30) J.P. Sartre: Autoportrait à soixante dix ans. Situations X. Gallimard 1976 p.178.

كان ينقص هذا التكوين؟. كان ينقصه الحس التاريخي سلاح فهم المجتمع والسياسة. لقد كان هذا التعليم الفلسفي مثالياً أكاديمياً وكان التاريخ فيه غائباً. فللميتافيزيقا وحدها تاريخها في حين كان المجتمع والسياسة وليدي «طبيعة بشرية» جامدة. أما الجيل الجديد فقد أحس بضغط تاريخي قوي، ضغط سيسككه في أعلى القيم الثقافية التي آمن بها: الفرد، الطبيعة البشرية، الخير، السعادة. . سيحس هذا الجيل بأنه «خرج من ما بعد الحرب ليدخل إلى ما قبل الحرب» على حد تعبير ريمون آرون. لم يكن هذا الجيل يريد «مقدمة للحياة الروحية» بل كان يريد «مقدمة للحياة الواقعية». ومقدمة الحياة الواقعية عنده هي تمثل الفكر التاريخي والتاريخية l'historicité لقد أحس هذا الجيل بضغط التاريخي عليه. يقول سارتر: «لقد انقضت التاريخية علينا في كل ما كنا نلسمه، في الهواء الذي كنا نستنشق، في الصفحة التي كنا نقرأها، في تلك التي كنا نكتبها، في الحب نفسه. اكتشفنا نوعاً من تذوق التاريخ، أي خليطاً من الأبدى والزائل»⁽³¹⁾ لقد اكتشف هذا الجيل إذن عنف التاريخ، عنف السياسة وعنف المجتمع. اكتشف انه جيل تاريخي، جيل وقد تورط في السياسة حتى الثمالة، جيل كان عليه أن يفهم حقيقة المجتمع الذي يعيش فيه. ستصبح إذن كلمات: «المجتمع»، «السياسة»، «التاريخ» هي شفرة le code هذا الجيل في حين ستسير شفرة جيل الأساتذة: «الذات» «الفرد» «الطبيعة البشرية» إلى الهاوية. لذلك سيبادر الجيل الجديد إلى تصفية حسابه مع هذا الارث الثقيل، هذا الماضي الذي كان يتجسد عنده في تعليم فلسفي معاد للتاريخ وللوعي التاريخي. سيبدأ هذا الجيل إذن قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها تصفية حسابه مع رموز هذا التعليم، بل سيعيد قراءة ماضيه عبر الانكشاف المفاجيء للتاريخية، تاريخية الضغط الزمني الألماني وتاريخية الحرب. لقد أدرك هذا الجيل أن مقاومة أخلاقية سلمية للنازية على طريقة ألان وبرانشفيك وبرجسون لن تفيد في قطع دابر هذا الكائن الذي لم تكن تدركه فلسفة الأساتذة إلا ميتافيزيقيا: الشر. فالعدو الذي يواجهه ليس أفكاراً مجردة ولا أوهاماً أو أشباحاً، إنه قوى تاريخية ترتبص به وتحاول أن تمحقه. سيمحي هذا الجيل من أفق الفلسفة فكرة «الطبيعة البشرية»، سيأخذ الفلسفة ويقذف بها في الفضاء النير للتاريخية.

وهكذا سيعيد ريمون آرون بناء ماضيه. يقول عن هذا الماضي: «إن السنة الدراسية

(31) J.P. Sartre: Situations II, 18ème édit. Gallimard 1948. 243.

١٩٢١ - ١٩٢٢، التي أنظر إليها كسنة حاسمة في وجودي، طبعت تاريخياً بآخر
الرجفات الحربية والثورية للأزمة الكبرى، لم أكن قد تعلمت أي شيء عن الاقتصاد،
عن البلشفية وعن ماركس. كنت فقط قد استشرت العالم السعيد للتأمل»^(٣٢).
وتحت عقال «العالم السعيد للتأمل» هذا سيرزح عشر سنوات: «لمدّة عشر سنوات،
كنت أتبنى آراء سياسية وكنت بالفعل أفضل أناساً على آخرين، كما كان تعاطفي يذهب
إلى جهة الضعفاء والمقهورين وكنت أكره ذوي النفوذ الذين كانوا يحتمون بحقوقهم. غير
أنه بين الفلسفة واحساساتي حدثت هوة مهولة: إنه الجهل بالمجتمع كما هو، كما هو من
الممكن أن يكون وكما هو من الممكن ألا يكون. إن أغلب أصدقائي من جيلي لم يستطيعوا
إملاء هذه الهوة، بل لم يحاولوا ذلك»^(٣٣). بهذا يكون الآن قد انتصر في آرون، يكون
الوعي بالسياسة احساساً أخلاقياً بالظلم ومجابهة أخلاقية - سلمية فردية - له. غير ان
السفر إلى ألمانيا كان مؤسساً لوعي تاريخي جارف. لقد أصبح المهم هو «أن نعي كوميديا
وتراجيديا الناس وهم يعيشون في المجتمع»^(٣٤)، لهذا سبّحت لنفسه اشكالية خاصة،
غير ان هذه الاشكالية - وهذه هي مفارقة هذا الجيل - سوف لن تتخلص أبداً من الارث
الكانطي الثقيل. يصيغ ريمون آرون هذه الاشكالية بالطريقة التالية: «كيف يمكنني،
وأنا الفرنسي اليهودي الذي يعيش في لحظة من الصيرورة، أن أعرف من بين مئات
الملايين المجموعة التي أنا محض ذرة فيها؟ كيف يمكنني أن أفهم هذه المجموعة من غير
اعتناق وجهة نظر من بين وجهات نظر لا تحصى عدداً؟ من هنا نشأت اشكالية كانطية
تامة: إلى أي حد يمكنني أن أعرف موضوعياً التاريخ والأُمم والأحزاب التي ملأت
الصراعات طريقة سردها في كل العصور وفي زمني هذا؟»^(٣٥) وهكذا سيحكم على
ريمون آرون بعد قراءة فلسفة التاريخ الألمانية أن يعيش الحرب الثانية، وستحدد هذه
الاشكالية اهتماماته اللاحقة التي انحصرت ما بين السياسة والتاريخ، أو لنقل، سياسة
التاريخ وتاريخ السياسة.

نفس القراءة للماضي - مع اختلاف في الميولات - نجدها عند سارتر، فهو يرى أنه:
«قبل الحرب، كنت أعتبر نفسي كفرد فقط، ولم أكن أدرك الرباط الذي كان يوحد بين

(32) Raymond Aron: Mémoires op. cit. p.19.

(33) Ibid. p.22.

(34) Ibid. p.69.

(35) Ibid. p.53.

وجودي الفردي والمجتمع الذي كنت أعيش فيه . وعند تخرجي من المدرسة العليا كنت قد بنيت نظرية كاملة بناء على هذا الاحساس : لقد كنت الانسان المتوحد ، أي الانسان الذي يتعارض مع المجتمع باستقلال فكره ، ولكنه لا يحتاج إلى المجتمع في أي شيء كما ان المجتمع لا حول له عليه لأنه حر . كانت هذه هي البديهية الأولى التي أقمت عليها كل ما فكرت فيه وكل ما كتبت وعشته قبل سنة ١٩٣٩ . . . فخلال فترة ما قبل الحرب بأكملها لم تكن لي آراء سياسية . كما انني كنت أعتبر أن ما يجب علي أن أعمله هو أن أكتب ، دون أن أدري بأن الكتابة نشاط اجتماعي^(٣٦) لقد قضى سارتر إذن مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية تحت رحمة نزعة سلمية فردانية تضع الأخلاق الفردية فوق التاريخ والمجتمع والسياسة . وكان تماماً كأرون يدين الظلم ادانة أخلاقية صرفة «لقد كنت بكل تأكيد معارضاً للحياة التي كانت تحياها البروليتاريا وكنت أجدّها قاسية»^(٣٧) لكن هذا كان يقربه من الآن بقدر ما كان يبعده عن كل تفكير اجتماعي أو سياسي . إن بداية الوعي بأهمية العامل الاجتماعي هي التي ستحدد الاشكالية الأساسية التي سيتحرك في إطارها فكر سارتر ، وهو يصيغ هذه الاشكالية بالطريقة التالية : «كيف نعطي للانسان في نفس الوقت استقلالته وواقعته بين الأشياء الواقعية بتفادي المثالية ودون السقوط في مادية ميكانيكية؟»^(٣٨) . لذلك سيتحول سارتر من منظر للحرية الفردي إلى داعية إلى حرية اجتماعية ، بل - وهذه مفارقة - سيتخلّى عن التفكير الفلسفي الصرف وسيصيغ أفكاره عبر نضال سياسي واجتماعي وثقافي مجسد .

كيف عاش هذا الجيل حربه؟ أكيد انه كجيل الآن خبر الحرب وخبر المقاومة . الا أنه خبرها خبرة تاريخية لا كخبرة جدل العبد والسيد - عند الآن - لذلك ومع الحرب العالمية الثانية سينصب الهجوم على الارث الفلسفي القديم . وقبل أن نتحدث عن الجوانب الأساسية في هذا الهجوم وأبعاده ، لا بد من أن ندرج هنا شهادة لسارتر تلخص - مع بعض التبايزات - كيف عاش هذا الجيل الحرب والأفانق التي فتحتها أمامه . يقول جون بول سارتر : «لقد قسمت الحرب فعلاً حياتي إلى شطرين ، إذ أنها ابتدأت وأنا ابن أربع وثلاثين سنة وانتهت وأنا ابن الأربعين ، وكان هذا حقيقة انتقال من سن الشباب إلى سن النضج . وفي نفس الوقت كشفت لي الحرب عن بعض جوانب نفسي وجوانب العالم الذي

(36) J. P. Sartre: Situations X "Autoportrait à soixante dix ans" op. cit. p.176- 177.

(37) J. P. Sartre cité in "la cérémonie des adieux" op. cit. p.479.

(38) J.P. Sartre: Situations IX, Gallimard 1972 p.104.

أعيش فيه . كما انني عرفت هناك أيضاً ، وأنا مقهور محطم ولكني بكل تأكيد موجود ، النظام الاجتماعي والمجتمع الديمقراطي . . هنا إذا شئنا القول انتقلت من الفردانية والفرد الخالص لما قبل الحرب إلى الاجتماعي والاشتراكية . هذا هو المنعطف الحقيقي في حياتي : قبل وبعد . قبل أدى بي إلى اعمال كـ«الغثيان» حيث العلاقة بالمجتمع كانت علاقة ميتافيزيقية ، وبعد أدى بي تدريجياً إلى نقد العقل الجدلي»^(٣٩).

هذا الجيل ، جيل سارتر وآرون وميرلوبونتي ، سينتقد ما أسماه بـ«رواقية» الجيل القديم أثناء الحرب الثانية . فلا برانشفيك ولا الآن لم يكونا يقدران على أن يعيشا هذه الحرب بواقعية ، ليس فقط لتقدم سنهما آنذاك ولكن أيضاً لتبنيهما لنزعة سلمية فردية لا ترى في الحرب الا جوانبها اللاأخلاقية . يقول موريس دي كوندريك عن برانشفيك : «خلال فترة الاحتلال اختفى برانشفيك في المنطقة الجنوبية تحت اسم مستعار هو : Mr. Brun وقد أظهر انه رواقى»^(٤٠).

يقرأ آرون مرحلة برلين على انها «تحت الوسواس السلمي الأخلاقي المنحدر من الآن»^(٤١) هذا «الوسواس» ، الذي يشكل في رأيه أهم سلبيات سياسة الآن ، يعزبه إلى غياب الحس التاريخي في هذه السياسة التي كانت تصطدم بنزعة فردانية مبنية على تصور جامد «للطبيعة البشرية» ، وهو ما شكل هوس هذه السياسة ، إذ أن الآن «لم يكن يجهل انه «ينقصه» البعد التاريخي وهو يرجع دائماً إلى الطبيعة البشرية الثابتة الأبدية في سماتها الأساسية»^(٤٢).

وميرلوبونتي لا يختلف مع آرون في هذا الانتقاد الموجه إلى الآن وان اختلفت المقاصد والغايات ، فعنده أيضاً نلمح سعياً حثيثاً إلى تجاوز سياسة الآن خصوصاً والملاحظ انه يفتتح كتبه السياسية ، ككتاب «مغامرات الجدل» ، باهتمام كبير بالرد على السياسة الأخلاقية عند الآن ، فهو يؤكد أن «السياسة ليست أخلاقاً خالصة» ، وانه «ليست هناك قرارات صائبة فالسياسة وحدها هي التي يمكن أن توصف بأنها صائبة»^(٤٣) . وهو يهاجمه أيضاً في كتابه «إشارات» حيث يقول : «يعتقد الآن انه لا يمكن سوء استعمال

(39) J.P. Sartre: Situations X op. cit, p.180.

(40) Maurice de Candillac, "Entretiens avec le Monde" op. cit, p.93.

(41) Raymond Aron: Mémoires p.67.

(42) Ibid. p.44.

(43) Maurice Merleau- Ponty: "les aventures de la dialectique" nrf Gallimard 12ème édit. 1955 p.8 et 9.

المراقبة وأن دور المواطنين دائماً هو أن يقولوا «لا»، ودور السلطة هو أن تتجه نحو الطغيان. . غير انه لم يتنبأ بتحول الأدوار حيث تصبح الحرية والمراقبة ضماناً لاستمرار السلطة»^(٤٤).

بل إن ميرلوبونتي لن يكتفي بمهاجمة الآن، فهو سيهاجم برجسون أيضاً على أساس أن هذا الفيلسوف لم يعط للتاريخ حقه: «لا توجد عند برجسون قيمة خاصة «للتسجيل التاريخي»، ولا أجيال منادية وأخرى محيية: لا توجد عنده إلا دعوة بطولية من الفرد إلى الفرد، نزعة صوفية بدون «جسد متصوف».»^(٤٥). ومن ثمة فبرجسون عوض أن يلتفت إلى التاريخ يسجن فلسفته داخل فكرة الحياة. بل هو على عكس تناوله فيما يخص الفرد ينظر إلى الحياة الاجتماعية نظرة «متشائمة جداً».

وبالفعل لو عدنا نستنتج فلسفة الآن باسم التاريخ، لما وجدنا شيئاً أبغض عنده من التاريخ. فالتقدم عند الآن ليس تقدماً اجتماعياً، لأن الفرد - لا الجماعة - هو صانع التاريخ «إن محرك التقدم كان يتمثل في ثورة ما للفرد، في مفكر حر لا شك انه تم إحراقه»^(٤٦) التقدم عنده يمكن أن يلحق العلم لكنه لا ينطبق أبداً على المجتمع: «لا أرى سوى العلم بخطو خطوة إلى الأمام بعد أخرى. أو بتعبير أدق لا أرى إلا الصناعة هي التي تخرج آلة بعد أخرى. غير ان العلم الحقيقي هو كالفن تماماً، يجب على الفرد أن يخلقه في ذاته بقواه الخاصة ويحفظه فيها، ولا يمكنه أن يتركه للآخرين على شكل ميراث»^(٤٧). تقدم الوعي هو إذن كتطور الفن، فليس صحيحاً انه بعد رسام أصيل سيرسم الناس بشكل أفضل ولا بعد بتهوفن سيعزف العازفون بشكل أدق. وما يسمى عادة بالوعي التاريخي ليس عنده إلا وعياً ميكانيكياً يمكن أن نصيغه في الشكل الاختزالي التالي: «بعد مجتمع هناك مجتمع آخر يتلوه، وبعد عدالة هناك عدالة أخرى تتبعها»^(٤٨).

هذه الصيغة «الفقيرة» هي صيغة الوعي التاريخي عنده. وهي أيضاً ما جعله «يكره» المؤرخين. يقول الآن: «ان هؤلاء المؤرخين الاعلون يسحقونني بعلمهم، ولكنهم لا يستطيعون بكل تأكيد التعويل على تقدم بخطو خطوة بعد أخرى بفعل القوة الخاصة

(44) Maurice Merleau- Ponty: "Signes" op. cit. p.401.

(45) Ibid. p.237.

(46) Alain: "éléments" op. cit. p.284.

(47) Ibid. p.286.

(48) Ibid. p.258.

لمجتمع في مجاله الخاص . أرى تقدماً يصنع ويتحطم لحظة بعد لحظة ، تقدماً يحققه الفرد المفكر ويحطمه المواطن الثاني، فالبربرية تتبعنا كظلنا الخاص^(٤٩) التاريخ الحقيقي إذن هو، كتاريخ الفن من جهة أولى وكتاريخ البطولة من جهة ثانية ، لا تقدم اجتماعي فيه . انه فقط انتصار وانزمام الفرد أو هو الانتصار السيزيفي للفكر على البربرية : «الفرد الذي يفكر ضد المجتمع الذي ينام: هذا هو التاريخ الأبدي . وللربيع دائماً نفس الشتاء ليهزمه^(٥٠)، هذه الطريقة في التفكير المعادية للتاريخية ، أو لنقل ، تاريخ الفيلسوف هذا الذي يصنعه وفق مزاجه ، سينتهي إلى رفض التقدم الصناعي نفسه واعتناق «نزعة كلبية» واضحة : «اليوم، في هذا العصر الصناعي، حيث المال هو الملك بالقوة، أرى أن النخبة ستتحل أكثر فأكثر بفعل الترف فتخلد إلى شهواتها . وأنه، بمنعطف لم يحظر على بال أفلاطون، فإن العمل اليدوي بدون ترف، بدون خيلاء، بدون جشع وبقوة الأشياء نفسها هو الذي سيعيد روح النظام والشجاعة الحققة وسينصب مملكة الأفكار^(٥١) . هذا التصور الرومنسي سينتهي إلى «مانوية» خالصة . يقول الآن: «إن مجموع الأفعال الإنسانية سيظهر لي الطغيان والقوة كقانونين للطبيعة، ولكنني سأنكر ذلك دائماً: لأن النظام الانساني هو انتصار على نظام القوة العمياء . فمثلاً ليست الحرب وليس السلم نوعين للوقائع الطبيعية . الحرب هي واقعة للنظام الأعلى، والسلم هو النظام الانساني . الأول نخضع له والثاني نريده ونرغب فيه^(٥٢)» ومن هنا ستتطور هذه الثنائية «المانوية» إلى توابعها: الحرب والسلم، الجماعة والفرد، البربرية والفكر، المجتمع والمواطن . . التاريخ والذات، يباعد أو يقارب بينها بعدها أو قربها من «طبيعة بشرية» تفترض على انها جامدة وأبدية . هذه الثنائيات تترجم على صعيد أشمل بثنائية المعرفة le savoir والإرادة le vouloir . إننا حسب الآن نريد السلم والمساواة والأخلاق، فهذا مجال الإرادة . ولكننا نعرف حقيقة الأشياء وظواهرها، فهذا مجال المعرفة . والطبيعة الانسانية هي في نهاية المطاف إرادة، ولكنها ليست إرادة فارغة صورية تملأ عبر الأزمنة بمبريدات يحددها الظرف التاريخي وتطور المجتمع، بل إرادة متمثلة أصلاً، متمثلة بإرادة مطلقة للحرية، التي هي إرادة الفرد، إرادة السلم، إرادة العدل والأخلاق . . » لكي نعرف كيف هي

(49) Ibid. p.285.

(50) Ibid. p.286.

(51) Ibid. p.135.

(52) Ibid. p.308.

الأشياء يجب أن نلاحظها دون تحيز ولا مشاكسة . غير ان الحرية والمساواة ليسا أبداً شيئين طبيعيين كالمغناطيس والراديوم . . انهما شيان يجب أن نريدهما ونرغب فيهما . وهما ليسا إلا شيئين سلميين . انهما مرغوب فيهما ضد كل المناورات . فإذا كنا عدداً لا يستهان به نرغب فيهما فسيحققان ، أما إذا فقدنا الأمل فسوف لن نجدنا أبداً»⁽⁵³⁾. هذه الفلسفة الإرادية الراغبة تنتهي عند الجيل الجديد إلى إخفاق تام . لغة نقدية واحدة يتبناها الجيل الجديد : إن الآن يهمل البعد الاجتماعي والتاريخي للسياسة والسياسي . يؤكد سارتر في هذا الصدد : «لنتذكر مثلاً ما كان عليه الحزب الراديكالي في فرنسا لقد أخرج أحد منظره كتاباً أسماه «المواطن ضد السلط» . ان هذا العنوان يوضح كيف كان ينظر آنذاك إلى السياسة : كل شيء يسير نحو الأفضل إذا كان المواطن المتوحد والممثل للطبيعة البشرية يراقب منتخيه ، وإذا اقتضى الأمر يارس ضدهم حرية إبداء رأي معارض»⁽⁵⁴⁾ . فسارتر - كباقي أعضاء الجيل الجديد - يجد عند الآن «سلطة ميتافيزيقية للطبيعة البشرية» . ترى ما السؤال التاريخي الذي طرحه هذا الجيل على سلفه ؟ السؤال في رأينا هو : من أين دخل الشر - الحرب العالمية الثانية - إلى العالم السعيد للطبيعة البشرية ؟ .

إن ما اكتشفه الجيل الجديد هو أن فلسفة الجيل الماضي لم تعرف تجربة الشر ، بل لم تعيشها إلا كتجربة رواقية ، لذلك فهي لم تقم للشر جنيالوجيا ولا تاريخاً ، بل أقامت جنيالوجيا ساذجة لاكتشاف المتدرج للروحية وكأن الروحية حصن ضد صولة الشر . كان برانشفيك رمزاً لفيلسوف النظام والسعادة والانسجام والخير . أما الجيل الثاني فقد اكتشف الفوضى والمأساة والنشاز والشر . تشكل التاريخية المتعددة . كان الجيل الأول جيل «الطبيعة البشرية» أما الجيل الثاني فقد أراد لنفسه أن يكون جيل «التاريخ» . يقول سارتر : بالنسبة لفيلسوف النظام ليون برانشفيك الذي مائل وماهى وأدمج كل حياته الطويلة ، والذي كون ثلاثة أجيال ، فإن الشر والخطأ لم يكونا إلا مظهرين خداعين ناتجين عن الفصل والحد والنهائية ، وبالتالي فهما ينتهيان إلى العدم المحض بمجرد أن نقفز على الحواجز التي كانت تفصل بين الأنظمة والمجتمعات . . فبالنسبة للواقعية السياسية كما بالنسبة للمثالية الفلسفية أيضاً لم يكن الشر أمراً يمكن أخذه بجديّة»⁽⁵⁵⁾ .

ماذا يعني التاريخ بالنسبة للجيل الجديد؟ انه يعني بالنسبة لسارتر «أن نأخذ الشر

(53) Ibid.

(54) J. P. SARTRE: Situations II op. cit. p.25.

(55) Ibid. p.245- 246.

مأخذ الجد⁽⁵⁶⁾، وبالنسبة لآرون «إن نعي كوميديا وتراجيديا الناس في المجتمع»⁽⁵⁷⁾، وبالنسبة لميرلوبونتي: «أن نعي منطق الوضع ودينامية النظام»⁽⁵⁸⁾.
هكذا يتحدد الجيل الجديد، انه جيل اغرم بالتاريخ. لكن، وكما انه لا يمكن الحديث عن تاريخ بصيغة المفرد، فإن تصور التاريخ عند أعضاء هذا الجيل قد شكل مظاهر تنافره واختلافه.

تشكلت اللجنة الادارية لمجلة «الأزمة الحديثة» في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٤ وكان من بين أعضائها جون بول سارتر وريمون آرون وموريس ميرلوبونتي وسيمون دي بوفوار واندريه مالرو، وقد صدر العدد الأول منها بتاريخ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٥. يحدد سارتر مشروع هذا الجيل، جيل «الأزمة الحديثة» بالتركيز على مفهومين أساسيين: الانسان والتاريخ. ارتبطت بمفهوم الانسان مفاهيم كالحرية والالتزام والمسؤولية، وارتبطت بمفهوم التاريخ مفاهيم كالمجتمع والسياسة والدولة. فالانسان الذي تدعو اليه المجلة «هو ذلك الانسان كما تتصوره انساناً شاملاً homme total ملتزماً كلية وحرراً كلية»⁽⁵⁹⁾ وبهذا تتحدد لعبة الأزمة الحديثة بأكملها: الشمولية La totalité والالتزام l'engagement والحرية la liberté وكأننا أمام لعبة المقولات الكانطية. ما يجمع بين هذه المقولات الثلاث هو: «لا يتعلق الأمر بأن يختار المرء عصره بل أن يختار نفسه داخل عصره»⁽⁶⁰⁾، كان هذا - رغم نفعته السارترية الضاغطة - هو ما وحد نسبياً بين أعضاء المجلة، غير أن للحجر عند سقوطه توقفات:

يمكن تلخيص مجالات اللعبة السياسية لجيل الأزمة الحديثة في ثلاث تساؤلات وتوابعها: ما الموقف من النظام الديغولي القائم؟ ما الموقف من الحزب الشيوعي؟. ما الموقف من الاتحاد السوفياتي؟. تتبع هذه التساؤلات ثلاثة توابع: ما الموقف من الحروب الاستعمارية وحرب الجزائر بالخصوص؟. ما الموقف من أحداث هنغاريا ١٩٥٦؟ ما الموقف من الستالينية؟. هذه التساؤلات والتوابع هي التي شكلت هم هذا الجيل. إلا أنها قسمت بين أعضائه...

(56) Ibid. p.246.

(57) Raymond Aron: Mémoires op. cit. p.69.

(58) Maurice Merleau-Ponty: "humanisme et terreur". Essai sur le problème communiste, Gallimard, 1947 p.3.

(59) J. P. SARTRE: "Présentation des temps modernes" in Situations II, p.12.

(60) J. P. SARTRE: "Qu'est ce que la littérature?". In Situations II, p.50.

لقد كانت جماعة الأزمنة الحديثة كجماعة المقاومة ذات حساسيات مختلفة. فلم تسر الأمور منذ البداية على ما يرام، فبمجرد أن اتخذت المجلة مواقف صارمة من النظام الديغولي، وشبه سارتر شارب الجنرال بشارب الفوهرر، حتى بادر ريمون آرون - ومعه اندريه مالرو - إلى الاستقالة. كان سارتر وميرلو بونتي ينظران إلى التاريخ ككلية محددة la totalité déterminante، أما ريمون آرون فتكوينه الابستمولوجي الدقيق في نظرية التاريخ الألمانية كان يمنعه من أية مغامرة من هذا القبيل، فليس أبغض عنده من التاريخ كما يتصوره الفلاسفة الفرنسيون: تاريخاً ضاعطاً تكون الأجساد البشرية فيه قرباناً. وفي الوقت الذي كان فيه سارتر وميرلو بونتي يقدمان «تبريرات تاريخية» لبعض التعسفات التاريخية الكبرى باسم التاريخ والروح الاستراتيجية، وكان فيه ميرلو بونتي على الخصوص يؤكد أنه «يجب أن نموقع الجريمة في منطق الوضع وفي دينامية النظام والكل التاريخي الذي تنتمي إليه»^(٦١)، ويتبنى طرح سان جوست القائل: «إن الوطني هو الذي يساند الجمهورية بصفة عامة، أما من يواجهها في تفصيل معين من التفاصيل فهو خائن»^(٦٢) مما جعله «لا يبحث عن حل أخلاقي، بل يؤكد على أن كل سياسة هي لأخلاقية بالضرورة، وأن كل نظام يقتل أو يتسبب في حروب، وأن السؤال المهم هو معرفة لماذا يفعل ذلك وما هي النتائج المترتبة عن هذه السياسة الانسانية التي هي بالضرورة سياسة مترددة ومطبوعة بالخطأ ودامية»^(٦٣). كان ريمون آرون يحذر من فلسفة تاريخ تبريرية. وبقدر ما غالى سارتر وميرلو بونتي في هذا الاتجاه واعتبرا نفسيهما حليفين موضوعيين للاتحاد السوفياتي ورفقاء طريق، بقدر ما أخذ آرون - ومالرو - يتجه رويداً إلى الدفاع عن نظام الولايات المتحدة الأمريكية وعن ديغول. أكيد أن ريمون آرون ظل مستقلاً في مواقفه لكن الحرب الباردة المعلنة كانت تضطره لكي يسير في إطار ليبرالي واضح ويعمق التعارض المفترض بين الديمقراطية والتوتاليتارية، بل يعد آرون اليوم من بين الأوائل الذين طرحوا مسألة التوتاليتارية.

غير أن فلسفة التاريخ الضاغطة هذه ستعرف نوعاً من «الدوش البارد»، فمع ظهور مجموعة مقالات لدافيد روسيه David Rousset - الذي خاض تجربة حزبية فاشلة مع

(61) Maurice Merleau- Ponty: "humanisme et terreur" op. cit. p.3.

(62) Cité par Maurice Merleau- Ponty in "humanisme et terreur" p.53.

(63) Michel Antoine Burnier: "les existentialistes et la politique" idées nrf Gallimard- 1966 p.54.

سارتر ضمن «التجمع الثوري الديمقراطي» - في مجلة «الفيغارو» يدين فيها معسكرات التعذيب Camps de concentration في الاتحاد السوفياتي، وفي الوقت الذي كان فيه مثقفو الحزب الشيوعي الفرنسي يعتبرون فيه مع بيير ديكس Pierre Daix أن هذه المعسكرات هي «أحد أبرز عناوين مجد وخلود النظام السوفياتي»^(٦٤) بدا تغير واضح في موقف سارتر وميرلو بونتي، فعوض القبول بالروح الاستراتيجية التي تبرر حتى ما لا يمكن تبريره، مالا إلى نوع من التحرر من ضغط فكرة «الكلية»، إذ نشر سنة ١٩٥٠ بياناً مشتركاً في مجلة «الأزمة الحديثة» قام بتحريره ميرلو بونتي يقول البيان: «إن ما نقوله، هو انه ليس هناك اشتراكية عندما يكون مواطن بين عشرين مواطن في معسكر للاعتقال». وقد أظهرنا بذلك انهما يرفضان كل تبرير استراتيجي لوجود المعسكرات من طبيعة: أن لكل ثورة خونها، أو أن الصراع الطبقي لم ينته مع سحق التمرد، أو أن مواجهة العدو الخارجي تقتضي محاصرة العدو الداخلي، أو انه لا صناعة بدون عنف ثوري...». فإذا كان من الضروري اليوم «إعادة تربية» عشرة ملايين من المواطنين السوفيات في الوقت الذي أصبح فيه رضعا أكتوبر ١٩١٧ يتجاوز عمرهم اثنين وثلاثين سنة، فمعنى ذلك ان النظام قد خلق بنفسه معارضته وبدون توقف. والخلاصة التي ينتهي إليها البيان هي: «إذا كان الذين يعيشون في معسكرات التعذيب عشرة ملايين، فإن الكمية تتحول إلى كيفية. النظام كله يصبح فاسداً ويتغير معناه»^(٦٥). ويتساءل سارتر من جهته: «هل هناك إذن مجال للقبول بالتعامل مع الحزب الشيوعي إذا كان الأمر سيتطلب لاحقاً أن نسيج فرنسا ونملأها معسكرات تعذيب؟»^(٦٦).

لكن ما جاء في آخر البيان كان ذا طابع إشكالي: «لا يجب أن نظهر التسامح تجاه الشيوعي ولكن لا يجب على أي حال أن نتحالف مع أعدائنا»^(٦٧) لقد طرح السؤال التالي والحرب الباردة بادية في الأفق: هل ننتهي إلى فلسفة سالبة رافضة عدمية أم نؤسس الايجابي؟. يبدو ان ميرلو بونتي - مع تحفظ على الجانب العدمي - مال إلى الجانب الأول في حين مال سارتر - وهله إحدى مفارقاته - إلى الجانب الثاني. لقد اعتبر سارتر هذا

(64) Pierre Daix cité par M. A. Burnier In "les existentialistes et la politique" p.40.

(65) M. Merleau- Ponty: "Signes" op. cit. p.322- 334.

(66) J. P. Sartre: "M. Merleau- Ponty vivant" les temps modernes n°184- 185. 1961. p.334.

(67) M. Merleau- Ponty: "Signes" op. cit. p.334.

الاكتشاف «نهاية المثالية» و«بداية الواقعية» في حين اعتبره ميرلو بونتي «نهاية السياسة» و«بداية التحفظ». ففي الوقت الذي سيحاول فيه ميرلو بونتي الابتعاد عن جاذبية الحزب الشيوعي الفرنسي والستالينية، سيحاول سارتر الاقتراب أكثر فأكثر منه وتتويجاً لهذه المرحلة (١٩٥٢ - ١٩٥٦) كان كتاب «الشيوعيون والسلام» الذي يؤكد فيه سارتر على الخصوص: «كان واجباً أن نكون إلى جانب أولئك الذين يخاطرون، أولئك الذين كان من مصلحتهم إرادة السلم، إذن إلى جانب السوفييات»^(٦٨).

بل وعند عودته من رحلة إلى الاتحاد السوفيياتي (١٩٥٤) سيؤكد سارتر انه: «كيفما كان الطريق الذي يجب أن تسلكه فرنسا، فإن هذا الطريق لا يجب أن يكون مخالفاً للطريق الذي سلكه الاتحاد السوفيياتي»، وهو يؤكد في نفس السياق إن: «حرية النقد مطلقة في الاتحاد السوفيياتي»^(٦٩).

مواقف سارتر هذه جعلته يدخل في سجلات عنيفة مع أهم مثقفي تلك المرحلة. فهو يقطع مع رونييه ايتيامبل René Etiemble لكون هذا الأخير عنف سارتر لأنه «يقبل أن يتعامل ويتحد مع اناس يعادون اليهودي ويفتخرون بحبسه واعتقاله والسخرية منه»^(٧٠) وبهذا ستطفو على الساحة الثقافية الفرنسية صورة جديدة لليهودي وحساسية جديدة لليهودي سوف تصبح الهاجس الموجه للمثقفين الفرنسيين اليوم: إنها صورة سقراط المتمرد ضد أنظمة القهر والطغيان.

وحين سيرفض ألبير كامي أن يختار موقفاً بين الرأسمالية والشيوعية الستالينية وينقل إلى المجال السياسي تشاؤمية «أسطورة سيزيف» باعتبار أن «الانسان المتمرد» (١٩٥١) قد ضاع في الأزمة الحديثة: «في الأزمة الساذجة حين كان الطاغية يدك حصون المدن وكان العبد، وهو مربوط إلى عربة المنتصر، يقوم باستعراض في المدن المختلفة، وكان العدو يرمى إلى الحيوانات المفترسة أمام الشعب المتجمع، كان الضمير صافياً والحكم واضحاً. غير انه اليوم، في زمن معسكرات العبيد تحت لواء الديمقراطية، والمذابح المبررة بحب الانسان حيث ذوق ما فوق - الانسانية تعطل الحكم. في اليوم الذي تتزين فيه الجريمة بفروة البراءة، بمنعطف خاص بعصرنا، فإن البراءة تصبح مطالبة بأن تعطينا

(68) J. P. Sartre cité par François Chatelet "Histoire des idées politiques" PUF. 1982. p.268.

(69) J. P. Sartre. L'express.

(70) René Etiemble: "littérature dégagée" Gallimard 1955 p. 148.

تبريراتها^(٧١) يكتشف سارتر في هذا الموقف «نزعة إنسانية عنيدة ضيقة وخالصة، متقشقة وحساسة»^(٧٢) ويكشف عن «تعبها» العميق، عن «عياء» في فكر ألبير كامي: «إذا كنا قد أحسنا بالتعب يا ألبير، فلنذهب للاستراحة لأن لدينا إمكانيات ذلك ولكن لا نحاول أن نخلق في العالم رعدة باسقاطنا لعيائنا عليه»^(٧٣). ومرة أخرى باسم تصور معين للتاريخ يحدث الشقاق، يقاطع البير كامي جماعة الأزمنة الحديثة. انه يكشف ان التاريخ يجري بدون غاية، فلا مجال عنده للحديث عن فلسفة للتاريخ، لا مجال للحديث عن معنى للتاريخ. يرد سارتر: «ان المشكل ليس هو معرفة ما إذا كانت للتاريخ غاية بل هو إعطاء غاية له»^(٧٤).

وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٣ يدخل سارتر في سجال مع جماعة «اشتراكية أم بربرية» ذات النزعة التروتسكية التي لا تقبل بمفهوم الحزب كما صاغه لينين بل تجدد فيه تباشير التوتاليتارية. ضد أحد ممثلي هذا التيار، كلود لوفور، يؤكد سارتر ان البروليتاريا هي الحزب الشيوعي نفسه، وانه ليس هناك بروليتاريا في ذاتها، ف«اليوم تحتاج الجماهير إلى الحزب»، و«الحزب هو وساطة بين الناس»^(٧٥). وبالتالي فلا مجال «للعفوية» لأن العفوية تؤدي إلى التهميش، إلى «شيوعيين بؤساء» يقول سارتر: «كانت جماعة «اشتراكية أم بربرية» قبلة تجمع بين حوالي مائة مثقف وبعض العمال الذين كانوا فرحين بهم: كان لهم «عمالهم». . . وهذا ما يكرهني فيهم بالإضافة إلى الإرث التروتسكي الذي لم يستطيعوا. أبداً التحرر منه»^(٧٦).

إلا أن السجال مع ميرلوبونتي كان أعقد وأقوى وأكثر إشكالاً، كان سارتر يتخذ مواقف لصالح الحزب الشيوعي الفرنسي ولكن باسم مبادئ الوجودية وبدون رجوع إلى الماركسية النظرية. في حين كان ميرلوبونتي يواجه الشيوعية الستالينية وسارتر باسم الجدل ومعنى التاريخ. كان سارتر يعتقد انه «منذ سنة ١٩٥٠ فهمنا ان الأمر لا يتعلق باختيار ما نحب. . . كان واجباً أن نكون إلى جانب أولئك الذين يخاطرون، أولئك الذين كان من

(71) Albert Camus: "l'homme révolté" idées nrf Gallimard 1951 p.14.

(72) J. P. Sartre. "Albert Camus" France Observateur du 7 janvier 1960 n°505.

(73) J. P. Sartre "Réponse à Albert Camus" in les temps modernes, Aout 1952 n°82. p.338.

(74) Ibid. p.352.

(75) J. P. Sartre "Réponse à Claude Lefort" in les temps modernes N°84 p.1573.

(76) J. P. Sartre: Situations X p.178.

مصلحتهم إرادة السلم، إذن إلى جانب السوفييات»^(٧٧)، فيجب بناء على هذا: «أن نحارب إلى جانب الطبقة العاملة وحزبها، إلى جانب الاتحاد السوفياتي»^(٧٨). الحزب الشيوعي إذن هو - في تمهيني متسلسل - الطبقة العاملة. هو الأمة، هو الحرية، هو السلم. في حين كان ميرلو بونتي يعتقد ان الشيوعية الستالينية والساترنية هما معاً معاديتان للجدل، فستالين هو المستبد الدموي للأمبريالية الجديدة، إنه لا يجسد لا الحرية ولا السلم. والشيوعية الستالينية تعكس تصوراً لأجلدياً للتاريخ، إذ الفعلية وحدها هي المقياس عندها «أما المعنى فسيأتي لاحقاً، الله وحده يعرف كيف ذلك . . .» فـ«بمجرد أن يقام جهاز الانتاج . . . سنرى الانسانية والجدل يرفعان ويزدهران في حين ستذبل الدولة. سوف يكون هذا أمراً حسناً لو ان المجتمع المدني، من أجل خلق جهاز الانتاج لم يكن يضع جهازاً للفسر ولم يكن ينظم الامتيازات التي ستصنع شيئاً فشيئاً الوجه الحقيقي لتاريخه»^(٧٩) كما ان البلشفية الساترنية هي أيضاً تبرر «الحركة الشيوعية برفضها لكل فعالية للتاريخ، وبجعلها . . . النتيجة المباشرة لإرادتنا»^(٨٠). هذه الشيوعية ذات المنحى الارادي المتطرف ultra-volontaire لا علاقة لها بالنظرية الماركسية (خصوصاً كما صاغها جورج لوكاش في كتابه: «التاريخ والوعي الطبقي» الذي كان ميرلو بونتي يعتبره نموذجاً «للشيوعية الغربية») ان هذه الشيوعية «لا تبرر أبداً بفلسفة التاريخ والجدل بل بنفيتها»^(٨١)، فنحن نحس «انه بالنسبة لسارتر كان الجدول دائماً وهماً . . . وان الحركة الماركسية كانت أساساً إبداعاً»^(٨٢) ومن ثمة فان «كل نظرية الحزب والطبقة عند سارتر تنحدر عن فلسفته في الواقعة والوعي وخلف الواقعة والفعل عن فلسفته في الزمن»^(٨٣).

وكما فعل سارتر أولاً مع البير كامبي، سوف لن يكلف نفسه عناء الرد على ميرلو

(77) Sartre cité par François Chatelet, Olivier Duhamel et Evelyne Pisier Kouchner in "histoires des idées politiques" mémentosthémis PUF 1982 p.268.

(78) Ibid.

(79) Maurice Merleau- Ponty. "les aventures de la dialectique" nrf Gallimard 12 ème édit. 1955.

(80) Ibid. p.137.

(81) Ibid.

(82) Ibid. p.135.

(83) Ibid. P.144.

بونتي، بل سيكلف سيمون دو بوفوار بذلك، ففي مقال لها سنة ١٩٥٥ بالأزمة الحديثة تحت عنوان موج «ميرلوبونتي وسارتر المزيف»، تتهم ميرلو بونتي «باتخاذ مواقف الى جانب البورجوازية»، وهو بذلك يسقط «ضحية لمثالية تقليد المثقفين الفرنسيين»^(٨٤) كان الخلاف - وراء هذه الاتهامات السطحية - عميقاً بين الرجلين «فمن جهة أولى بالفعل فإن قطيعتهما كان سببها اختلافات حول الموقف الذي يجب تبنيه اتجاه الحزب الشيوعي، ومن ثمة اتجاه الاتحاد السوفياتي. ومن جهة ثانية، وربما بشكل أكبر، كان يتعلق بصراع فلسفي أساساً حول العلاقات بين الطبقة والحزب، علاقات تتضمن جدل المعيش والمبني، التجربة العملية والحركة السياسية»^(٨٥).

أما الحدثان اللذان كسرا - دون أن يذيا نهائياً - تضخم فلسفة التاريخ هذه، فهما القضية الهنغارية (تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦) والتقرير المقدم للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦). يقول سارتر معلقاً على الحدث الأول: «ان ما يعلمنا الشعب الهنغاري بدمه هو الإفلاس النهائي للاشتراكية كبضاعة مستوردة من الاتحاد السوفياتي»^(٨٦) ويعلق ميرلوبونتي من جهته: «ان انتفاضة الشيوعيين الهنغار تريد أن تقول بأن الستالينية مست حتى الجوهر الاشتراكي للنظام»^(٨٧) لهذا سيرفع سارتر - بعد أن كان ميرلوبونتي قد فعل ذلك قبله - شعار «تصفية الستالينية» «بإمكاناتنا الثقافية، وبقراءة بعض المثقفين لنا، سنحاول المساهمة في نزاع الصفة الستالينية عن الحزب الشيوعي الفرنسي»^(٨٨).

وفي الوقت الذي سيكون فيه سارتر سائراً نحو تقييم حصيلة مغامرة صعبة، في الوقت الذي بدأ فيه يقتنع بأنه «يجب أن نأخذ نوعاً من الجدية في الالتزام دون أن نفقد درجة معينة من العنف. . . غير انه سوف لن يكون العنف الرومسي للمقاومة أو لحرب الجزائر. يمكن أن نندم على هذا: فذلك العنف لم يبق موافقاً لوضعنا الآن. . . يجب أن

(84) Simone de Beauvoir "Maurice Merleau- Ponty" et le pseudo- Sartre" in les temps modernes, juin- juillet 1955, pp. 2072- 2122.

(85) Raymond Aron: "Mémoires" p.314.

(86) J.P. Sartre. "Après Budapest, Sartre parle", l'express du 9 novembre 1956 n°281 p.15- 16.

(87) M. Merleau- Ponty: "signes" p.367.

(88) J. P. Sartre "le fantôme de Staline" les temps modernes, novembre- décembre 1956 N° 129 - 130 - 131. "Révolte de la Hongrie" p.696.

نعثر على عنف للعقلانية»^(٨٩) كان هناك جيل آخر يحاول التخلص من عنف العقلانية هذا بالذات . حين يلوح في الأفق أن ميدان الصراع قد تغير، فإن ما يجب استخلاصه هو أن جيلاً جديداً قد أخذ المبادرة . لقد كانت سنوات الخمسينات سنوات السجال حول الشيوعية، أما في سنوات الستينات فسيتحول الصراع إلى حقل العلوم الانسانية . يقول أحد أبناء هذا الجيل الجديد: «لقد اكتشفنا بشكل مفاجيء ودون سبب ظاهر، منذ حوالي خمس عشرة سنة، اننا مغرَقون في البعد عن الجيل السابق، جيل سارتر وميرلوبونتي، جيل الأزمنة الحديثة الذي شكل قانوننا في التفكير ونموذجنا في الوجود...»^(٩٠).

(89) J. P. Sartre, cité par M. A. Burnier in "les existentialistes et la politique" op. cit. p.168.

(90) Michel Foucault. La quinzaine littéraire, N°5, 15 Mai 1966.

اعتمدنا على ترجمة «بيت الحكمة» لهذا الحوار.

القسم الثاني:

أحداث ماي (أيار) ١٩٦٨ وأثرها في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر

"Pourquoi cette rupture? S'agit-il
d'une révolte pour la révolte? préconisez- vous
un nouveau nihilisme? voulez- vous ressusciter
Bakounine, Kropotkine? Etes- vous un anarchiste monsieur Marcuse?"

M. POLIN

تتبعنا في الفصل السابق عملية انكشاف مفهوم المثقف وتجسده عبر جيلين: جيل الأساتذة، وجيل «الأزمة الحديثة». لقد نشأ مفهوم المثقف مع ظهور «بيان المثقفين»، ولكن هذا المفهوم اتخذ منذ البداية طابعاً إشكالياً. فبقدر ما كان ضغط التاريخ يفرض على المثقف أن ينزل إلى الساحة العمومية، بقدر ما كان المثقف يحاول الحفاظ على استقلاليته، وما ميثاق لانيو إلا نموذجٌ لهذه المقاومة ضد سيل الزمن. كان جيل الأساتذة جيل رجال أحسوا بضغط التاريخ لكنهم لم يستطيعوا أبداً تجاوز الإرث الفلسفي السابق، والذي بنى ميتافيزيقا كاملة حول الفرد والذات والطبيعة البشرية. ولم تفعل قضية دريفوس فعلتها إلا في الآن. كان الآن يريد للمثقف أن يكون راديكالياً وإلى الأبد، يريد له أن يكون العدو الأبدي للسلطة. لقد أقام الآن جنرالوجيا لشر السلطة ومقاومة له، أقام جنرالوجيا ونحت أخلاقية. غير أن ما كان ينقص الجنرالوجيا هو البعد التاريخي، وما كان ينقص الأخلاقية هو البعد الواقعي. كانت هذه الجنرالوجيا لا ترقى فوق درجة الصفر للتاريخ: فهناك دائماً سلطة تمنح إلى الطغيان وفرد يمنح إلى المقاومة، في وضع هو أشبه فيه بوضع سيزيف. أما الجيل الجديد فقد اكتشف الامتلاء التاريخي، اكتشف المعنى والتقدم، وحاول أن يقيم على هذا الاكتشاف جنرالوجيا تاريخية للشر تكون محملة بالمعنى. كان جيلاً مغرماً بالتاريخ، بتاريخ الجماعة لا بتاريخ الأبطال. ليست كل السلط رمادية عند هذا الجيل. فهناك إمكانية الاستعمال الحسن للسلطة. كان هناك النموذج الأمريكي الذي لم يكن أبداً يقنع بخلائه من كل فاشستية، وهناك النموذج السوفياتي الذي لم يستطع أن يدفن توتاليتاريته. كان على المثقف أن يواجه الفاشستية والتوتاليتارية معاً. وكانت المحطات الأكثر توهجاً في حياته: قضية دريفوس، الجبهة الوطنية، الاحتلال والمقاومة، الفترة الديغولية، حرب الجزائر، قضية هنغاريا، المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي، وأخيراً ثورة ماي ٦٨. وإذا كنا قد فصلنا القول في القضية الأولى فلأنها كانت هي المؤسسة. لقد طبعت قضية دريفوس

جنياولوجيا المثقف بثلاث سمات أساسية: أولها، على المثقف أن يكون يهودياً بالقوة، أي سقراط اليهودي، وهي صورة طفت على السطح من جديد مع خطاب «الفلاسفة الجدد». ثانيها، عليه أن يكون متشككاً بصفة دائمة إزاء نوايا السلطة، إن لم نقل أن عليه أن يعتبر كل السلط رمادية، وهو خطاب يطفو اليوم على الساحة تحت اسم «فلسفة حقوق الإنسان». ثالثها، عليه أن يراجع نفسه باستمرار، أي أن يضع قيمته كمثقف موضع سؤال، وهو ثابت ظل يلزم المثقف منذ ولادته، ونحن نجد له صدق اليوم في كل الخطابات حول المثقف. هذه الحساسيات الثلاث يمكن أن نقيم لها «جنياولوجيات جهوية». غير أن الحيز المخصص لهذا البحث لن يسعنا في ذلك. لهذا سنكتفي بالملاحظة التالية: إن ما يحدث اليوم في الثقافة الفرنسية، ومنذ منتصف السبعينات، هو تعبير عن بلوغ هذه الحساسيات الثلاث إلى درجة اللاعودة من تطورها. فالمثقف الفرنسي اليوم، تحت وطأة وسائل الإعلام، هو بالضرورة سقراط يهودي يعتبر السلط رمادية ويتشكك في قيمه باستمرار. إن الخطاب اليوم حول «موت المثقف» يكتسي طابعاً «كليباً» واضحاً.

من قضية دريفوس إلى ثورة ماي ٦٨، نلمس بوضوح قوة وعمق الخطاب حول المثقف. وثورة ماي ٦٨، هي تفجير جديد لهذا الخطاب. ستتبع مع ماي ٦٨ تأكيد جيل جديد لذاته. جيل فوكو ودريدا ودولوز وليوتار وبارث. . جيل فضل التعامل مع كلود ليفي ستراوس بدل سارتر ومع لاكان بدل ميرلو بونتي. غير أننا لن نركز على الأنساق - وهل نستطيع ذلك؟ - بقدر ما سنركز على الأحداث والمحطات الأساسية، محاولين وضع أهم كتب هذا الجيل ضمن إطار تلك الأحداث، وعاملين في نفس الوقت على التمهيد إلى جيلنا الجديد: جيل «الفلاسفة الجدد».

الفصل الرابع

أنصاف آلهة ما بعد الحرب

"Le philosophe, formé à l'école de Descartes, sait que les choses sont douteuses, qu'elles ne sont pas telles qu'elles apparaissent, mais, il ne doute pas que la conscience ne soit telle qu'elle s'apparaît à elle-même, en elle, sens et conscience coïncident, depuis Marx, Nietzsche et Freud, nous en doutons. Après le doute sur la chose, nous sommes entrés dans le doute sur la conscience"
Paul Ricoeur

سنبحث هنا عن صورة حضور أولئك الذين أسماهم ريمون آرون بـ«أنصاف آلهة ما بعد الحرب»، وأسماهم بول ريكور بـ«أساتذة التشكيك»، داخل الثقافة الفلسفية الفرنسية. يتعلق الأمر بثلاثة مفكرين أخذ حضورهم يتقوى في الساحة الفكرية الفرنسية منذ الثلاثينات: ماركس، نيتشه، فرويد. واعتبرهم رولان بارت: «شرطيونا الثلاثة»، يعطون إشارات المرور لثقافي ما بعد الحرب. لن نركز على صورة هؤلاء في الممارسة السياسية الاجتماعية (كارل ماركس)، ولا في الممارسة الإبداعية الأدبية (فريدريك نيتشه)، ولا في الممارسة العيادية السيكلوجية (سيغموند فرويد)، بل كل ما سنعمل عليه هنا هو رسم صورة تقريبية لحضور هذه الوجوه الثلاثة داخل الفكر الفلسفي الفرنسي، وبالضبط ضمن إطار الخط الذي نرسمه في هذا البحث للثقافة الفرنسية. سنرصد «تضخم» هذا الحضور بعد سنوات من المواجهة مع التقاليد الجامعية الفرنسية المتشددة. يقول ريمون آرون متحدثاً عن موقف التعليم الفلسفي في الثانويات والجامعات لما قبل الحرب من أنصاف آلهة ما بعد الحرب: «إن التعليم الفلسفي في الثانويات والجامعات كما تلقاه جيلي، كان يدعو إلى تحفظات كثيرة. فما بعد الكانطيين، فيخته وهيجل، لم يكونوا مجهولين غير أنهم لم يكونوا مبرمجين أبداً في مقرر التبريز بدعوى أن أعمالهم الأساسية لم

تكن مترجمة آنذاك إلى الفرنسية. وأنصاف آلهة ما بعد الحرب: ماركس، نيتشه، فرويد، لم يكونوا ينتمون إلى مقرر قسم الفلسفة أو التثريز^(١). فكما وقف جبل الأساتذة ضد هيغل وفلسفته سيقف هذا الجيل نفسه ضد ماركس. يقول سارتر: «إن برانشفيك - الذي كنا نستمع إلى دروسه في السوربون لأننا وجدناه أكثر ذكاء من الآخرين - لم يكلف نفسه حتى عناء ذكر اسمي هيغل وماركس في كتابيه الأولين، ولم يخصص إلا ثمان صفحات لهيغل في كتابه الثالث دون أن ينبس بكلمة واحدة حول ماركس»^(٢). هذا الحصار المضروب على فكر ماركس بدأ ينحل عبر مراحل، ولكنه كان قوياً بكل تأكيد. يمكن أن نرد الحصار المضروب على ماركس إلى ثلاثة أسباب متكاملة: هناك أولاً: الأزمة الألمانية للفكر الفرنسي^(٣) والتي جعلت جيل ما بعد هزيمة ١٨٧٠ يكره كل ما هو روسي، خصوصاً إذا تعلق الأمر بفكر أقرب إلى مجال السياسة والاجتماع فكفر ماركس. وهناك أيضاً الخطر الاجتماعي الذي كان يمثله ماركس على تقاليد جامعية فرنسية موهلة في «المثالية الأكاديمية»، علماً أن الجامعة الفرنسية كانت طوال تاريخها صدى للمذهب الرسمي وكانت تحاصر كل ما من شأنه أن يذر بذور الشك في هذا المذهب، حتى تجربة فانسين Vincennes التي ستخالف فيما بعد هذه القاعدة، بأت بالفشل. لقد كان ماركس يمثل وجهاً من وجوه «الترسخ المتزايد للمذاهب السلبية في ذهن شيبينا»^(٣). وهناك ثالثاً - وهذا لا يجب أن ننساه أبداً - التباس وضع الفلسفة في النسق الماركسي، إذ تظهر الماركسية أحياناً كمذهب وضعي اجتماعي يناصب الفكر الفلسفي العداء، وهذا ما يفسر كون أغلب الكتب الماركسية التي ترجمت أواخر القرن الماضي إلى الفرنسية كانت أميل إلى تغليب الجانب «الوضعي». لهذا لم يدخل الفكر الماركسي إلى فرنسا إلا عبر النقابات والحركات السياسية، وحتى هذه الحركات كحركة جوريس وبلوم كانت تطرح دائماً فكرة «الطريق الفرنسي إلى الاشتراكية».

لقد ترجمت أهم أعمال ماركس إلى الفرنسية ما بين ١٨٧٠ و١٩٠٠ إلا أن فعلها الفلسفي كان ضعيفاً إن لم نقل منعدماً، وذلك لأنها كانت تعزل عن بعدها الفلسفي في حركة سياسية «فجة»، ولأن محيطها الجامعي كان أكاديمياً صرفاً. يقول سارتر متذكراً أول

(1) Raymond Aron: "Mémoires: 50 ans de réflexion politique". Julliard, p.41.

(2) Jean-Paul Sartre: "Situations IX". Gallimard, 1972. p.190.

(3) Victor Dury. Cité par Jacques Derrida in "la philosophie et ses classes". "Qui a peur de la philosophie?" Grèph, Flammarion, p.447.

وقع لكتب ماركس على حياة جيله: «كنت أفهم الكلمات، وكنت أفهم الأفكار أيضاً، ولكني لم أكن أرى كيف يمكن أن ينطبق هذا على عالمنا الحاضر، وكيف أن يكون لمفهوم فائض القيمة معنى حديثاً. هذا لم أكن أفهمه»^(٤). منذ أن تم الإحساس بتسرب ماركس إلى طلبة علم الاجتماع، في وقت كان فيه دوركهيم إله السوسيولوجيا الفرنسية، كانت المواجهة عنيفة، إذ تشير مجلة «السنة السوسيولوجية» منذ سنة ١٨٩٧ إلى ما تسميه بـ«الموضة»، موضة المادية التاريخية بين طلبة علم الاجتماع. لهذا نلقى سلسلتان بوغلي C. BOUGLE، أحد أبرز أساتذة السوسيولوجيا بفرنسا، يخوض مساجلة عنيفة ضد «موضة المادية التاريخية». يقول المؤرخ الفرنسي الكبير فيرناند بروديل: «كنت طالباً شاباً مهتماً جداً بما يقوله أساتدتي. هؤلاء الأساتذة الطيبون لم يكونوا يتحدثون أبداً عن ماركس ولا عن ماكس فيبر ولا عن فيري سامبار، لدرجة أن هذا التكوين الماركسي لم ألتقاه إلا لاحقاً»^(٥). غير أن الأمور سبتداً في التغير خلال أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات، حيث سنالاحظ موجة عارمة من إعادة الترجمة لكتب ماركس: «العائلة المقدسة» (١٩٢٧-١٩٢٨)، «المساهمة» (١٩٢٨)، جزء من «الرأسمال» (١٩٢٦-١٩٣٠)، «العمل المأجور والرأسمال» (١٩٣٠)، «البيان» (١٩٣٤)، «الاطروحات حول فيورباخ» و«بؤس الفلسفة» (١٩٣٥)، «الصراعات الطبقة في فرنسا» و«الحروب الأهلية في فرنسا» (١٩٣٦)، جزء من «الايدولوجيا الألمانية» (١٩٣٧) مما جعل هنري لوفيفر يتحدث عن اكتشاف - أو إعادة اكتشاف - ماركس خلال هذه المرحلة. «كان الانطباع يزداد قوة كلما ساد حولي الحماس. لقد اكتشفنا فلسفة»^(٦). اكتشاف الفلسفة الماركسية كان إشكالياً. لأنه من جهة أولى كان ينظر إلى الماركسية فيما قبل على أنها مجرد إيديولوجيا «دون تمحيص كبير وبمنظرة مغلقة، بادرت إلى قراءة المادية الجدلية، كانت في ذلك الوقت مجهولة في فرنسا وكان الحديث يتم عنها تارة كغرابية «روسية»، وتارة كفكرة ثورية أتت من لينين وتطور حولها بالاتحاد السوفياتي سجلات عنيفة، سجلات كان يعتقد انها «ايدولوجية» وإيديولوجية فقط»^(٧)، لذلك ستتحول الماركسية من إيديولوجية إلى علم وعلم «فقط».

(4) Simone de Beauvoir. "La céré monie des adieux" op. cit. p.481.

(5) Cité par Jeannine Verdès- Leroux in "Au service du parti: le parti communiste, les intellectuels et la culture 44- 56". Fayard. Minuit 1983. p.82..

(6) Henri Lefebvre. "La somme et le reste". La nef de France. Paris 1959. T1. p.45.

(7) Ibid. p.44.

ومن جهة ثانية كان هناك دائماً إحساس عند الفرنسيين بأن هناك شيئاً ما غير مكتمل في الماركسية ويجب أن نكمّله، وكانت البوصلة تشير إلى جهة الفلسفة، لقد كان المطلوب هو «إقامة» فلسفة ماركسية. يقول التوسير الذي ارتبط اسمه بهذا المشروع السيزيفي: «إن نهاية الدوغمائية جعلتنا أمام هذه الحقيقة: إن الفلسفة الماركسية، التي أسسها ماركس في فعل بناء نظريته في التاريخ نفسه، هي في جزء كبير منها لازالت تنتظر أن يتم تأسيسها»⁽⁸⁾. هذا الاشكال شكل الوجه الفرنسي لماركس. وهناك ثالثاً العلاقة بين الحضور الماركسي والحضور الهيجلي، لقد أثار الأول الانتباه إلى الثاني ولكن الثاني أكد حضور الأول، فالإكتشاف التدريجي لهيجل ممكن من إكتشاف ماركس، لكن إكتشاف ماركس ممكن من نفّض الغبار عن هيجل.

أما فريدريك نيتشه (١٨٤٥-١٩٠٠)، فقد دخل إلى الحياة الجامعية الفرنسية عبر بعض المؤلفات الأدبية. يكتب نيتشه في رسالة إلى أحد أصدقائه بتاريخ ٢٢ كانون الأول (دجنر) سنة ١٨٨٨: «إن قناة بناما الكبرى قد فتحت أخيراً بيني وبين فرنسا»⁽⁹⁾. ومن الأفكار الغريبة التي صاحبت نيتشه طول حياته أن يحاول الكتابة باللغة الفرنسية، لأنه كان يعتقد أن فرنسا وحدها هي التي فهمته جيداً. ومن الملاحظ أنه حوالي ١٨٩٠ كان أحد أساتذة الفلسفة يحاول عبثاً نشر كتابات نيتشه وأفكاره في الأوساط الثقافية الفرنسية، في وقت دخل فيه الفيلسوف في حالة جنون عقلي عاصفة. ترى كيف قرأ هذا الاستاذ - وأغلب الفرنسيين معه - فلسفة نيتشه؟ كان غابرييل مونود GABRIEL MONOD يعتقد أن نيتشه هو صاحب «فلسفة منحرفة»، وداعية أرسقراطية قاسية تسود عندها القوة العنيفة وسوء النية «الكلبي». ويصف أحد المتحمسين لنيتشه فلسفة هذا المفكر بأنها «تمثال رائع منحوت من رخام، لكنه تمثال يحتوي العدم»⁽¹⁰⁾. وتلاحظ إحدى الباحثات الأوائل في تأثير نيتشه في الثقافة الفرنسية، بأنه خارج هذه القراءة التي ارتبطت بتاريخ الأدب الفرنسي أكثر مما ارتبطت بتاريخ الفلسفة، فإن «كتب وتواريخ الفلسفة كانت تطرد اسم نيتشه بجملتين أو صفحتين ولا تضعه في مرتبته كمفكر»⁽¹¹⁾. ويلخص

(8) Louis Althusser. "Pour Marx", Maspéro 1965. p.21.

(9) Nietzsche, lettre à Peter Gast. 22 décembre 1888. Ecce Homo. p.359.

(10) Shuré. Cité par Geneviève Blanquis "Nietzsche en France. L'influence de Nietzsche sur la pensée française". Félix Alcau. 1929. p.6.

(11) Ibid. p.456.

صاحب «الأزمة الألمانية للفكر الفرنسي» صورة نيتشه الأولى في فرنسا ما قبل الحرب على أنها كانت إما صورة صاحب فكر هدام وفوضوي، أو صورة صاحب نزعة حماسية بطولية. وعموماً «لقد بدا لهم تأثيره خلاصياً لأنه معاد للعقل ومعاد للكانطية»^(١٢).

وإذا ما حاولنا المقارنة بين الصور الأولى لحضور نيتشه وماركس داخل الثقافة الفرنسية، لأمكننا أن نقول بصفة عامة: «إن مؤلفات نيتشه لم تنتشر تقريباً إلا في الأوساط الأدبية، في حين لم تمس الماركسية المثقفين إلا بعد أن أثرت بشكل واضح في بعض النقابات ورجال السياسة»^(١٣).

واصطدم فرويد بحصار أقوى، فلقد كان التأثير الديكارتى قوياً عنيداً في فرنسا. كان مذهب الكوجيطو لا يترك حظاً لفكرة اللاشعور أساس مذهب فرويد. يقول سارتر - الذي لم يتخلص أبداً من هذا التأثير وظل يرفض بقوة فكرة اللاشعور حتى وفاته - «لا يجب أن ننسى أبداً حجم تأثير العقلانية الديكارتية في فرنسا. كان من يقدم على اجتياز امتحانات البكالوريا، وهو ابن السابعة عشر من عمره، قد شحن بتعليم مبني على أساس «أنا أفكر، إذن أنا موجود»^(١٤). وبالتالي فهو كنموذج لتلقي الفيلسوف الفرنسي تعليم فرويد، يصور لنا وضعه قائلاً: «إني كنت عاجزاً عن فهم فرويد لأنني كنت فرنسياً وقد تغذيت من التقليد الديكارتى المشرب بالعقلانية والذي كانت فكرة اللاشعور تصدمه بعنف»^(١٥). هذا التأثير الجارف للشعورية الديكارتية - وإن لم يكن ديكارت نفسه معادياً مبدئياً لكل فكرة عن اللاشعور - جعل استاذ فلسفة معروف بتأثيره في أوساط طلبة الفلسفة، كالآن، يعتبر التحليل النفسي «سيكولوجية قردة». يقول ريمون آرون: «كأن الآن يرفض إينشتاين والنسبية، كما أنه كان يرفض التحليل النفسي. هل كان ذلك عن جهل؟ أم عن عدم فهم؟. لا أعتقد ذلك. ففياً يخص النظرية النسبية كان الرفض يعود أساساً إلى تكوينه الفكري: لا يجب تفويض أسس معبد العقل. وكان يسمى التحليل النفسي «سيكولوجية قردة»، وهو تعبير على الأقل أقل ملائمة». لماذا كان الآن يرفض فرويد؟ لأنه أصلاً كان يرفض تفسير الإنسان بالأدنى»^(١٦). هذا بطبيعة الحال تلميح

(12) Claude Lèvy-Strauss: "la crise allemande de la pensée française" op. cit. p.456.

(13) Ibid.

(14) Jean- Paul Sartre "Situations IX" op. cit. p.104.

(15) Ibid. p.127.

(16) Raymond Aron "Mémoires". op. cit. p.44.

لـ«مادية فرويد التي كان يعتقد أصلاً على أنها كانت تفسر الأعلى بالأدنى . كان على الفيلسفة إذن «أن تكون خير علاج وقائي يوقف زحف المادية»^(١٧). غير أن هذا لم يكن شأن الفلسفة وحدها، فالسوسيولوجيا الدوركايمية أيضاً لعبت دورها، كان عالم اجتماع كبير كسلستان بوغلي يضم صوته إلى بلونديل : «كانا «لا يؤمنان» بالتحليل النفسي، كانا لا يناقشانه ويرفضانه»^(١٨). ولم يكن من الممكن محاصرة الفرويدية بهذا الشكل العنيف، وبالتالي الحكم عليها بأن تصبح مجرد أداة علاجية، دون الاعتراف لها بأي طابع نظري أو فلسفي، لولا سيطرة سيكولوجيا تجريبية ساذجة على الجامعة الفرنسية . «قبل كل شيء كانت السيكولوجيا تملأ جزءاً كبيراً من الدروس، سيكولوجيا غربية كانت تستمد جزءاً منها من تقليد سيكولوجي عقلي نصفه ميتافيزيقي، من جهة، ومن جهة أخرى من بدايات سيكولوجيا علمية تجريبية»^(١٩).

غير أن قوانين اللعبة سرعان ما ستتغير، وسيتم اكتساح «أساتذة التشكيك»: ماركس، نيتشه، فرويد، للساحة الثقافية الفرنسية اكتساحاً شاملاً. غير أن هذا الاكتساح سيتخذ منذ بدايته طابعاً إشكالياً واضحاً، في الوقت الذي سيسمح فيه بالتخلص النهائي من الإرث الديكارتي والكانطي معاً. «لو عدنا إلى القصد المشترك بينهم لوجدناه في اعتبار الوعي أولاً في مجموعه كوعي «زائف» . إن الفيلسوف المكون في مدرسة ديكرت يعرف أن الأشياء قابلة للشك، وأنها ليست بالشكل الذي تظهر عليه، غير أنه لا يشك في أن الوعي ليس هو كما يظهر لنفسه، ففي الوعي يتطابق المعنى والوعي به، منذ ماركس ونيتشه وفرويد أصبحنا نشك في ذلك . فبعد الشك في الأشياء دخلنا في مرحلة الشك في الوعي نفسه»^(٢٠)، فإن هذا الاكتساح سوف يأخذ «عصا لينين» من طرفها المعاكس، بعد الحظر على الكلام سيصبح كل كلام ممكناً، سوف ندخل مع المثقفين الفرنسيين في مرحلة هذيانات لم تتوقف بعد: «إن أنصاف الآلهة الثلاثة، وهم عباقرة بكل تأكيد، قالوا وسمحوا بقول كل شيء كيفما اتفق»^(٢١). يمكن أن نعلن بداية تغير قوانين اللعبة مع قدوم مهاجر روسي إلى فرنسا وشروعه في

(17) Victor Dury, cité par Jacques Derrida "Qui a peur de la philosophie?" op. cit. p.447.

(18) Raymond Aron. "Mémoires" op. cit. p.52.

(19) Ibid. p.20.

(20) Paul Ricoeur "De l'interprétation. Essai sur Freud", L'ordre philosophique. Edit. Seuil 1965. p.41.

(21) Raymond Aron. "Mémoires" op. cit. p.110.

إعطاء دروس حول فيلسوف ألماني كبير. . حول هيغل. لم يكن هذا المهاجر الروسي إلا ألكسندر كوجيف Alexandre Kojève ولم تكن تلك الدروس إلا المدخل الشهير لقراءة هيغل. وبالفعل فمُنذ سنة (١٩٣٣) شرع كوجيف يلقي دروسه بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا. وكان من بين أشهر مستمعيه ميرلوبونتي ولاكان وآرون وإريك فيل وميشيل فوكو. كانت الفكرة المحورية التي دارت حولها هذه الدروس هي مفهوم الاعتراف la reconnaissance في الانتروبولوجيا الهيغلية، وهو مفهوم لعب دوراً كبيراً في إمكانية إحداث تقارب بين هيغل وماركس من جهة أولى، وهذا هو مجهود جون هيبوليت، وبين هيغل وفرويد من جهة ثانية، وهذا هو مجهود جاك لاكان. تلخص هذه الدروس فكرة الاعتراف هذه في «حسب هيغل ليس الإنسان إلا رغبة في الاعتراف، والتاريخ ليس إلا عملية إشباع تدريجية لهذه الرغبة التي تشبعها الدولة الشاملة المنسجمة إشباعاً كاملاً»^(٢٢). لقد انتقل هيغل فجأة إلى صف الفلاسفة الكبار الذين لا يمكن تجاوزهم على الإطلاق خصوصاً إذا علمنا أنه بعد جهود كوجيف توالدت الثمار: مجهودات جون هيبوليت وألكسندر كويري وإريك فيل. يقول موريس دي كوندريك: «لم نكتشف إلا بطريقة متأخرة هيغل وعبر ماركس. ذلك أنه قدم لنا على أنه عودة للسكولائية. فكوجيف وهيبوليت هما اللذان سيقبلان الوضع»^(٢٣) إلا أن هذا الاكتشاف سيكون بدوره إشكالياً، فهو سيسمح من جهة أولى بإحياء فلسفة سياسية عميقة، ولكنه من جهة ثانية سيشتق بحبائله الجدلية دينامية القول الفلسفي.

عرفت الفلسفة السياسية في فرنسا بعد عهد روسو ركوداً كبيراً حتى دخول الهيغلية إلى الجامعة الفرنسية، هذا الركود قد يكون سببه الجو الأكاديمي - الديكارتي / الكانطي - الضاغط، وقد تكون له أسباب أخرى لن نخوض فيها هنا. إلا أن ما يجب الإلحاح عليه هو أنه مع دخول الهيغلية من الأبواب الواسعة للجامعة الفرنسية سينقلب الوضع، وربما الذي سيقبل الوضع هو نفسه أكبر شارح لهيغل: كوجيف.

كان ليو ستراوس Léo Strauss قد دشّن خاصية جديدة للفلسفة السياسية المعاصرة حين توجه نحو القدماء، خصوصاً زينوفان Xénophon ليحلل نظام الطغيان Tyrannie حيث ينقل لنا زينوفان مناقشة بين هيرون Hiéron، طاغية سيراكوس، وسيمونيد Simo-

(22) Alexandre Kojève "Introduction à la lecture de Hegel", nrf. Gallimard 1947. p.465.

(23) Maurice de Candillac, entretiens avec le monde, op. cit.

nide الشاعر، يؤكد فيها على أن الطغيان «هو خطر يظهر في أصل الحياة السياسية نفسها»^(٢٤). ويذهب ستراوس، بناء على هذا الحوار، إلى أنه رغم أن الطغيان الحديث له سماته الخاصة، كاعتياده على «التكنولوجيا» و«الأيديولوجيا»، فإنه في الحقيقة ليس إلا انعكاساً للطغيان القديم. إن ما يريد أن يقوله الحوار هو أنه على عكس الآراء السائدة، فإن الطاغية يظل شقياً، فهرون الطاغية يشتكي لصديقه الحكيم الشاعر سيمونيد كيف أنه يعيش في عزلة تامة وفي خوف مستمر من تأمر ضده أو اغتيال له. وحين ينصحه صديقه بالتخلي عن نظام الطغاة يعترض الطاغية بكون ماضيه لا ينسأه الناس: «إن البؤس الكبير لنظام الطغيان هو أنه لا يمكن التخلي عنه»^(٢٥). ويظل سيمونيد غير قادر على الإجابة عن هذا الاعتراض الوجيه، فالأمر يتعلق حقيقة بأخس النظم السياسية، إذ «يجب التخلي عن الطغيان قبل أن يتم تأسيسه»^(٢٦).

يناقش ألكسندر كوجيف هذا التصور ويدحضه. لا يتعلق الأمر في هذا الحوار إلا بشاعر لا يقيم للأمور وزناً. فالقول بكون الطغيان نظاماً لاشعبيّاً ولا متوراً لا يعني أبداً أنه يجب التخلي عنه مطلقاً، لأن هناك حالات يتطلب فيها تحقيق التقدم وسلامة الدولة إحداث نظام للطغيان، كما حدث في عهد نابليون أو سالزار أو ستالين. إن شقاء الطاغية يأتي لكونه كما اعترف بذلك نieron: «حين يتعب الطاغية من كونه مهاباً فإنه يريد أن يكون محبوباً». في السياسة - وهذا هو خطأ هرون وسيمونيد - لا يتعلق الأمر بالعاطفة ولا بالسعادة، «بل يجب من الأفضل أن نحتفظ بصيغة هيغل الدقيقة». الاعتراف فالرغبة في أن يعترف بنا الآخر هي «المحرك الأخير لكل منافسة بين الناس، ومن ثمة لكل صراع سياسي»^(٢٧).

بهذا إذن يتم خلق فلسفتين سياسيتين متعارضتين، فهناك من جهة أولى، هيغلية كوجيف، حيث الصراع من أجل الاعتراف، الذي يتطور عبر التاريخ وحتى الحل النهائي للدولة الشاملة والمنسجمة، ويبرر حكم الطغاة، بل يستدعي الجرائم ويتطلب من الفيلسوف فهماً عميقاً. وهناك من جهة ثانية، أخلاقية ستراوس، حيث يتم رفض تبريرات نظام الطغيان سواء بالضرورات التاريخية أو تفسيرات العلوم الاجتماعية، سواء

(24) Cité par François Chatelet "Histoire des idées politiques", op. cit. p.266.

(25) Ibid.

(26) Ibid. p.267.

(27) Ibid. p.270.

بتطور العقل أو بأدلة الواقع ، وذلك بإيجاد فلسفة سياسية تمكن ، كما فعل الأقدمون ، من التمييز في الأنظمة بين ما هو صالح وما هو غير صالح .

وتسير الفلسفة السياسية الهيجلية في فرنسا في خط أوسع لتحقيق التصالح مع كانط بعد أن حققته - في فكر كوجيف - مع ماركس . ففي كتاب إريك فيل الشهير «الفلسفة السياسية» (١٩٥٦) نجد أن وجهة نظره في السياسة هي وجهة نظر فلسفية تجدد آفاق الفلسفة السياسية الهيجلية عبر قراءة عميقة لكانط ولما في ماركس من نفحة هيجلية . فالإنسان عنده كائن عاقل - وليس عقلي - يسعى دائماً إلى أن يتم الاعتراف به وإلى الشمولية . ومن ثمة فالسياسة هي : «علم . . الفعل العاقل . انها تتعلق بالفعل الشمولي الذي باعتباره ، نظراً لمصدره التجريدي ، فعلاً للفرد أو للجماعة ، فإنه لا يستهدف الفرد أو الجماعة باعتبارهما كذلك ، بل النوع البشري بأكمله» (٢٨) . فالمشاكل السياسية تنشأ وتتولد عن علاقة الفرد بجماعته التاريخية . لكن ما الذي يحدث لو أن الجماعة التاريخية خالفت مطلب الشمولية ومطلب النوع البشري ؟ . الجواب يعطيه من جديد : سقراط : يجب أن نحاكم السياسة باسم الأخلاق . ومن ثمة فـ «مهمة الفيلسوف المربي هي أن يميز العقل في العالم ، أي أن يحدد بنيات العالم من أجل تحقيق الحرية العاقلة» (٢٩) .

هكذا إذن تفتح الهيجلية أفقاً أوسع للنقاش حول نظام الطغيان . هذا النقاش سيتقاطع مع خطاب آخر ذي مرجعيات خاصة حول التوتاليتارية في السبعينات ، حيث لايزال هذا الخطاب ذو اللونين : طغيان / توتاليتارية مهيمناً على الساحة الثقافية الفرنسية إلى اليوم .

لكن مقابل هذا ستعمل الهيجلية على خنق الفلسفة باسم منطق الهوية . سيعتبر كوجيف المتحدث الرسمي باسم رجل أراد أن يحكم مستقبل الفلسفة وهو يرقد في قبره . يقول كوجيف : «ان خطاب هيجل يستنفذ كل إمكانات الفكر ، فلا يمكننا أن نعارضه بأي خطاب دون أن ينتهي هذا الخطاب إلى أن يشكل جزءاً منه أو أن يعيد صياغة فقره من النسق باعتباره عنصراً مؤسساً «للحظة» من المجموع» (٣٠) - وخير علامة على هذا الغرور الهيجلي ، ما رده إريك فيل من أنه كان ينوي أن «يضع للفلسفة نقطة

(28) Ibid. p.240.

(29) Ibid. p.241.

(30) Alexandre Kojève "introduction à la lecture de Hegel" op. cit. p.467.

النهاية»⁽³¹⁾. والحق انه لا يمكن أن نضع للفلسفة أبداً نقطة نهاية، إذ سرعان ما ستتحول نقطة النهاية إلى نقطة بداية. لقد أصبح مجال الميتافيزيقا الغربية مغلقاً إلا أن الماركسية الفرنسية نفسها ستسير نحو الإنغلاق Cloture.

في الوقت الذي كان فيه ماركس الفيلسوف يبحث على خصوبة قراءة في الظواهر الفكرية والاجتماعية، كان هناك الحزب الشيوعي بأجهزته البروقراطية يمارس نوعاً من منح صكوك الغفران للمثقفين من خلال ثالوثه المثقف الخطير (روجيه غارودي ونظريته المادية «الستالينية» في المعرفة، كآنايا وهجوماته ضد «العلم» «البورجوازي» أراغون ورومنسية «الانتفاء الحزبي الشيوعي»؛ ستنشأ داخل الحزب دعوة قاعدية قوية مثلها الطلبة والمثقفون وشكلت نوعاً من المعارضة الداخلية حاولت تجاوز ما أسماه شاتليه بـ«الإنحسار الفكري» le blocage intellectuel، وهو ما يترجم بالفعل كون أهم أعمال تلك المرحلة ذات المنحى الماركسي مثل «المجموع والبقية» هنري لوفيفر (١٩٥٩)، و«بحوث جدلية» للوسيان غولدمان (١٩٥٩)، و«ماركس مفكر التقنية» لكوستاس أكسلوس (١٩٦١)، و«لونغوس وبراكسيس» لفرانسوا شاتليه (١٩٦٢)، طرحت السؤال الذي طرحه سارتر في كتابه «نقد العقل الجدلي» (١٩٦١): وهو: «ماذا نفعل بالماركسية؟» وهو بالفعل السؤال الذي طرحه لوي التوسير سنة ١٩٦٥ «من أجل ماركس». إلا أن إشكالية مثل هذه الأعمال، وخصوصاً منها «القراءة السبينوزية» التي قام بها التوسير لماركس، رغم خصوبتها وأناقته، لم تخل من إسفاف واضح عندما سعت جادة إلى إضفاء الصبغة العلمية على الماركسية وبالغت في ذلك. لقد أصبحت في بداية الستينات، كلمات مثل «العلم، العلمية، العقلانية التجريبية، الوضعية، هي الكلمات السيدة»⁽³²⁾.

غير أن دخول المثقفين الفرنسيين في دورة «النقد الذاتي» ستسير بالفكر الفرنسي إلى انفتاح كبير. سنقف قليلاً عند دورة النقد الذاتي هذه: يقول هنري لوفيفر وهو يتحدث عن صيرورة فكره «بدخولي في معارضة الإدارة الستالينية للحزب الشيوعي الفرنسي دخلت عالم السياسة. من قبل لم أمارس السياسة أبداً. هذا أمر قد يبدو مدهشاً؟ فيه مفارقة؟ لكن ليس بالنسبة لنا. ليس بالنسبة لي»⁽³³⁾ ترى لماذا غض المثقفون الفرنسيون

(31) Eric Weil. cité par Raymond Aron in "Mémoires" p.732.

(32) François Chatelet "Récit" in l'arc. N°70, p.7.

(33) Henri Lefebvre. "la somme et le reste" op. cit. p.160 T1.

النظر عن أخطاء ستالين؟ لماذا اعتبروا ذلك على حد تعبير ميشيل فوكو «منطقة خطيرة، ضوء أحمر»⁽³⁴⁾. لماذا لم يعترف سارتر مثلاً بالطابع التوتاليتاري للمجتمع السوفياتي تحت ستالين إلا بعد أن مرت على رحلته الأولى إلى بلاد السوفيات أزيد من عشرين سنة؟ يبدو ان ميكنازم تفكير هؤلاء كان يسير وفق منطق تماهي زائف. يوضح أحد منشقي الحزب الشيوعي الفرنسي، عالم الاجتماع ادغار موران، هذا المنطق قائلاً: «كان ستالين يتماهى عندي مع المدينة التي تحمل اسمه. هذه المدينة نفسها كانت تتماهى مع معمل أكتوبر الأحمر ومع عماله وأسلحته، والمعمل كان يتماهى مع ثورة أكتوبر ١٩١٧. وكل هذا مع حرية العالم، مع الانتصار الذي بدأ يتحقق، مع كل آمال المستقبل المشع»⁽³⁵⁾. ولتبرير معسكرات التعذيب كان هناك «الفكر الاستراتيجي»، كان هناك منطق زائف للتاريخ، كان هناك تضخم المعنى، الحلم الوردي للثورة الحمراء: «كنت أراكم كل أحوال الماضي والحاضر لأجعل منها هرمًا لا يظهر معه تكوم الأجساد الستاليني إلا تراكمًا ضئيلاً»⁽³⁶⁾.

حدث إذن مازق، فهناك الحزب الشيوعي بأليته البيروقراطية، وهناك مثقفون متحررون كان عليهم، إما أن يحكموا على أنفسهم بنوع من «التهميش»، كما كان حال جماعة «اشتراكية أم بربرية»، أو أن ينصرفوا إلى دراسات تجريبية. وبالفعل فضلت جماعة مجال «الاثنولوجيا» كلوسيان سيباغ Lucien Sébag وبيير كلاستر Pierre Clastres حاذية في ذلك حذو كلود ليفي ستراوس شيخ الاثنولوجيا الفرنسية. في نفس الوقت طفت على السطح أعمال فيردناند دوسوسير حول اللسان واجتهادات رومان جاكبسون في مجال اللسانيات ودومزيل في حقل الاسطورة وفرانسوا جاكوب في مجال البيولوجيا. وبفضل أعمال هؤلاء سيتم التزحزح المتدرج لتضخم فلسفة التاريخ عند جيل «الأزمة الحديثة»، سارتر وميرلوبونتي.

بدا حقل الاثنولوجيا واعداداً ف«الهجرة إلى البلاد المبحوث عنها هذه كانت ذات صبغة نظرية: كان الأمر يتعلق بالبحث عن وجهة نظر أخرى بالخروج عن تاريخية مملوءة جداً ومقبولة. ولم يكن الأمر يتعلق بالبحث عن مكان آخر ولكن برغبة في اكتشاف وتحليل

(34) Michel Foucault. Dialogues avec M. Fontana "vérité et pouvoir". L'arc N°70 p.17.

(35) Edgard Morin. Autocritique. Paris. Seuil. 152- 153.

(36) Ibid.

قواعد أخرى غير تلك التي كانت تحكم العالم الصناعي»⁽³⁷⁾.

هنا نرصد تحولاً كبيراً في حقل الثقافة الفرنسية، تحول ارتبط باسم كلود ليفي ستراوس. إن الجيل الجديد مدين بإرثه الثقافي إلى كلود ليفي ستراوس أكثر منه إلى سارتر. ورغم أن كلود ليفي ستراوس ينتمي كرونولوجياً إلى جيل سارتر وميرلوبونتي، فإن أعماله سوف لن تفهم وتقدر إلا عند الجيل الجديد. يقول ميشيل فوكو محمداً أرضية ميلاد هذا الجيل: «لقد مرت تلك الحقبة الكبرى من الفلسفة المعاصرة، حقبة سارتر وميرلوبونتي، حيث كان على نص فلسفي، أو نص نظري ما، أن يعطيك في نهاية المطاف معنى الحياة والموت ومعنى الحياة الجنسية ويقول لك هل الله موجود أم لا؟ وما هي الحرية وما ينبغي عمله في الحياة السياسية وكيف تتصرف مع الآخرين، الخ. لقد تكون لدينا انطباع بأنه لم يعد ممكناً اليوم ترويض مثل هذه الفلسفة، وبأن الفلسفة قد تكون في حالة تشتت إن لم تكن قد تبخرت، وبأن ثمة عملاً نظرياً يغلب عليه بشكل أو بآخر طابع التعدد. وهكذا فالنظرية والنشاط الفلسفي يظهران في ميادين مختلفة تبدو وكأنها منفصلة عن بعضها البعض. فهناك نشاط نظري يظهر في مجال ميدان الاسطورة أو في ميدان تاريخ الديانات أو في ميدان التاريخ عامة الخ»⁽³⁸⁾.

إذا كان جيل «الأزمة الحديثة» قد تربى في أحضان الفينومولوجيا فإن الجيل الجديد لم تثر انتباهه. «لقد أظهرت إذن تمردي على الاتجاهات الجديدة للتفكير الميتافيزيقي مثلما بدأت ترسم حينئذ. وقد صدمتني الفينومولوجيا باعتبارها كانت تصدر على استمرارية بين المعيش والواقعي. لقد تعلمت من عشيقاتي الثلاث، وأنا متفق تماماً على الاعتراف بأن الواقعي يشمل المعيش ويفسره، أن الانتقال بين النظامين متقطع وأنه يتوجب علينا لبلوغ الواقعي أن نطرح المعيش قبل ذلك، ولو أدى ذلك إلى دمج من جديد فيما بعد، ضمن تركيب موضوعي مجرد من كل عاطفة»⁽³⁹⁾. يذكرنا كلود ليفي ستراوس بوجود شعوب تدعى «بدائية» ينفر فكرها من التاريخ، على الأقل في تصورنا لتاريخ وقائعي تراكمي تقدمي. هذه الشعوب تفكر قبل كل شيء عبر الاسطورة التي تحكمي تواريخ لازمنية. يتم وصف فكر هذه الشعوب بالبدائية، وهو رمز ونتاج معاً لضعفها وعجزها

(37) François Chatelet "récit". op. cit. p.8.

(38) Michel Foucault, La quinzaine littéraire, N°5, 1966, 18.

ترجمة بيت الحكمة.

(39) Claude Lévi- Strauss "Tristes tropiques". Plon. 1955. p.63-64.

عن استقبال التطورات التكنولوجية . غير أن البحث الإثنولوجي مع كلود ليفي ستراوس يكذب ذلك . ان الأمر يتعلق لا بفكر بدائي (أي غير متحضر) بقَدْو ما يتعلق بفكر متوحش (أي غير مدجن). انه فكر لا يجهل التاريخ ، لا يتعلق الأمر بمجتمعات «ساخنة» تستبطن الصيرورة التاريخية . فالقبول بالتاريخية إذن هو اختيار ايدولوجي . ومن هنا ينتقد كلود ليفي ستراوس ادعاءات التاريخ الشامل L'histoire totale عند سارتر مفضلاً عليها تواريخ جزئية : «بقدر ما يسعى التاريخ إلى أن يصبح ذا دلالة فإنه يحكم عليه بأن يختار مناطق وعصوراً وجماعات من الناس والأفراد ضمن هذه الجماعات وأن يخرجها ، كاشكال منفصلة ، على متصل صالح كي يستخدم كلوحة خلفية»⁽⁴⁰⁾ . خلف التاريخ إذن يجابه كلود ليفي ستراوس فلسفة التاريخ وفلسفة المعنى . وهذا أيضاً ما سيحاوله فوكو في كتاباته الأولى .

إن ما عمل عليه فوكو في هذه المرحلة هو إبراز أن تاريخ المعارف لا يخضع فقط للقانون العام لتقدم العقل البشري ، كما أن الوعي البشري أو العقل الإنساني ليس هو المتحكم في قوانين تاريخه بمعنى ما من المعاني . ان هناك نوعاً من «اللا شعور» يحكم تطور ونمو المعارف ويخضع تاريخ وصيرورة وحلقات وحوادث هذه المعارف إلى عدد معين من القوانين والتحديدات يحاول فوكو الكشف عنها ، ومن ثمة يصطدم بالتاريخ . لذلك فهو أيضاً ينتقد فلسفة التاريخ كما وجدت عند سارتر وميرلوبونتي . «ان التاريخ بالنسبة للفلاسفة هو نوع من الاستمرارية الضخمة العريضة التي تتشابك فيها حرية الأفراد بالتحديدات الاقتصادية والاجتماعية . وما أن يمس المرء بعضاً من هذه الموضوعات الكبرى كالاستمرارية والممارسة الفعلية للحرية الانسانية وتمفصل الحرية الفردية على التحديدات الاجتماعية ، ما أن تمس إحدى هذه الاسطورات الثلاث حتى يصرخ هؤلاء الناس الطيبون متهمينك باغتصاب التاريخ أو اغتياله»⁽⁴¹⁾ . ما يريد أن يقوله فوكو ضد فلاسفة المعنى هو ان التاريخ لا معنى له ، غير ان هذه المقولة تتخذ عنده صبغة خاصة : «ان التاريخ لا «معنى» له ، هذا لا يعني انه عبث أو غير متناسق . انه على العكس من ذلك معقول ويجب أن يحلل حتى في أدق دقائقه : غير أن ذلك يجب أن يتم حسب معقولة الصراعات والاستراتيجيات والتكتيكات»⁽⁴²⁾ . ويخلص ميشيل فوكو بشكل

(40) Claude Lévi- Strauss "la pensée sauvage" Plon. 1962. p.341.

(41) Michel Foucault. La quinzaine littéraire N°5 p.23.

(42) Michel Foucault. Dialogue avec M. Fontana. op. cit. p.19.

جيد أعماله الأساسية قبل ثورة ١٩٦٨ - «تاريخ الجنون» ١٩٦١ ، «مولد الطب العيادي» ١٩٦٣ «الكلمات والأشياء» ١٩٦٦ - فيما يلي : «من التجربة - الحد الآخر إلى الأشكال التكوينية للمعرفة الطبية ، ومن هذه الأشكال إلى نظام الأشياء وإلى فكر الذات ، فإن ما يعرض نفسه على التحليل الأكيولوجي هو المعرفة الكلاسيكية كلها ، أو قبل ذلك ، هو هذه العتبة التي تفصلنا عن الفكر الكلاسيكي وتشكل حدائنا»^(٤٣). هذا الشكل الجديد من التفكير الذي يقطع مع منطق التطابق الكلاسيكي ، وينقذ الفلسفة من تجربة الإنغلاق Clôture الذي انتهت إليه مع هيغل ، معتمداً على نيتشه وهيدغر ، أو على نيتشه كما قرأه هيدغر ، يلتقي فيه على الأقل أولئك الذين أصبحوا اليوم ينعثون في تاريخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة بـ «فلاسفة الاختلاف» : ميشيل فوكو ، جاك دريدا ، جيل دولوز.

يدخل «فكر الاختلاف» في حوار مع الفلسفة الكلاسيكية ، ان ما يأخذه عليها هو إقصاء الآخر والاستحواذ عليه انطولوجياً وسياسياً . يقول جاك دريدا «بتحديدها للوجود كحضور (حضور لذاته على شكل موضوع أو حضور لذاته كصنف للوعي) ، فإن الميتافيزيقا لم يكن لها أن تعالج العلامة إلا كشيء عابر»^(٤٤) ، وينقل جيل دولوز هذه الصورة إلى السياسي وإلى التاريخ : «كان تاريخ الفلسفة دائماً في خدمة السلطة في الفلسفة وحتى في الفكر»^(٤٥) لأن الفلسفة كانت دائماً إذا عرض عليها أن تفكر في المحسوس ، فإنها ستقول عنه بأنه متعدد ومتنوع ، لكنها ستحاول إلغاء تعدده وتنوعه في وحدة معنى يفترض أنها ثابتة . وإذا عرض عليها أن تفكر في المتعدد الاجتماعي فإنها ستؤكد أنه غير منسجم أو على غير مستوى واحد ، وستحاول أن توحيده وتضمه في وحدة الدولة . منطق الفلسفة إذن هو «منطق التطابق» logique de l'indentité سواء تعلق الأمر بتطابق الوعي أو الكوجيطو أو الذات أو الدولة ، كل هذه المقولات مطلقة . غير ان الحلم يشكك في وضوح الوعي (دريدا) ، والفن يدحض التمثيل (دولوز) ، والمنبؤ يضغط على الوحدة السعيدة للدولة (فوكو) .

الفلسفة إذن هي «تقنية لاختزال الفوارق ، وأداة نسقية عجيبة موجهة نحو إلغاء

(43) Michel Foucault "les mots et les choses" nrf. Gallimard 1966 p.15- 16.

(44) Jacques Derrida "marges de la philosophie" éd. de minuit 1972. p.82.

(45) Gilles Deleuze et Parret. Dialogues éd. Minuit p.19.

التعارضات»^(٤٦)، غير أن الفكر الذي اعترف بالتناقضات، الفكر الجدلي، لم يسلم نفسه من هيمنة ميتافيزيقا التطابق. فلقد احتفظ بالتطابق (أهواء) وجعل الاختلاف (الآخريّة L'altérité) تابعاً له. انه أكد على «تطابق التطابق والاختلاف» (هيجل). يقول دولوز: «ان الاختلاف لا يتضمن السالب ولا يتم جره إلى التناقض إلا بقدر ما تركه يشكل تابعاً للمتطابق»^(٤٧) وكما واجه كلود ليفي ستراوس فلسفة التاريخ، فإن «فكر الاختلاف» أيضاً سيُعتبر فلسفة التاريخ فلسفة للدولة وللوحدة. انها تبرير للتوتاليتارية وإقصاء للمنشق. يقول ميشيل فوكو: «ان تاريخ الجنون سيكون تاريخ الآخر - تاريخ كل ما يعتبر بالنسبة لثقافة ما داخلياً وغريباً، إذن يجب إقصاؤه (لتجنب خطره الداخلي) ولكن عن طريق حجزه (للحد من آخريته)، في حين سيكون تاريخ نظام الأشياء تاريخ الذات du même تاريخ كل ما يشكل بالنسبة لثقافة ما شيئاً مشتتاً وتابعاً، وهو ما يجب إذن تمييزه بإشارات وجمعه في تطابقات»^(٤٨) هذا الآخر قد يكون كتابة (دريدا) أو رغبة (دولوز) أو حمقى (فوكو). إنه «الانسياب اللانهائي للخارج» (بلانشو). هل يمكن بهذا المعنى إذن أن نتجاوز حد السياج - الانغلاق؟ أن نمارس فلسفة ما؟ مع «فكر الاختلاف» ستطور الفلسفة عبر هوامشها عبر «تضبيب الخط الذي يفصل بين نص وهامشه» (دريدا)، أو: «جعل دور تاريخ الفلسفة مشابهاً لعملية التلصيق في الفن التشكيلي» (دولوز)، أو «أن نتحدث في لغة الذات عن قيمة الآخر» (فوكو).

كان «فكر الاختلاف» في أوانه يبدو غريباً فلم يتم الانتباه إليه. يقول ميشيل فوكو: «إن ما حاولت أن أقوم به في هذا الميدان من جانبي استقبل بصمت كبير في أوساط اليسار الفرنسي المثقف. وانه فقط حوالي ٦٨، وبالرغم من التقليد الماركسي وضد الحزب الشيوعي أخذت هذه الأسئلة دلالتها السياسية»^(٤٩). نحن على أعتاب ثورة ٦٨ إذن.

(46) Frédéric Darmau et Pierre- Yves Mate "promotion de la différence". raison présente N°79 p.46.

(47) Gilles Deleuze "différence et répétition". PUF 1966 p.1.

(48) Michel Foucault "les mots et les choses" op. cit. p.15.

(49) Michel Foucault "vérité et pouvoir" op. cit. p.17.

الفصل الخامس

ثورة ماي ٦٨. الحدث والدلالة

"1968, fut un raz de marée de Paroles, les Français ont prononcé alors toutes les paroles imprononcées qu'ils tenaient enfermées dans la cage de leur for intérieur".

Vladimir Jankélévitch

جاء في التقرير السنوي للحكومة الفرنسية المتعلق بالشباب «الكتاب الأبيض حول الشباب» ماي ١٩٦٧: «إن الشاب الفرنسي يفكر في الزواج مبكراً... وهدفه الأول والأسمى هو النجاح المهني. لهذا ففي انتظار تحقيق هذا يعمد، إذا كان شاباً، إلى الادخار ليشترى سيارة، وإذا كانت شابة، تدخر لشراء جهاز عروس... إنه يهتم بكل المشاكل الكبرى في الحاضر، ولكنه لا يطالب بالدخول إلى الحياة السياسية مبكراً - ٧٢٪ من الشباب يعتقدون انه لا يجب تخفيض حق التصويت إلى أقل من ٢١ سنة - إن الشاب الفرنسي لا يفكر في الحرب المقبلة ويعتقد أن المستقبل رهين بالفعالية الصناعية خصوصاً وبالنظام الداخلي والتحام السكان»^(١). يذكرنا هذا التصريح الهادئ - بالمقارنة مع الثورة الجارفة التي حدثته وراءه بشهور فقط - بتلك التصريحات «الغافلة» التي بمجرد أن أدلى بها أصحابها تحقق عكسها تماماً، كتصريح الرئيس الأمريكي هوفر - وأمريكا على حافة هاوية أخطر أزمة عرفها العالم الرأسمالي ١٩٢٩ - «إن الاقتصاد الأمريكي بخير»، أو تصريح العالم بوانكريه - والعلم آنذاك مقبل على أخطر أزمة في تاريخه - «الآن بلغنا الدقة المطلوبة». ذلك انه بعد هذا التقرير الحكومي الرسمي سيأتي الطوفان، ثورة ماي ٦٨ الطلابية، أعنف وأكبر ثورة طلابية اجتماعية عرفها العالم الصناعي المتمدن. لا يتعلق الأمر في هذا الفصل بإعادة بناء الحدث في تفاصيله وحيثياته، ولا بنقل المواقف

(1) Cité par Hervé Hamon et Patrick Rotman in "génération". T1, "les années de rêve" Seuil, mars 1987 p.401.

المؤيدة أو المعارضه له. ان ما سنعمل عليه هنا هو «اقتناص» ما يفيدنا في التمهيد لإشكالياتنا: المثقف والسلطة، الحدث وتأويله، نموذج «الفلاسفة الجدد». والسؤال الذي سيراقتنا، بل سيوجهنا، طيلة هذا العرض هو: كيف يصبح الحديث عن فكر ٦٨ أمراً ممكناً؟. ذلك انه لوحظ مؤخراً رجوع قوي إلى الحديث عما سمي جزافاً بـ«فكر ٦٨»، حيث تم وضع مفكرين ذوي اهتمامات متباعدة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى في سلة واحدة بدعوى انهم يشتركون في المناداة بـ«موت الانسان» وانهم ملهمو هذا الفكر. والواقع انه حتى لو سلمنا بانتفاء مفكرين كالتوسير وفوكو إلى هذا الفضاء، فإننا لا نرى كيف يمكن إقحام كلود ليفي ستراوس في خانة «فكر ٦٨» وهو الذي ظل باستمرار يناصب العداء لهذه الثورة، بل كيف يمكن اعتبار ثورة ٦٨ حاملة «لنزعة معادية للدعوة الانسانية» ولدعوة إلى «موت الانسان» في حين ان التباسات هذه «الدعوة» لا تخفى على باحث! . لذلك سنركز هنا على «فكر ٦٨» كما تشكل داخل جدران الجامعات الفرنسية وضمن المناشير والبيانات التي حملت بذوره، لا كما من المفترض أن يكون قد تشكل داخل «ذهن» مفكرين يصعب جمعهم في كفة واحدة.

لا يمكن في رأينا الحديث عن «فكر ٦٨» إلا عبر ثلاث قنوات سنفصل الحديث عنها في هذا العرض.

كيف يصبح الحديث عن «فكر ٦٨» أمراً ممكناً؟

إن ما سنحاوله أولاً هو تقديم «قراءة» لهذا الفكر و«دمه يتقاطر». قراءته في عفويته، في صفاء الفكرة واختلاط مضمونها، في أخطائه التعبيرية النحوية والاملائية، في انسياباته وانقطاعاته، قراءته في . . شذراته، سنجول من خلال هذه «القراءة» عبر جدران أهم الجامعات الفرنسية لنقرأ ما كتب وما لم يكتب على هذه الجدران فنعيد «بناء» ، سنتخذ الجدران كنص، لكن كنص مفتوح تعددت الأيدي التي كتبه . فـ«فكر ٦٨» فكر كتبه أيادي متعددة، أكثر من يدين على أقل تقدير. لا يتعلق الأمر بكتابة حائطية تدعي «موت المؤلف»، إذ يجب دائماً أن نتذكر أن ما حدث في «١٩٦٨»: كان ثورة فكرية لـ«نحن ضد البنية، لسارتر ضد ليفي ستراوس، للبراكسيس» ضد المؤسسات، «لليسارية» ضد الحزب الشيوعي»^(٢) غير ان هذا لا يعني مطلقاً - عكس ما توحى به قولة ريمون آرون هذه - ان ثورة ماي ٦٨ قد حققت «انتقاماً» لمفكر ضد آخر أو أنها، في كل ما

(2) Raymond Aron Mémoires. op. cit. p.482.

نادت به، أعادت استنساخ أفكار جماعة أو مذهب. لا يمكن أن نفهم ثورة ماي ٦٨ إلا في استقلالها، لا في بحث مستحيل عن «الأسماء التي تقف خلفها» عبر مزج mixage نصوص غائبة أو تناص مقترض. قد نجد في ماي ٦٨ تناصاً دينامياً أو استشهادات واقتباسات عفوية، ولكن التناص هنا يوظف لصالح الحدث والممارسة بقدر ما آمنت بها ثورة ماي. ربما قد يعود ذلك إلى أنها كانت تؤمن في قرارة نفسها بأنها كانت عاجزة عن تحقيق «البراكسيس»، ولكن هذا كان لا يهمها بقدر ما كان يهمها «صنع الحدث» وعبادته. لذلك فنحن حين نصف بيانات ماي ٦٨ بـ: «السوريالية» أو «الفوضوية» أو «الماركسية»، حين ننسبها إلى مذهب بعينه، فهذه ليست إلا طريقة استعارية في الكلام. إن أول ما يطالنا عبر هذه الكتابات الحائطية هو الإقرار الأولي بأن «الجدران تتكلم»، فالجدار هنا لم يصبح رمزاً لسيادة المؤسسة الثقافية الجامعية. ليس سباجاً اسميتياً يحفظ الجامعة من غارات الفكر المنحرف أو المتوحش. إنه أشبه ما يكون بورش فنان حيث ألوان الكتابات - الشذرات تتقاطع وتتراس. لم تشهد جدران ما عبر التاريخ من تراص أسماء فكرية متنافرة أحياناً بقدر ما شهدته جدران السوربون في «حفلة» ماي ٦٨ حيث تم تحقيق «تصالحات» فكرية لم تكن ممكنة عند أصحابها: ماركس بؤس الفلسفة إلى جانب برودون فلسفة البؤس، باكونين الفوضوي إلى جانب لينين التنظيمي، كان التنافر أحياناً (سان أوغسطين، سان جوست)، يغطي الانسجام (اندرية بريتون، رونية شار). كل ذلك في ملحمة هذيانات بدون توقف.

«الجدران تتكلم» فلنستمع إذن ولنصغ. لكن باسم من تتحدث هذه الجدران؟⁽³⁾.

«هنا نحن عفوية»، باسم عفوية الجماعة، باسم انكسار الصوت الواحد، باسم التعدد، باسم الاختلاف. إن أول قيمة لشذرات ثورة ٦٨ كونها «بيانات اختلافية»: اختلافية ثورة ٦٨ في مجابهة سلطة «ديغولية»، اختلافية ثورة ٦٨ في مجابهة «جامعة بورجوازية»، اختلافية ثورة ٦٨ في مواجهة حدائة «بوليسية»، اختلافية ثورة ٦٨ في مواجهة نخبة أساتذة «رجعية»، جماعة يسارية «انتهازية». الاختلافية هنا ليست اختلافية شاعرية غرائبية، اختلافية مونتيكيو أو بعض المستشرقين أو الاثنولوجيين، فليسقط الاستشراق العجائي الجديد. إن الاختلاف هنا هو قبل كل شيء رفض لمصير

(3) Julien Besançon "les murs ont la parole, journal mural, Mai 68", Claude Tchou édition 1968.

خلقته الحضارة المادية الصناعية وبشكل أعمى، انه رفض لحدائته أبدعها «عقل بوليسي»، «ليست حدثتنا إلا تحديثاً للبوليس». يدخل فكر ٦٨ في حوار اختلافي مع الحدائته المفروضة من أعلى، حيث تقمع الحياة والرغبات والعواطف ويفتح المجال لحدائته «بوليسية». ومن ثمة تحدّد ثورة ماي ٦٨ «لائحة» من «أعداء الثورة» تواجههم بلا هوادة: ضد الرأسمالية، ضد البيروقراطية، ضد مثقفي اليسارية. هذه المواجهة تأخذ طابع كتابة حائطية معادية توحى بالعملية «الاستدلالية» التالية: «لا يمكن للإنسانية أن تعيش حرة إلا حين يشنق آخر رأسمالي بمصارين آخر بيروقراطي»، «ولن تصبح الإنسانية سعيدة إلا حين يشنق آخر رأسمالي بمصارين آخر يساري»، فإذن: «حين يشنق آخر علماء الاجتماع بمصارين آخر بيروقراطي فهل ستكون لدينا بعد ذلك مشاكل؟».

الرأسمالي، البيروقراطي، اليساري، عالم الاجتماع - الأستاذ: هذه هي الوجوه العارية لحدائته بوليسية، والمعرفة هي سلطة هذه الحدائته، وحامل المعرفة هو الأستاذ «أيها الأساتذة ان شيوختكم توازي شيوخة ثقافتكم. ان حدثتكم ليست إلا تحديثاً للبوليس». ومن التماذج التي انصب عليها حق الطلبة: ادغار موران، ألآن تورين، هنري لوفيفر. «أيها الإله، أنا أتهمك بكونك مثقفاً يسارياً».

لقد استهدفت ثورة ماي ٦٨ الحدائته الغربية وتوابعها، وكانت وسيلة هذا الاستهداف هي الاغتصاب. فبيانات ٦٨ هي بيانات اغتصابية المتاريس les barricades هي رمز لاغتصاب الجامعة زهر الحضارة الأوليغارشية، واغتصاب الجامعة اقتضى اغتصاب جدرانها، «الجدار يسبح في مجده الخاص» كما يتلذذ الطالب بفعل مضاجعته للجامعة. اللغة نفسها يجب اغتصابها، «اللغة قسر اجتماعي»، واغتصابها يتم عن طريق اغتصاب قواعدها. لم تمتلئ جدران بأخطاء لغوية وإملائية ونحوية بقدر ما امتلأت جدران ماي ٦٨. والخطاب أيضاً يجب اغتصابه، «كل خطاب هو لاثوري»، أو كما قال بارث فيما بعد: «كل خطاب هو فاشستي»، وذلك لأن «من يتحدث عن الحب يحطمه». والكتابة أيضاً يجب اغتصابها، فهي أولاً أصبحت على الهامش، هامش الدروس، هامش المقرر، على الحائط وبهذا يمكن اعتبار الكتابة الحائطية في ماي ٦٨ تعليقاً على دروس الأساتذة les mandarins ثم ثانياً لم تصبح أمراً ضرورياً «ليس لي ما أكتبه». هذا الاغتصاب، علاوة على طابعه الرمزي، يكتسي بعداً آخر هو البعد التخيلي، فبيانات ٦٨ هي بيانات من أجل توسيع أفق المتخيل l'imaginaire: «الخيال يأخذ السلطة»،

فسلطة الخيال أولاً هي ضد سلطة الواقع، ان الحزب كشكل تنظيمي يمكن أن يكون أداة بيروقراطية «لا للتوتاليتارية». ان أفق المتخيل لم يصبح أفق تنظيم الحزب، بل أصبح أفق المجالس العالية والديمقراطية المباشرة، «السلطة للمجالس العمالية»، نريد الديمقراطية المباشرة». لم تقس ثورة ماي ٦٨ على رجال السياسة الفرنسيين بقدر ما قست على اليساريين وأكثر من قسوتها على الجنرال ديغول.

حين يأخذ الخيال السلطة يرسم في الفضاء إشارات لما يحققه، «الحلم حقيقة»، وكان بيانات ٦٨ هي بيانات سوربالية، «الحلم حقيقة»، «الحب يأخذ السلطة»، «الحركة ليست رد فعل، انها فعل خلاق»، «اعلن حالة السعادة الدائمة»، «انسوا كل ما تعلمتموه، ابدأوا بالحلم» «لتسقط الواقعة الاشتراكية ولتحيا السوربالية». . مثل هذه الشعارات «السوربالية» لا تكتفي بنفسها بل هي تستدعي استشهادات سوربالية متعددة: رينيه شار، اندريه بريتون، لوي أرغون.

عنف الحلم، عنف المتخيل، عنف الاغتصاب: تلك أهم ملامح ثورة ماي ٦٨. فما الذي كانت تريد أن تحققة هذه الثورة ولو على صعيد المتخيل؟. يلخص هذا الشعار بشكل جيد مطالب ماي ٦٨: «إبداعية، عفوية، حياة». الإبداعية هي عملية خلق مستمرة، هي سيلان إبداع. والعفوية هي عفوية خلق مستمر، هي عفوية إبداع، والحياة هي خلق عفوية دائمة، هي سيلان حياة إبداع. لذلك «يجيا هرقليطس، وليسقط بارمنيدس»، فاسم هرقليطس يتردد في أماكن متعددة من الجدران، «الصراع أبو الأشياء» «الفكر الذي يظل ثابتاً يتعفن». وهذا ما يفسر أيضاً «التحامل على سلطة البنية»، «لا يمكن إعادة التجصيص فالبنية فاسدة»، «لا نريد أن يكون الانسان في خدمة البنيات، نريد أن تكون البنية في خدمة الانسان».

عنف المتخيل إذن هو مجال ثورة ماي ٦٨، «العفوية والابداعية والحياة هما فضاءاتها الامكانية. ليس أعدى عند طلبة ماي ٦٨ من خنوع الواقعي، لأن الواقعي هو وليد حادثة بوليسية، أما فضاء ماي ٦٨ فهو فضاء الإمكان أو لنقل الاستحالة، فضاء المبالغة: «المبالغة بداية الإبداع»، «لنكن واقعيين، لنطلب المستحيل»، فضاء تحقيق الرغبة. ماي ٦٨ هو تحقيق لانفجار الرغبة، هناك «استدلال» من طبيعة: «كل أولئك الذين يعتبرون رغباتهم كواقع هم أولئك الذين يؤمنون بواقع رغباتهم» و«اعتبر رغباتي واقعا لأنني أؤمن بالواقع»، إذن «رغباتي هي الواقع»، هذه الفلسفة في الرغبة ترتبط بالتححر «ان تحرير الانسان إما أن يكون شاملاً أو لا يكون»، «تحرروا من السوربون»،

«لا تحرروني إني أتكلف بذلك لوحدي»، وذلك لأن «الطبيعة لم تخلق عبداً ولا أسياداً، لا أريد أن أسن قوانين ولا أن أخضع لها». وهذا التحرر يرتبط بالتحطيم، ذلك أن «الرغبة في التحطيم هي إيمان خلاق» كما يقول باكونين، ف«لنحطم الجامعة» والرغبة في التحطيم هي رغبة في الثورة: «أحبك يا ثورة»، «لا يمكن التصديق بالثورة لأنها حقيقية»، «الجدّة ثورية والحقيقة أيضاً»^١. والرغبة في الثورة هي رغبة في الحياة. شذرات ماي ٦٨ تعادي كل ما هو ضد الحياة، حتى الموت «الموت هو بالضرورة معاد للثورة»، حتى الثقافة «الثقافة هي الحياة مقلوبة»، والديغولية «الديغولية هي نقيض الحياة». . . بيانات ٦٨ تدعي أحياناً الانتساب إلى باكونين، إلى الفوضوية، «الفوضى هي أنا»، يقول البيان للكنائس كيفما كان نوعها «كفى»، ويقول عن المقدس «المقدس هو العدو»، يقول للسلطة «ممنوع المنع»، فلا «أستاذ ولا إله، الإله هو أنا»، و«الامتحانات = عبودية، ترقية اجتماعية، مجتمع تراتبي»، و«لنحرق البضاعة»، و«ليسقط مجتمع الفرجة - البضاعة»، وحتى «لا نستهلك ماركس» يجب أن نعرف أن «الدولة هي كل واحد منا» وأن «بداخلنا شرطي يرقد»، لذلك «العدمية يجب أن تبتدىء من نفسها» و«الثورة تبدأ بتشكيك فلنشكك في أنفسنا أولاً». لكن إلى متى ستنتهي هذه الثورة؟، «إننا لم نعمل إلا تمرداً ضمن ثورتنا»، «لا يتعلق الأمر يا سيدي بثورة، انها قفزة»، «هناك في فرنسا ٣٨٠٠٠ كومونة، نحن الآن في الثانية»، أخيراً «ليس لدي ما أقوله»، لأنني «لا أحب أن أكتب على الجدران» وحتى لو أمكن ذلك «ليس لدي الوقت الكافي للكتابة» لأنني أعيش في «المدينة التي أميرها . . طالب»^(٣).

كيف يمكن من جديد الحديث عن «فكر ٦٨» في «المدينة التي أميرها . . طالب»؟ هناك إمكانية أخرى للحديث عن «فكر ٦٨»، فعقوبة الكتابة الحائطية كانت مجرد نبراس لمن يريد أن يحفر في الجذور الفكرية لثورة ٦٨، لذلك فهي كانت ككهف أفلاطون تخفي حقائق أخرى بقدر ما كانت تعكس أشباحها. هذه الحقائق المخفاة قد نجد جزءاً منها في كتاب حاول جمع شتات كل البيانات والمناشير التي أصدرتها الثورة، ويتعلق الأمر بكتاب «أفكار ماي»^(٤)، الذي سنعمده للوقوف عند أهم دلالات هذا الحدث. سنقف أولاً، لاستكمال الحديث عن «فكر ٦٨»، عند أهم البيانات الصادرة عن ثورة ماي ٦٨. جاء في بيان ٢٢ مارس الذي أدى إلى انفجار الثورة: «إن الجامعة الفرنسية في سنة ١٩٦٨

(3) Ibid. جميع الاستشهادات مأخوذة من الكتاب المذكور.

(4) Sylvain Zegol: "les idées de mai". Coll idées. nrf. Gallimard 1968.

بسعيها إلى الاندماج الكامل في نظام الانتاج الرأسمالي أصبحت جامعة طبقية . ويجب أن نلاحظ انه إذا كان التعارض الاجتماعي ، في النظام الفيودالي ، مرتبطاً بالدم والولادة ، وكان في القرن التاسع عشر بين أرباب العمل والعمال ، فإنه اليوم أصبح تعارضاً بين من يعرف ومن لا يعرف وخلق بذلك سلطة للأول على الثاني»⁽⁵⁾ . ويضيف البيان موضحاً بأن العلم أصبح قابلاً للتوجيه إلى أغراض إيديولوجية معينة ، وأن «مستقبل الطلبة أصبح إذن مستقبل «كلاب حراسة» ، حملة الايديولوجية البورجوازية» ، غير أنه بالنسبة لبعض الطلبة لم تلعب اللعبة بأكملها ، فهناك «إمكانية نقد» ، إلا أنها محدودة لأنه «لا يمكن خلق جزيرة اشتراكية داخل مجتمع رأسمالي ، وأنه على أية حال يبقى العمال وليس الطلبة هم القوة المحركة لعملية تغيير المجتمع»⁽⁶⁾ . غير ان الاحساس بحدود العمل الطلابي هو في نفس الوقت تحديد لواقعيته وأهم شيء يمكن القيام به هو إحداث جامعة نقدية أو ناقدة université critique هذه الجامعة الناقدة يحدد البيان ما ستكون عليه : «نوعان من الدروس يشكّلان برنامج الجامعة النقدية : دروس موازية لدروس الجامعة ، غير أنها دروس لنقد الايديولوجيا (دروس مضادة) ، ودروس متعلقة بـ«العلاقة بين الممارسة والنظرية»⁽⁷⁾ مستوحية بذلك تجربة الطلبة الألمان . لذلك ، سيسعى الطلبة منذ البداية إلى تحقيق هدفين : ١- الاتصال المستمر بالعمال ٢- احتلال الجامعة . ففي عملية الاتصال بالعمال كانت هناك صعوبات كبرى ، لقد اصطدم الطلبة بـ«الآلية البيروقراطية» لل نقابات العمالية اليسارية وللحزب الشيوعي الذي اعتبر حركات الطلبة «جماعات غريبة عن الأوساط العمالية» ، واتهمها بكونها «تريد خدمة أرباب العمل» .

وفي يوم الثالث عشر من شهر ماي ٦٨ يصدر بيان موضح : «إن الثورة التي ابتدأت الآن تريد أن تضع موضع سؤال ليس فقط المجتمع الرأسمالي ولكن أيضاً الحضارة الصناعية . على مجتمع الاستهلاك أن يفنى بموت عنيف . على مجتمع الاستلاب أن يفنى بموت عنيف . نريد عالماً جديداً وأصيلاً»⁽⁸⁾ . وتبدو السوربون خلف المتاريس «مدينة أميرها . . طالب» ، حيث تتحول الجدران إلى شذرات والقاعات إلى مجالات للمناقشة . تتشكل «لجنة للاحتلال» و«جمعية عامة» . تقول هذه اللجنة في بيانها : «سواء كنت جامعياً أم لا ، كل واحد يمكنه أن يناقش مع أي كان . غير ان التنسيق مع لجنة الاحتلال

(5) Ibid p.33.

(7) Ibid p.35.

(6) Ibid p.34.

(8) Ibid p.62.

والجمعية العامة يمكن من توسيع الحوار. . إذا كانت الموضوعات المطروحة للنقاش غير مناسبة لكم، نظموا أنتم أنفسكم نقاشاً، وذلك باتباع الخطوات التالية:

أ- إبحثوا عن قاعة فارغة.

ب- ضعوا على بابها ورقة توضح موضوع المناقشة.

ج- قوموا بإعلام لجنة احتلال السوربون. . وحددوا مكان الاجتماع، الموضوع والساعة التي تبدأ فيها المناقشة، لكي تتمكن من الإجابة عن تساؤلات المعنيين.

د- حرروا بياناً يمكنكم أن تنشروه في السوربون»^(٩).

بالفعل لم يتبادل الفرنسيون الكلمات والأقوال قدر ما تبادلوه في ماي ٦٨، وإبان قضية دريفوس. فلقد كانت ثورة ماي ٦٨ - كما لاحظ ذلك جيداً الفيلسوف الفرنسي جانكلفيتش - موجة عارمة من تبادل الكلمات بين الفرنسيين. يصف أحد أولئك الذين عاينوا الحدث السوربون آنذاك متحدثاً عن جو «الديمقراطية الثقافية»: «هنا يتم تحضير إصلاح للجامعة، وهناك يتم وضع استراتيجية للثورة، وفي مكان آخر تتم دراسة تحولات الثقافة، كل الثقافات»^(١٠). وبقدر ما كان الطلبة آنذاك يتفقون حول فلسفة التبادل الحواري للأقوال هذه، بقدر ما كانوا يختلفون في تحديد أهداف ووسائل «ثورتهم»، فـ«بمجرد ما يتعلق الأمر بتحديد أهداف ووسائل «ثورتهم» بمصطلحات دقيقة واضحة، حتى يدخل الطلبة في مناقشات بيزنطية مضطربة وبلا نهاية. في حين أن الأمر في مستوى الحركة كان واضحاً وقد بدا إتحاداً بديهي تقريباً في شأنها»^(١١). غير أن ما كان يشد في التبادل الحر للكلمات في سوق الأقوال هذه التي خلقتها ثورة ماي ٦٨، هو تعامل هذه الثورة مع المؤسسات الاجتماعية السائدة. هنا تكمن أصالة ثورة ماي ٦٨ وتكمن أيضاً مفارقاتها الصعبة. أن ما يثير الانتباه بالفعل في ثورة ماي ٦٨ هو حضور «خطاب قاتل»، خطاب أعلن موت الكثير من القداست بل أعلن موته. سنقف هنا عند «خطاب الموت» هذا الذي نعتقد أنه لا يمكن فهمه إلا في إطار خطابات ترسخت في الساحة الثقافية الفرنسية منذ الستينات، وأعني بذلك الخطاب حول «موت الانسان»، «موت المؤلف». . والذي ربما يجد أصله في خطاب «موت الإله». ما أكدت عليه بعض بلاغات ماي ٦٨ هو «موت الطالب نفسه»، يقول أحد هذه البلاغات «ليس هناك

(9) Ibid p.63- 64.

(10) Ibid p.66.

(11) Michel Legris "Dada et Marx à la Sorbonne". LE MONDE. 18 mai 1968. p.4.

مطلقاً مشكل طلاي، ان مفهوم الطالب أصبح مفهوماً رثاً. . نلغ أنفسنا كمسّرين مستقبلاً، ولنصبح عمالاً^(١٢). غير ان هذا البلاغ ما يفتأ يؤكد على «موت العامل» نفسه: «لقد أصبح الطالب بروليتاري البورجوازية وأصبح العامل «بورجوازي» العالم الثالث^(١٣). غير انه في «موت العامل» هناك «موت الأب» و«موت الأم» و«موت الأسرة»: إن الأسرة نفسها أسطورة حية داخلها لا يمكن أن يوجد أي استقلال حقيقي «إن الأسرة هي الاستلاب نفسه لأنها (١) بؤرة التميز الوظيفي للأشخاص (٢) بؤرة تراتبية الوظائف. وكل تربية جنسية ناتجة عن الآباء تسقط بالضرورة في هذا الرسم المستلب^(١٤). ويقدر ما يتم انتقاد الأسرة بقدر ما يتم التركيز على «الجسد»، ماي ٦٨ هو أيضاً خلق «لفلسفة الجسد»، يقول هذا البلاغ: «ما يتم تباده في الحياة الجنسية ليس هو اللذة أساساً بل الجسد^(١٥). ويؤكد في مكان آخر: «يجب علينا أن نتحدث عن الجسد وعن علاقة الأشياء بالجسد^(١٦)»، غير ان هذا الحديث لن يكون حديثاً «ثقافياً» لأن «الثقافة ماتت»، وماتت بالذات لكون «الثقافة هي نقيض الحياة»، تماماً كالحداثة البوليسية واليسارية والدبغولية. ولن يكون الحديث عن الجسد حديثاً «فنياً»، ذلك لأن «الفن مات»، وغودار لن يستطيع انقاذه، مات لأنه «نزل إلى الطرقات»، «الفن هو أنتم».

يصعب الحديث إذن عن «فكر ٦٨» بصيغة المفرد، ذلك ان أفكار ٦٨ تنفلت من بين قبضة الأصابع كالماء، فهناك أفكار حول السلطة وحول الثقافة والفن والجنس والجسد. . . هذه الأفكار لا يمكن أن نقف خلفها عن «ذات» منسجمة. فكل حديث عن «فكر ٦٨» هو مغامرة.

كيف يمكن الحديث عن «فكرة ٦٨» إذن؟

«إن الثورة البرجوازية كانت حقوقية والثورة البروليتارية كانت اقتصادية، أما ثورتنا فهي ثورة اجتماعية وثقافية تمكن الإنسان من أن يصبح إنساناً وألا يكتفي باعتناق أيديولوجيا أبوية أو انسانية^(١٧). لقد طرح كثيراً السؤال: من يقف خلف هذه الثورة؟ واختلف الباحثون حول تحديد هذا التيار الفكري الموجه. ربما يعود هذا الاختلاف بين

(12) Sylvain Zegel: "les idées de mai". op. cit. p.91.

(13) Ibid p.92.

(14) Ibid p.98.

(15) Ibid p.103.

(16) Ibid.

(17) Ibid p.95.

الباحثين إلى اختلاف آخر أعمق يتعلق بالاختلاف حول قراءة هذه الثورة، فهي عند البعض «ثورة تم اجهاضها» (اليساريون)، وهي عند البعض الآخر «مواجهة اجتماعية» (الحزب الشيوعي)، وعند آخرين «إنفجار ثقافي» (علماء الاجتماع)، وعند آخرين أزمة «مجمع محاصر» (جريدة لوموند)، بل هي عند آخرين «نسيم الروح» (موريس كلافليل)، وعند جماعة «أكبر إضراب في تاريخ الرأسمالية» (التوسير) . . . غير أننا سنقف هنا عبر نصوص أساسية عند أهم القراءات التي قدمت حول ماي ٦٨ .

من أبرز القراءات التي قدمت حول ماي ٦٨ القراءة التي جاءت في كتاب ذي عنوان موح لصاحبه الآن تورين: «حركة ماي أو الشيوعية الطوباوية» (١٩٦٨)، ويمكن أن نلخص مضمون هذه القراءة في النص الأساسي التالي: «رغم تعارض المواقف، فإن التحليل يظل واحداً، فسواء أعجبنا بالتححر المفاجيء لقوى وحاجات كانت مقموعة من طرف الحضارة التقنية والمجتمع الرأسمالي، أو سخطنا على التصرف المخالف للعقل وانعدام روح المسؤولية اللذين احتقرا حاجات الاقتصاد والحياة الثقافية، في كلتي الحالتين تبدو الأزمة كعلامة على اصطدام مجتمع بالأشياء التي يقمعها والتي يعتبرها البعض بليدة والبعض الآخر رائعة. وبما أن الحركة، خصوصاً منها الطلابية، أعلنت بنفسها في تجمعاتها وعلى جدران الكليات عن إرادة في إحداث القطيعة ولم يكن لها لا برنامج ولا تنظيم، فإن هذا نفسه هو ما جعلها تجذب البعض إليها وجعل البعض الآخر يدينها»^(١٨)، والآن تورين يرفض هذا الإعجاب وهذه الإدانة معاً، فالأمر في ثورة ماي ٦٨ لا يتعلق في رأيه برفض للمجتمع الصناعي وثقافته وإنما بإبراز تناقضاته وصراعاته الاجتماعية الجديدة التي كانت توجد في أحشائه. ان ماي ٦٨ حركة جابهت المظاهر التقليدية في المجتمع الفرنسي ومظاهره التكنوقراطية السائرة في طريق النشوء. ومن ثمة فهذه الحركة إدانة لليوطوبيا السائدة «يوطوبيا أسياذ المجتمع التي تعتبر أن حل كل المشاكل يمر عبر قناة التحديث والضبط والادماج». ويخلص إلى القول بأن «حركة ماي ٦٨ خلقت إذن، في نفس الوقت الذي أنشأت فيه قوة مجابهة للطبقة المسيطرة، يوطوبيا مضادة تحررية ومعادية للسلطوية، جماعية وعفوية معاً»^(١٩).

هناك قراءة أخرى قد تكون مكملة لهذا الجانب «الطوباوي» الذي تحدث عنه الآن

(18) Alain Touraine "le mouvement de Mai ou le communisme utopique" édit. du seuil 1968 p.9.

(19) Ibid p.11.

تورين وهي قراءة عالم الاجتماع الفرنسي ادغار موران . يتحدث موران عن ثورة ماي ٦٨ باعتبارها «كومونة شباب» وهو يقف عند قراءتين لهذه «الكومونة»: الأولى رسمية تعتبرها احتجاجاً ضد السلطة المتآكلة الشبه إقطاعية لمجتمع الأساتذة، وتجد الحل في الضبط والتحديث، والثانية تعتبرها احتجاجاً على الحياة البورجوازية باعتبارها حياة «متمسكة»، «ردئية»، و«قمعية»، وهو يعتقد بأن هذه الثورة كانت أساساً: «نوعاً من ١٧٨٩ اجتماعية - شبابية تحقق الهجمة التي لم تكن ممكنة إلا بمساعدة المفاهيم الماركسية التي تبرر وتوجه العدوانية، كما تخصب الحركة وتعطي اتساقاً ايديولوجياً لغليان لازال يبحث عن شكله وعن اسمه»^(٢٠). ومن ثمة يصفها بأنها «ثورة بدون وجه» إنها «لعبة - كرمس»، «لعبة - حرب عصابات»، «لعبة - كوكبية»، «لعبة - استراتيجية»^(٢١). لكن هذه الأوصاف لا تحمل في نفسها دلالة قدحية، فثورة ماي ٦٨ «على العكس من ذلك، أرى فيها تشخيصاً لخصائص عميقة في مجتمعتنا وإعلاناً للتطورات المستقبلية، أي تحولات القرن العشرين والواحد والعشرين» وتبهي «تجاوز الحضارة البورجوازية»^(٢٢).

إلا أن هناك «قراءات مضادة» لثورة ٦٨، ونحن سنقف هنا على قراءتين مضادتين أساسيتين: قراءة ريمون آرون، وقراءة كلود ليفي ستراوس . لقد وصف ريمون آرون ثورة ماي ٦٨ بـ«سيكو - دراما اجتماعية»^(٢٣)، بل هو يرى في إمكانية انتصار زعيم الطلبة على الرئيس ديغول «إهانة وطنية»^(٢٤) وهو يفسر موقفه هذا بقوله: «كان على السوربون القديمة أن تموت غير أنها لم تكن تستحق الطريقة التي قتلت بها في ماي ٦٨»^(٢٥)، إنه يصرح بضرورة «نزع الوهم» و«فك التقديس» الذي أحيط بهاي ٦٨، لذلك فهو «يلعب توكفيل» ضد سان جوست وروبسبير ولينين: «لقد عثر الطلبة من جديد على اسلوب الكومونة اليعقوبية أو كومونة ١٨٧١، على نوادي الفكر أو نوادي الفطنة، تلك النوادي التي كان توكفيل أو فلوبير يصفها بكل سخرية واحتقار»^(٢٦) ومن ثمة فهو يصف ماي

(20) Edgar Morin "la commune étudiante: 2- le peuple et la jeunesse". Le monde du 13 Mai 1968 p.8.

(21) Edgar Morin "La commune juvénile" le monde 18 Mai 1968.

(22) Edgar Morin. Lettre adressée à Raymond Aron, reproduite in "mémoires" op. cit. p.494.

(23) Raymond Aron "mémoires" p.495.

(24) Ibid p.493.

(25) Ibid.

٦٨ بأنه «بداية انهيار الجامعة وليس بداية إصلاحها»، انه «كرنفال» و«ثورة مفقودة»، بل هو «هجمة البرابرة غير الواعين ببربريتهم». وخلاصة موقف ريمون آرون هو ان «حالة الطبيعة التي استمرت خلال أيام من الكرنفال الثوري لا تخلو من سحر، لكنها تصبح بسرعة غير محتملة تماماً كأى نظام من هذا النوع»^(٢٧).

ووقف كلود ليفي سترأوس موقفاً مماثلاً لموقف آرون، فهو يصف ثورة ٦٨ بـ«طفولية الجماهير»^(٢٨) وهو ينقل لنا في ارتساماته عن هذا الحدث «لقد تجولت في السوربون المحتلة بنظرة إثنوغرافي كما شاركت كذلك مع أصدقاء لي في جلسات تفكير حول الحدث... بمجرد ما مرت اللحظة الأولى من حب الاستطلاع، وبمجرد ما تعبت من تلك الطفوليات، أحسست باشمئزاز كبير تجاه ماي ٦٨»^(٢٩). وهو يفسر هذا الاشمئزاز تفسيراً «إثنوغرافياً»: «أنا لا أقبل أن يتم قطع الأشجار لتصنع منها متاريس (الأشجار هي الحياة ويجب أن تحترم)، ولا أن تحول الأماكن العمومية التي هي ملك ومسؤولية الجميع إلى مزابيل، أو تملأ العمارات الجامعية وغيرها بالكتابات والملصقات، ولا أقبل أن تشمل الأعمال الفكرية وإدارة المؤسسات بالسفسطة والمباحكة»^(٣٠). ومن ثمة فهو يحكم حكماً قاسياً على ثورة ماي ٦٨، إذ لم تكن عنده الا «نزولاً في درج إضافي من سلم انهيار جامعي بدأ منذ زمن بعيد... لا أعتقد ان ماي ٦٨ حطم الجامعة وإنما حدث ماي ٦٨ لأن الجامعة كانت آنذاك تتحطم»^(٣١).

لقد طرح السؤال دوماً: ما الجهات الفكرية التي تقف خلف ثورة ماي ٦٨. إلا أن الأجوبة تعددت واختلفت. إذ يشير المؤرخ الفرنسي رينيه ريمون ان من بين الكتب المسؤولة رمزياً عن هذه الأحداث كتاب بيير بورديو وكلود باسرون «الورثة»، ويلح المحلل النفسي الفرنسي ديدبي انزيو Didier Anzieu على الدور الذي لعبه كتاب سارتر «نقد العقل الجدلي» خصوصاً في طرحه لمفهوم «الجماعة المنصهرة»، ويذهب ريمون آرون إلى أن

(26) Raymond Aron "la révolution introuvable: réflexions sur les événements de Mai" Fayard 1968 p.87.

(27) Ibid. p.15.

(28) C. Lévi- Strauss, lettre adressée à Raymond Aron et reproduite dans "mémoires" op. cit. p.494.

(29) C. Lévi- Strauss et Dédier Eribon "de près et de loin". Ed. Odille Jacob 1988 p.115.

(30) Ibid p.115.

(31) Ibid p.116.

«كتاب هربرت ماركوز، «الإنسان ذو البعد الواحد»، كان يحتوي على موضوعات الإدانة: المجتمع التجاري، الاستهلاك الإجباري الضروري لجهاز الانتاج، التلوث، القمع الاجتماعي، التمييز مع حضور الفاقة»⁽³²⁾. غير انه يجب أن نميز بين كتب ذات توجهات «عملية» وأخرى «نظرية»، فمن الكتب العملية التي تم تداولها في ماي ٦٨، كتاب «عن البؤس في الوسط الطلابي» وكتاب «المطول في طريقة استعمال الأجيال لحسن - العيش»، وهما كتابان يطرحان المشاكل العملية المرتبطة بالطلبة كشباب. أما الكتابان «النظريان» اللذان يمكن بالفعل أن نقارب - دون أن نجزم بشكل عقدي في هذا التقارب - بينهما وبين ما حملته ثورة ماي ٦٨ فهما بالفعل: كتاب «الورثة»، وكتاب «الإنسان ذو البعد الواحد».

ليس كتاب «الورثة» كتاباً في «الوعي الطلابي» ولا مدخلاً إلى الحياة السياسية للطلبة، بل هو، قبل كل شيء، دراسة سوسيولوجية للنظام التعليمي الفرنسي مركزاً بالخصوص على الجانب المتعلق بـ«الطلبة والثقافة». ان ما يخلص إليه الكتاب، بعد دراسات تطبيقية، هو أن نظام التعليم الفرنسي يعيد انتاج نفسه حيث انه «باعتبار الطالب والاستاذ نتاج النظام، فإنهما يعبران معاً عن منطقة: إذ لا يساهم الطالب بأي شيء فيها يخص توجيه «إنتاج» ونقل المعارف، كما أن الاستاذ لا يستشير (إلا قليلاً) الطالب حول حاجاته»⁽³³⁾، ومن ثمة فإن هذا النظام يقول بعملية توليد الفوارق الثقافية والاجتماعية، إذ «لا تبدو الفوارق أمام الثقافة واضحة كل الوضوح في أي مكان قدر وضوحها في المجال، الذي في غياب كل تعليم منظم تخضع السلوكات الثقافية فيه إلى محدّدات اجتماعية أكثر منها إلى منطق الأذواق والحساسيات الفردية»⁽³⁴⁾. لقد استعملت أفكار هذا الكتاب أحياناً كإنجيل لثورة ماي ٦٨. إلا أن الاحصائيات التي وردت فيه تم تشويهها أحياناً، فنحن نقرأ على جدران إحدى الكليات: «يوجد في الكليات ٦٪ من أبناء العمال، ويوجد في داخلات إعادة التربية ٩٠٪»⁽³⁵⁾، يقول ريمون آرون: «كان أتباع بورديو قد انتشروا في السوربون وأخذوا يوزعون منشائر مطابقة في روحها لإنجيل بورديو بأسرون. وكان الطلبة من جانبهم يستعملون كتاب «الورثة» ويبالغون في هذا

(32) Raymond Aron "mémoires" p.483.

(33) Pierre Bordien et Jean- Claude Passeron: "les héritiers. Les étudiants et la culture". Edit. Minuit 1964 p.64.

(34) Ibid p.32.

(35) Julien Besançon "les murs ont la parole" op. cit. p.122- 123.

الاستعمال^(٣٦).

أما كتاب الفيلسوف الأمريكي الألماني الأصل هربرت ماركوز فقد اهتم بالحركات السياسية غير الرسمية والتي تكذب الفلسفة السياسية الكلاسيكية، إذ أن هذه الحركات لا تخضع لتأطير الأحزاب ولا تفسر بالمقولات الماركسية التقليدية. فهناك جماعة ترفض حرب فيتنام، هناك جماعة تقوم ببيع براغ، وهناك حركة منشقة سوفياتية. وبالاعتداد على فرويد يعتقد ماركوز أن المنافسة في الحضارة المعاصرة وأمر المردودية يقمعان الليبدو، وأن الطبقات المنتجة خضعت لضغط قوي وقمع كبير من جراء هذا، إلا أنها تندمج أكثر فأكثر في النسق الرأسمالي سواء مادياً أو إيديولوجياً، وبهذا تفقد البروليتاريا الصناعية قوتها الثورية. الطريق المفتوح إذن يأتي من الهوامش، من الفئات الاجتماعية المهمشة والقادرة بفعل تهميشها على خلق السلب والمعارضة الجذرية، لذلك فهي ترفض لعبة المجتمع الصناعي وتحافظ على دينامية مبدأ اللذة. من بين أهم المهمشين الذين ركز عليهم ماركوز: الطلبة. لقد صدر كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد» بالانجليزية سنة ١٩٦٤ ولم يترجم إلى الفرنسية إلا بعد ثورة ماي ٦٨ بشهور، إلا أن النقاشات التي كانت تدور حوله، دلت على أنه كان معروفاً في الأوساط الطلابية. بل إن من غريب الصدف أنه في الأيام الكبرى لماي ٦٨، كانت هناك مناقشات بين ماركوز وبعض المفكرين الفرنسيين باليونسكو حول أهم أطروحاته، وهي فرصة أخرى أكد فيها على أنه «كأن يضع في عين الاعتبار، أنه طبقاً للخطاطة الماركسية، فإن حظوظ الثورة تكمن أولاً في المجتمعات الصناعية. غير أنه بحكم المصالح المشتركة بين الطبقات في هذه البلدان، فإن هربرت ماركوز يضع «الدافع الحيوي» الثوري في «المهمشين»، شعوب غيتوهات السود وفي الطلبة، الذين يرى فيهم «حوافز» الثورة القادمة والقوى الوحيدة القادرة على إحداث «القطيعة» في المجتمع الرأسمالي^(٣٧). وهو بذلك يؤكد ما جاء في كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد» من أنه «خلف الطبقات الشعبية المحافظة يوجد أساس للمهمشين» و«الخارجين على قواعد المجتمع»، السلالات الأخرى، الألوان الأخرى، الطبقات المستغلة المضطهدة والعاطلون وأولئك الذين لا يمكن تشغيلهم. انهم يتموقعون خارج المسلسل الديمقراطي وحياتهم تعبر عن الحاجة، الأكثر عجالة والأكثر واقعية، في وضع

(36) Raymond Aron "mémoires" op. cit. p.474.

(37) Herbert Marcuse. cité par Jean Lacouture. Compte rendu des travaux de l'UNESCO. Le monde 12- 13 Mai 1968 p.6.

حد للظروف والمؤسسات التي لا تطاق . . إن معارضتهم تضرب النظام من الخارج ، ومن ثمة ، فإن النظام لا يمكنه أن يدمجها ، انها قوة أساسية تخرق قواعد اللعبة ، وبفعل هذا العمل ، تظهر أن تلك اللعبة كانت فاسدة»⁽³⁸⁾.

ترى ما الذي كانته ثورة ماي ٦٨ ؟ إن الجواب عند هذا السؤال اقتضى منا الوقوف عند ثلاث شهادات لأبرز أولئك الذين قادوها ، شهادات تلخص ثورة ماي ٦٨ في جوانب قوتها وضعفها معاً . .

يقول دانييل كوهن بنديت Daniel cohn Bendit أحد أبرز زعماء ٦٨ : «يجب أن نقبل بالتناقض الوجداني الذي حملته ثورة ماي ٦٨ . لقد كانت مزجاً بين آخر ثورة عرفها القرن التاسع عشر وحركة جديدة لم يسبق لها مثيل وضعت مشاكل آخر القرن العشرين . لقد أصبحنا دفعة واحدة سجناء الميثولوجيا ، حيث أن النظرية الثورية كانت رثة ولكننا لم ننتبه أبداً إلى رثتها . لقد احتاج الأمر إلى سنوات لكي نعي بهذا . ان مكتسب ماي ٦٨ هو التجربة التاريخية للفعل الجماعي الذي أسس المتخيل الجماعي . و«فردانية» ماي كانت سليمة ومتجذرة في الجماعة ، واليوم نحن نعيش على حنين إلى كرمها وسخائها»⁽³⁹⁾.

ويقول سيرج جولاي Serge July أحد وجوه ماي ٦٨ : «في ٦٨ غبرنا الكوكب . انتقلنا من مجتمع قروي ثقافياً إلى مجتمع مدني ، وبينهما رمز المتراس الذي يفصل بين العالمين ، ٦٨ كانت تصدعاً ، إذ كان للبنى الثقافية الذهنية نصف قرن من التأخر على التحديث الاقتصادي . انها حنين مجتمع كان في حالة مخاض يبحث على أن يتحرر من السياسي . لكننا كنا لا نقيم على أسس صلبة . نحن ، أعني مناضلي الستينات ، لقد وضعنا السياسة في حركة اجتماعية وكان هوسنا هو إقامة رباط مع الطبقة العاملة . لقد أعدنا إدخال اسطورة القرن التاسع عشر تلك . لقد قلدنا الثورة بطريقة كاريكاتورية وأعطينا للأحداث باللغة والإشارة طابع ثورة . لقد طبعنا النزعة اليسارية على ماي»⁽⁴⁰⁾.

ويقول رولان كاسترو Roland Castro وهو وجه بارز لماي ٦٨ : «لقد أحدثنا في المتخيل ، الحرب والثورة . لقد حملنا الناس على أن يعتقدوا ويؤمنوا . كان ذلك هو الألم في

(38) Herbert Marcuse "l'homme unidimensionel". Coll. Arguments. Edit, Minuit 1968. p.280.

(39) Daniel Cohn- Bendit cité par Hervé Hamon et Patrick Rotman in "Génération" T1: "les années folles". op. cit. p.575.

(40) Ibid p.583.

المخاض دون المرور إلى الفعل، كانت المعاناة أدنى، كان التمثيل، وهذا مكننا من أن نظل خارج جهنم، خارج الجريمة»^(٤١).

لكن كيف أصبحت جهنم ممكنة؟ كيف أمكن حدوث الجريمة؟ تلك أهم أسئلة السبعينات: التاريخ لا يطرح الجواب، الدولة الاشتراكية لاتنهأ، الدولة الليبرالية تميل أكثر إلى التوتاليتارية. السؤال هو: لماذا السلطة؟ مفهوم السلطة أوسع من مفهوم الدولة. لماذا السلطة بدل لماذا الدولة؟

(41) Ibid p.590.

الفصل السادس

أثر ثورة ماي ٦٨ في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر

"Mai 1968: une fracture de notre socle culturel".

Michel Foucault.

"Ceux qui ont la haine de 68, ou qui justifient le reniement, considèrent que c'était symbolique ou imaginaire. Mais ça ne l'a jamais été, c'était une intrusion du réel pure".

Gilles Deleuze.

أدخلت ماي ٦٨ «نقطة استهزاء» في الفكر الفرنسي، وأحدثت «فاصلة تشكك» في مفهوم المثقف، لقد خلقت وعياً حاداً بمفاهيم كالاختلاف والمتخيل والجسد والسلطة... . وبقدر ما وجهت بعض المناحي الفكرية في أواخر الستينات والنصف الأول من السبعينات، بقدر ما وضعت «المثقف» موضع سؤال. ومن الملاحظ ان ما تميزت به ماي ٦٨، علاوة على إدانة واضحة «للسوسيولوجيا باعتبارها إيديولوجيا»، وتشكيل الثلاثي: - تورين - موران - لوفيفر - مجال استهزاء واستخفاف غامر، عنف شديد في مخاطبة «المثقف»، وهو عنف اتخذ جميع الأشكال، من الكتابة الحائطية المتحاملة حتى البيانات المدينة بل والمواجهات الكلامية الحادة، وحتى أولئك الذين ساندوها بدون تحفظ لم يسلموا من عنادها الدائم. يمكن للتدليل على عنف مخاطبة المثقف في ثورة ماي ٦٨ الاشارة إلى ثلاثة نماذج: لويس آرغون، جون بول سارتر، جاك لاكان.

في زمن «المدينة التي أميرها . . طالب»، يتقدم الشاعر الفرنسي لويس أرغون إلى ساحة السوربون الخاصة بالطلبة، فيطلب منه زعيم الحركة كوهن بنديت أن يوضح موقفه من المقالات التي تكتبها جريدة «لومانتية» الشيوعية ضد الطلبة ويمد له مكبر الصوت، فترتفع وسط الطلاب احتجاجات صاخبة وتسمع إهانات من مثل هذه :

- ليس للأوغاد الحق في تناول الكلمة .

- هنا، يجيب زعيم الحركة، لكل واحد الحق في تناول الكلمة.. حتى ولو كان خائفاً.

يعلل الشاعر الشيوعي حضوره بين الطلبة باعتباره «موقفاً شخصياً»، ويضع بين أيديهم العدد اللاحق من مجلته «الرسائل الفرنسية» ليعبروا فيها عن أفكارهم فيرد عليه زعيم الطلبة:

- إن جريدتك لا يقرأها العمال. لقد تم الافتراء علينا في جريدة «لومانتيه» واتهمنا بأننا عملاء للنظام. اننا نريد أن نجيب على هذه الافتراءات في الجريدة التي اتهمنا فيها. يجيب الشاعر:

- لا أستطيع أن أعمل أي شيء من أجل ذلك، فجريدة لومانتيه ليست بيدي، ولكني أعطيك صفحات جريدتي، إنني بجانبكم، اكتبوا فيها ما تشاءون. تنفجر الجموع الحاضرة في صخب عنيف، تتقاطع بعض التصفقات ببعض الهتافات حيث تتقاطر الإهانات:

- والسرياليون الذين خنتهم، ماذا نقول في هذا؟

- وبول نيزان الذي اتهمته بكونه رجل شرطة!

تسود عين الشاعر الشيوعي الزرقاء ويحمر وجهه، ثم يرفع يديه علامة على العجز ويعود وقد ابتلعتة الجموع⁽¹⁾.

وفي قاعدة السوربون، تمتلئ المدرجات بجموع الطلبة، إنهم ينتظرون الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر. فجأة يدخل الفيلسوف وما أن يجلس حتى يبادره أحد الطلبة قائلاً:

- لقد كتبت: «البحيم هم الآخرون»، ماذا يعني هذا النمط من القول!

يجيب سارتر وقد فطن بالإهانة في حذر:

- هذا سيأخذ منا وقتاً طويلاً. . .

ودون أن يتم جوابه يبادره طالب آخر:

- هل ديكتاتورية البروليتاريا أمر ضروري؟

يجيب سارتر في لباقة:

- إن ديكتاتورية البروليتاريا تعني أولاً ديكتاتورية على البروليتاريا. اعتبر انه لا يمكن الفصل بين الاشتراكية والحرية وإذا لم نضع هذه المسألة أولاً فإننا سنفقد لسنوات الحرية وبعد ذلك الاشتراكية.

(1) Hervé Hamon et Patrick Rotman. Génération I. P 390.

يعلق طالب قائلاً:

- إن سارتر كاتب مبدع ولكنه سياسي من النوع الرديء .

يجيب سارتر بنوع من المهادنة :

- لم أحضر هنا على اعتبار اني سياسي ولكني حضرت كمثقف (٢).

وغير بعيد عن هذه الأجواء ، وفي أول درس له بكلية فانسين ، الكلية التي انبثقت عن ثورة ماي ٦٨ ، يلاقني لاكان نفس المصير . فبمجرد أن يبدأ درسه بالكتابة على السبورة تنقض عليه الأسئلة - الإهانات من كل جانب . يقول طالب :

- بالنسبة لي أنا ، التحليل النفسي هو نوع من النزعة البوليسية ، نوع من البوليس .

ويضيف طالب آخر:

- لدينا القساوسة ولكن بما أن الأمور لم تسر على ما كان مقرراً لها ، فإننا أصبحنا الآن نتوفر على المحللين النفسيين .

ويعلق طالب ثالث :

- إننا ننتظر منك يا لاكان منذ ساعة أن تقوم بانتقاد التحليل النفسي . . . إننا ننتظر منك نقداً ذاتياً .

يجيب لاكان وقد ضجر من هذه التعليقات :

- لكنني لن أمارس أبداً نقداً على التحليل النفسي ، لا يتعلق الأمر بنقد . . أنا لا أشك أبداً في قيمة هذا العلم . .

يوقفه تدخل رابع :

- هل التحليل النفسي يا لاكان ثوري؟

يجيب لاكان :

- هذا سؤال جيد . . .

ودون أن تترك له فرصة الإجابة يعلق طالب خامس :

- هناك في الأعلى يمين الله يوجد لاكان (٣).

كان هذا أول درس للاكان بكلية ثورة ماي ٦٨ ، وآخر درس له . . .

لم يكن سارتر أو أرغون ولا لاكان معادين لماي ٦٨ ، بل ان الأول ساندتها بكل قوة :

(2) Ibid p.524.

(3) "L'impromptu de Vincennes". Magazine littéraire N°121. Dossier spécial Lacan. Février 1977 p.22- 23.

«حسب اعتقادي كانت حركة ماي ٦٨، أول حركة اجتماعية ذات نطاق واسع حققت زمنها شيئاً قريباً من الحرية، والذي بناء عليه، حاولت تصور ما هي الحرية كفعل»^(٤) والثالث تضامن معها بوضوح: «لقد أوقفت دروسي تلك السنة، سنة ٦٨، قبل نهايتها لكي أظهر تعاطفي مع ما كان يحدث ويستمر الآن... بتواضع»^(٥). ربما كان المقصود من ثورة ماي ٦٨ حمل المثقف على التشكيك في قيمته كحامل للحقيقة في الساحة العمومية. ولعل هذا هو ما فهمه سارتر بالذات. يقول جون بول سارتر: «إن المثقف باعتباره رجلاً يفكر مكان الآخر آيل إلى الاختفاء: أن نفكر مكان الآخرين، هذه سخافة تدين مفهوم المثقف نفسه»^(٦).

حملت ثورة ماي ٦٨ مجموعة من «القيم» إلى الساحة الثقافية الفرنسية، كانت «ثورة ذرية» (فليكس كواتري) أو لنقل كانت «ثورة في التقاليد» (فرانسوا شاتليه)، غيرت ممارسات اجتماعية عتيقة ووضعت مجموعة علاقات اجتماعية موضع سؤال: الرجل والمرأة، السكنى والأرض، المريض والطبيب، السجين والسجان، الأقلية والأغلبية، المعرفة والسلطة... وفق روح ماي ٦٨ تأسست مؤسسات ناقدة للمؤسسات، تأسس نوع من الوعي الشقي للمؤسسات الحداثي: جماعة الاعلام عن حالة السجون GIP وجماعة البحث المتعلق بالتعليم الفلسفي GrepH بل تأسست كلية فرنسية ناقدة، كلية فانسين Fa-culté de Vincennes التي يمكن أن ندخلها في إطار تقليد فرنسي يذهب من الجامعة الشعبية (قضية دريفوس) ليمر عبر الجامعة النقدية (ثورة ماي ٦٨). وعموماً ما يمكن أن نقوله عن ثورة ٦٨ هو أنها «كانت انتفاضة نموذجية اعتقد البعض مدة زمنية، انها ثورة بالمعنى الكلاسيكي، وبها أنها لم تصبح ما اعتقد هذا البعض أنها كانت، استدلت على أنها لما توقفت عن أن تظل انتفاضة ولم تصبح ثورة، فقد باءت بالفشل. غير ان ما يبدو لي هو أن شيئاً حاسماً قد حدث وضرب العلاقات التراتبية في عمقها، علاقات الاسرة والجنس وعلاقات العمل»^(٧). وبالفعل فمن أعظم «القيم الثقافية» التي أعطتها ثورة ماي ٦٨، بعداً جديداً: قيمة الاختلاف. نقرأ على جدار مدرج جامعي في السوربون: «كلنا يهود ألمان»، أي نحمل في ذواتنا القهر والقمع والاضطهاد والتهميش والعنصرية،

(4) Jean- Paul Sartre. Autoportrait à soixante dix ans. Situations X. op. cit. 184.

(5) Jacques Lacan. Magazine littéraire n°121, Février 1977. p.23.

(6) Jean- Paul Sartre. Situations X p 186.

(7) François Chatelet. "chronique des idées perdues", Col.: Stock 1977, p.161.

ونقرأ على جدار كلية الفنون الجميلة: «نحن غير مرغوب فينا»، لذلك فالدعوة ستكون «لنفتح أبواب مستشفيات المجانين والسجون والكليات الأخرى»، ومن هنا نلاحظ ذلك الخطاب الذي طفا على السطح في السبعينات والمتعلق بالأقليات والغيثوات والمهمشين والمنحرفين جنسياً... وثاني قيمة ثقافية لهذه الثورة الاحتفال بالمتخيل l'imaginaire بحيث يمكن اعتبار ماي ٦٨ دعوة إلى «أن يأخذ الخيال السلطة» بالبحث عن «متخيلات وأماكن أخرى»، وذلك لأن «الخيال ليس موهبة تعطى وإنما شيء يُغزى»، لكي تصبح كل الأشياء التي أقصاها «العقل البوليسي» جزءاً من الواقع نفسه: «الحلم، الحلم هو الواقع»، ومن ثمة «انسوا كل ما تعلمتموه. إبدأوا بالحلم». المبالغة، «أن نبالغ، ذلك هو السلاح» لأن «المبالغة بداية الإبداع»، «كونوا واقعيين اطلبوا المستحيل». اللاحدود «ليس للانهايي نبرة». . العفوية: «إن الفعل عفوي ويحمل في ذاته تحقيق الآخر». وعموماً فإن المقصود بقيمة المتخيل: «عفوية، ابداعية، حركة». ثالث قيمة لهذه الثورة قيمة بيان فاشستية السلطة: «كل سلطة هي سلطة فاشستية»، وفاشستية «الرغبة في السلطة» ينم شرطي في ذهن كل واحد منا، «فلنقتله»، «لا للتوتاليتارية»، «الدولة هي كل واحد منا»، للدولة تاريخ طويل مليء بالدم. وهي قيمة ترتبط بنقد الحداثة: «ليست الحداثة إلا تحديثاً للبوليس»، «للمدنية والفاشستية نفس الإيقاع»، وترتبط أيضاً بنقد مجتمع الاستهلاك: «ليسقط مجتمع الفرجة - البضاعة»، «البضاعة سنحرقها»، «إقتلوا البيروقراطيين»، «لنا يسار ما قبل تاريخي». . رابع قيمة لهذه الثورة بيان قيمة الرغبة: «أن نرغب في الواقع شيء حسن وأن نحقق رغباتنا شيء أفضل»، «رغباتي هي الواقع». . كل ذلك حتى «لا نستهلك ماركس»^(٨) ولا فرويد أيضاً.

لقد حقق ماي ٦٨ نوعاً من الانفراج الفكري أو نوعاً من الانحراف Dérive عن ماركسية دوغمائية وفرويدية ارتوذوكسية. يقول ميشيل فوكو: «خلال السنوات ١٩٤٥ - ١٩٦٥ (أفكر في أوروبا)، كانت هناك طريقة مستقيمة معينة في التفكير، كان هناك أسلوب معين في الخطاب السياسي وأخلاقية معينة للمثقف. كان عليك أن تكون مع ماركس في كل شيء، وألا تترك أحلامك تتيه بعيداً عن فرويد، وأن تعالج نسق العلامات - الدال - باحترام كبير. كانت هذه هي الشروط الثلاثة التي تعطي الاعتبار

جميع الاستشهادات مأخوذة من الكتاب المذكور. . Juilien Bessonçon "les murs ont la parole". (8)

وطابع القبول لهذا الاهتمام المتفرد الذي هو فعل الكتابة وقول جانب من الحقيقة حول ذات المثقف وعصره. وبعد ذلك جاءت خمس سنوات قصيرة مثيرة، خمس سنوات من التهلل واللغز...»^(٩).

سبق أن أشرنا إلى دخول فرويد إلى فرنسا وأشرنا إلى المقاومة العنيفة التي واجهته من داخل الجامعة الفرنسية سواء من طرف المذهب الروحي (بلونديل)، أو من طرف بعض الماركسيين.

إن الرجل الذي كسر هذه المقاومة وقدم فرويد إلى الفلاسفة على طبق من ذهب هو جاك لاكان. والسؤال الذي نطرحه هنا بصدد هذا التقديم هو: ما علاقة لاكان بالفلسفة؟ إن علاقة لاكان بالفلسفة علاقة معقدة. فهو يستدعي في دروسه هيغل ليستبعده لاحقاً، ويستدعي أرسطو (مفهوم السببية)، وديكارت (مفهوم الذات)، وهيدجر (نقد الميتافيزيقا) ليعمل على دمجهم في قراءة متميزة. لقد كان فرويد تجريبياً وكان يحاول البرهنة على اللاشعور، مما أثار صعوبات إبستمولوجية عديدة، أما لاكان فإنه كان يستنتج اللاشعور من بنية الدال. فهو يؤكد على قيمة الاكتشاف الفرويدي: «يعارض فرويد كل أنواع اللاشعور التي ارتبطت بشكل ما بإرادة غامضة اعتقد أنها أولية وأنها توجد قبل الوعي، بإعلانه أن في مستوى اللاشعور هناك شيئاً متشابهاً في كل جوانبه كما يحدث على مستوى الذات: انه يتحدث ça parle ويشغل ça fonctionne بطريقة معدة تماماً كما يحدث في مستوى الشعور، الذي يفقد بهذا ما كان يعد من امتيازاته الخاصة»^(١١)، لكن هذا اللاشعور إذا كان على المستوى «الانطولوجي»: «ليس كينونة ولا عدماً وإنما هو ما لم يتم تحقيقه»^(١٢)، فإنه على المستوى الإبيستمولوجي يصبح ذا أهمية: «إذا أردنا أن نؤسس التحليل النفسي كعلم للاشعور فيجب أن ننطلق من فكرة أن اللاشعور مبني كلفة»^(١٣). هناك إذن «ذات للاشعور يتحدث الانسان من خلالها، وهذا يحفر هوة لا يمكن أبداً ملؤها بين نظام الحاجة البيولوجي ومكافأة المبحوث عنه في

(9) Michel Foucault, Présentation de l'édition américaine de l'anti-oedipe: "l'Anti-Oedipe: une introduction à la vie non fasciste". Magazine littéraire n°257, Septembre 1988, p.42.

(11) Jacques Lacan, Le séminaire, Texte établi par Jacques Alain Miller, Livre XI, Seuil, 1973, p.27.

(12) Ibid p.32.

(13) Ibid p.185.

نظام الخطاب: الطلب الذي باعتاده مرجعياً على الحاجة المفقودة يجد نفسه مطبوعاً بطابع مطلق. هذا المطلق يرتسم جانبياً في الطريقة التي تنظم بها الرغبة داخل خطاب المحلل». ومعنى ذلك: «أنه يمكن أن نموقع اللاشعور في إطار شيء موجود ولكنه موجود بمعنى انه يمكن أن يشمل أي شيء، أي مستوى الذات المنشئة لفعل التحدث باعتبار أنه حسب الجمل وصيغ الأفعال، يمكن فقدانه أكثر من العثور عليه، وانه في فعل تعجب أو أمر أو ابتهاج، وحتى في فعل تغيب، فانه هو الذي يفرض لغزه ويتحدث. . ان الأمر يتعلق دائماً بالذات باعتبارها غير محددة»^(١٤).

كيف تصبح الرغبة إذن؟ هناك وضع جديد للرغبة ضمن خطاب التحليل النفسي: «يتم التأكيد في إطار سجل علم النفس التقليدي على الطابع غير الممكن احتواؤه واللايهائي للرغبة الانسانية، في حين ان ما أمكن لتجربة التحليل أن تقوله بهذا الصدد هو قبل كل شيء الوظيفة المحددة للرغبة. فالرغبة أكثر من أي مجال من مجالات ما تحفظه الذاكرة الانسانية في لمحة واحدة، تجد ما يجدها في مكان ما»^(١٥). لذلك «فالرغبة لا تعمل في الحقيقة إلا على نقل ما تحمله من صورة للماضي نحو مستقبل قصير الأمد دائماً ومحدود. ومع ذلك ففرويد يعتبرها غير قابلة للتخطيط»^(١٦) وفي الواقع، فإن الكوجيطو الجديد لفرويد ليس هو الكوجيطو الديكارتي «أفكر إذن أنا موجود» ولكن «أرغب إذن أنا موجود»، «Désidéro, c'est le cogito freudien»^(١٧) فنقطة التقاطع هي الرغبة. لكننا إلى جانب الرغبة نكتشف مع لاكان الاستيهام le fantasme «إن موضوع الرغبة، بالمعنى المعهود، هو إما استيهام، هو في الحقيقة سند للرغبة، أو خديعة»^(١٨). إذ يكشف لاكان عن ذات استيهامية في كل ذات تمثلية، وهو بذلك يخرق عالم التمثيل représentation الهاديء للعقل وي طرح فكرة العالم كاستيهام للذات المفكرة المنفصمة: «ان الاستيهام وليس الموضوع هو سند الرغبة. يتم تقديم سند للذات باعتبارها رغبة بالنسبة لمجموع دال دائماً أكثر تعقداً. وهذا يلاحظ أكثر في شكل السيناريو الذي تأخذه، حيث الذات، كيفما كانت درجة تعرفها على نفسها توجد مفصومة، مشطرة، مزدوجة بطريقة عادية، في علاقتها مع ذلك الموضوع الذي لا يظهر وجهه الحقيقي غالباً»^(١٩).

(14) Ibid p.28.

(15) Ibid p.32.

(16) Ibid p.33.

(17) Ibid p.141.

(18) Ibid p.168.

(19) Ibid.

إن ما حققه لاكان بالنسبة لفرويد هو تماماً ما حققه ألتوسير بالنسبة لماركس . لقد حاول التوسير أن يقرأ النص الماركسي قراءة تجعل من تصورات ماركس معقلاً للعلمية scientificté وحاول لاكان أن يقرأ النص الفرويدي قراءة تجعل من تصورات فرويد معقلاً للوضعية positivité . لقد حاول الاثنان أن يضعوا معاً ماركس وفرويد في المقعد الفارغ لإله الميت : سبينوزا . ألتوسير خلق من تصورات ماركس للفكر «مادية سبينوزية» ، ولاكان خلق من تصورات فرويد للنفس : «لاشعوراً سبينوزياً» . فماذا بقي من «جثة» ماركس ومن «جثة» فرويد؟ . . يمكن أن نتسرب بهذا السؤال خلف جدران الكلية التي أسستها ثورة ماي ٦٨ ، كلية فانسين ، التي درس بها أشهر الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين فلسفات ارتبطت بالرغبة والتمثيل والجسد . . مثل ميشيل فوكو وجيل دولوز وفليكس كواتري وجون فرانسوا ليوتار وجون بودريار وبير لوجوندر . .

يلاحظ فرانسوا شاتليه ان الثابت الأساسي في فكر جماعة فانسين هو التأكيد على «الانبيار النظري للعقل» سواء من ذلك الفلسفة المسيحية أو الهيغلية أو الماركسية أو الوضعية ، أي كل ما كان يدعي التحدث باسم الحقيقة . ومقابل هذا الثابت الأساسي كان العدو أيضاً مشتركاً «الدولة كانتصار عملي لهذا العقل» . ويحدد فرانسوا شاتليه ثلاثة مصادر لهذا الفكر : الضحكة النيتشوية الماكرة ، والتشاؤم العقلي الفرويدي ، وسياسة جون جاك روسو^(٢٠) . ! إلا أن تعميمه لهذا الحكم فيه شيء من المجازفة . ونحن لا نملك هنا إلا الوقوف عند أهم محطات هذا الفكر الذي حدد ميشيل فوكو جيداً إشكاليته في : «كيف يمكن إدخال الرغبة إلى الفكر والخطاب والفعل؟ كيف يمكن للرغبة أن تبدل جهودها في حقن السياسي وأن تتقوى في عملية قلب النظام؟»^(٢١) .

عند فوكو تتحدد السلطة كممارسة والمعرفة كطريقة لضبطها ، وهو ينطلق في بناء هذه الصورة : السلطة/ المعرفة ، من نقد لفكرة الذات الفاعلة في التاريخ والذي يوافق نقده لخطاب المتصل في فلسفة التاريخ : «أن نجعل من التحليل التاريخي خطاباً في المتصل وأن نجعل من الوعي الانساني ذاتاً لكل صيرورة ولكل ممارسة : هذان وجهان لنظام فكري واحد ، حيث يتم تصور الزمن من خلاله بمصطلحات التشكل الكلي totalisation ويتم اعتبار الثورات مجرد حصول للوعي»^(٢٢) . إن فكرة الذات هذه شكلت عائقاً أمام

(20) François Chatelet "chronique des idées perdues op. cit. p207- 210.

(21) Michel Foucault "l'Anti- Oedipe" une introduction à la vie non fasciste. op. cit. p.49.

(22) Michel Foucault cité par François Chatelet, Olivier Duhamel et Evelyne Pisier- Couchner in "histoire des idées politiques" Momento Thémis. PUF 1982. p.274.

تصور نقدي للسلطة، فلا التحليل الفينومولوجي ولا التحليل الماركسي كانا قادرين على تحقيق مثل هذا التصور: «لما كان أعضاء الجيل الذي إنتهى إليه طلبة تغذوا من هذين الشككين من التحليل: الأول كان يرد السلطة إلى الذات المؤسسة، والآخر إلى الاقتصادي في آخر تحليل، إلى الأيديولوجيا وإلى لعبة البنيات الفوقية»^(٢٣). لذلك «يجب بالتخلص من الذات المؤسسة التخلص من الذات نفسها أي الوصول إلى تحليل يمكن من إدراك تشكل الذات في بنية شبكة التاريخ»^(٢٤) وفوكو لا ينسى أيضاً التصورات التقليدية للسلطة، تلك التصورات التي تبسط الموضوع بشكل محجف. فالشكلائية الحقوقية تضع كمصادرة لها، حين تتأمل السلطة، انه ليست هناك سلطة تستمر إلا السلطة الشرعية، ومن ثمة فهي تحيل إلى القانون والسيادة، ويصبح الحديث بهذا حديثاً عن المشروعية والحدود والمقاييس. وإذا كانت السوسيولوجيا الدوركيمياية تأخذ كمنظور لها مجالاً أوسع، فإنها من جهة أخرى تعتبر الواقعة الاجتماعية قسرية بطبيعتها فتختزل بذلك السلطة في مجال الحجم القمعي المحايت لكل مجتمع. وعموماً يلاحظ فوكو ان مسألة السلطة «حين تطرح في اليمين لم يكن يتم ذلك إلا عبر مفاهيم الدستور والسيادة. . عبر مفاهيم قانونية. وحين تطرح في الماركسية، فإنها كانت تطرح دائماً عبر مفاهيم جهاز الدولة»^(٢٥). ومن هذا النقد يخلص إلى أن التحليل الجدي الوحيد الممكن للسلطة هو تحليلها في «الطريقة التي تمارس بها بشكل مشخص، في تفصيلها وخصوصيتها وتكتيكها»^(٢٦)، وهو ما يدعوه بالضبط «جنياولوجيا السلطة» «أي شكلاً من التاريخ يدرك تشكل المعارف والخطابات ومجالات الأشياء. . دون أن يحتاج إلى العودة إلى ذات سواء كانت متعالية بالنسبة لحقل الأحداث أو تطارد باستمرار في هويتها الفارغة طول التاريخ»^(٢٧)، هذه الجنياولوجيا تخلق نوعاً من التآلف بين أنصاف آلهة ما بعد الحرب من خلال قراءة أنساقهم قراءة مميزة تظهر من خلالها على أنها نفي للذات باسم نمط الانتاج (ماركس)، أو البحث الجنياولوجي (نيتشه)، أو اللاشعور (فرويد). وهي جنياولوجيا لم يكن من الممكن بناؤها في رأي فوكو إلا بعد تمثل روح ثورة ماي ٦٨، لأن من بين أهم قيم هذه الثورة في رأيه أنها ركزت على المقاومات اليومية التي تنشأ في القاعدة من طرف

(23) Michel Foucault "vérité et pouvoir" l'are 70, p.20.

(24) Ibid.

(25) Ibid p.19- 20.

(26) Ibid p.20.

(27) Ibid.

أولئك الذين يجاربون في الحلقات الأكثر دقة من شبكة السلطة. هذه الحلقات يجد لها فوكو نماذج في الحجز وغسل الأدمغة والمؤسسات العقابية، آلية إقصاء المهمشين وبناء «ذاتهم» في آن واحد «في العديد من التشكيلات الاجتماعية ليس السادة وإنما المقصون اجتماعياً هم الذين يكونون معاقل لتشكيل الذات»⁽²⁸⁾ مما يوحي بإمكانية «عودة الذات»¹.

هذه الجنياولوجيا تستبعد مفهومين ملتبسين: مفهوم الايديولوجيا ومفهوم القمع. ذلك ان مفهوم الايديولوجيا يظل أولاً في تعارض مبدئي مع شيء يفترض أنه الحقيقة، والحال ان المشكل ليس مشكل تمييز الصفة العلمية والحقيقة في خطاب ما، وإنما ضبط كيف تحدث التأثيرات التاريخية للحقيقة داخل خطابات ليست في ذاتها صادقة ولا كاذبة. وثانياً لأن مفهوم الايديولوجيا يحيل دائماً إلى «ذات»، والحقيقة ان جنياولوجيا السلطة لا تريد أن تفترض ذاتاً. وثالثاً لأن هذا المفهوم يفترض احتلال موقع ثان بالنسبة لشيء أساسي هو البنية التحتية، وهو ما يشكل اختزالاً للسلطة. أما فيما يخص مفهوم القمع فإنه يحمل تصوراً قانونياً عن السلطة حيث تتم مهامها بأمر يقول: «لا» ويملك القدرة على المنع. وهذا «تصور سلبي تماماً، ضعيف وهيكلي للسلطة»⁽²⁹⁾ فالناس، لا يخضعون هكذا للسلطة بسهولة لأنها تقول: «لا» ولكنهم يخضعون لها «لأنها لا تقبل نفسها فقط كقوة سالبة تقول: «لا»، ولكن أيضاً لأنها بالفعل تعبر الجسد الاجتماعي بأكمله، تنتج أشياء وتدخل لذة وتشكل معرفة وتنتج خطاباً»⁽³⁰⁾. من هنا نلاحظ ان فكرة سلطة مكثفة شاملة ينبع منها كل شيء ويعود إليها ما كانت لتروق فوكو. ومعنى هذا انه يستحيل بناء «فيزياء عامة» للسلطة المنسجمة المهيمنة على المجتمع. فبدل أن نتساءل عن السلطة يجب أن نعود إلى الممارسات التأديبية التي تشكلت منذ العصر الكلاسيكي مع ذكر مجال عملها وسلطاتها الخاصة ووظائفها المرتبطة بالمعارف الخاصة بقواعد نوعية. ومن هنا ترتبط «ميكروفيزياء» السلطة بفلسفة حول الجسد تنبع من روح ماي ٦٨ يحدد فوكو من خلالها السلطة على أنها كل تكنولوجيا سياسية للأجساد «ان علاقات السلطة تمارس على الجسد هيمنة مباشرة، انها تستثمره، تدمغه، تروضه، تعذبه، تلزمه القيام بأعمال، تجبره على ممارسة طقوس، تتطلب منه علامات. . فالجسد لا يصبح قوة نافعة

(28) Gilles Deleuze. Magazine Littéraire n°257 Sep. 1988 p.24.

(29) Michel Foucault "vérité et pouvoir" L'arc 70 p.21.

(30) Ibid.

إلا إذا كان جسداً منتجاً ومستعبداً في آن واحد»⁽³¹⁾.

هكذا يتحدد طابعان ملازمان للسلطة: أولهما السلطة استراتيجياً تعمل على ترويض الأجساد، وثانيها انها موجودة في كل مكان، فهي «شبكة منتجة تعبر الجسد الاجتماعي بأكمله»⁽³²⁾.

يرى فوكو في السلطة قبل كل شيء ترويضاً للأجساد، ودولوز وفليكس كواتري يأخذان كذلك كمنطلق لهما الجسد كمعطى أساسي وكما تمارس فيه «تدفقات آلية» نسميها: الرغبة. غير ان اختلاف دولوز مع فوكو اختلاف دقيق: «ان نقطة الخلاف بيننا وبين فوكو تكمن في أنه يعتبر ان الحقل الاجتماعي تعبره استراتيجيات في حين نعتقد نحن أنه يهرب دائماً»⁽³³⁾. سياسة دولوز موجهة أيضاً ضد فرويد والتحليل النفسي الكلاسيكي: «لقد بدا لنا التحليل النفسي مشروعاً وهمياً لجر الرغبة إلى طرق مسدودة ولمنع الناس من أن يقولوا ما يريدون. كان مشروعاً ضد الحياة، أغنية موت، قانوناً وخصياً، تعطشاً للتعالي، كهنوتاً»⁽³⁴⁾، بل هي موجهة كذلك ضد تأويلين للتحليل النفسي: تأويل الفرد وماركسية: «لم يكن هنا البحث عن توزيع ولا توافق لمستويات، وإنما بالعكس من ذلك تماماً أن نضع على نفس المستوى انتاجاً كان في نفس الوقت اجتماعياً وراعياً، وذلك من خلال منطق تدفقات. ان الهديان يعمل في الواقعي ونحن لا نعرف عنصراً آخر غير الواقعي، أما الخيالي والرمزي فقد بدا لنا كمقولات خاطئة»⁽³⁵⁾. وتأويل لاكان، إذ عوض الحديث عن «لاشعور بنيوي» يتم الحديث مع دولوز وفليكس كواتري عن «لاشعور آلي» وفق نزعة بناءية constructisme وإنتاجية productivisme تحتفي بالتعددية، فالفلسفة هي أساساً منطق التكثر والتضاعف *logique de multiplicité*، ولا كان يجب قلبه كما تم قلب الافلاطونية.

ان ما كشفته ثورة ماي ٦٨ في رأي دولوز وكواتري هو محافظة معنى الواقعي على ذاته، فاللاشعور واقعي والرغبة واقعية، وهما معاً يوجدان خلف السلسلة العلية الصارمة: «ان الحدث نفسه هو في انفكاك أو قطيعة مع السببية، انه مفرق طرق وانحراف عن القوانين.

(31) Michel Foucault cité par François Chatelet in "histoire des idées perdues p.275.

(32) Michel Foucault "vérité et pouvoir" op. cit. p.21.

(33) Gilles Deleuze, magazine littéraire n°257 p.24.

(34) Ibid p.21.

(35) Ibid.

انه حالة غير ثابتة تفتح حقلاً جديداً من الممكنات»^(٣٦). في هذا الإطار يدخل ماي ٦٨: «إنه حدث خالص، مستقل عن كل سببية عادية أو معيارية. تاريخه هو تتابع عدم استقرارات وتقلبات موسعة. كانت هناك في ماي ٦٨ الكثير من الاضطرابات والتمخضات والأقوال والحقايات والأوهام، غير ان هذا لا يهم، ما يهم هو انه كان ظاهرة استبصار كما لو أن مجتمعاً رأى دفعة واحدة ما كان يحتويه من أشياء لا يمكن التسامح فيها، ورأى أيضاً إمكانية شيء آخر»^(٣٧). ومن ثمة فهناك ٦٨ كان حدثاً بهذا المعنى (حدثاً خلق وجوداً جديداً وأحدث ذاتية جديدة «علاقات جديدة مع الجسد والزمان والحياة الجنسية والبيئة والثقافة والعمل . . .»)^(٣٨) كتاب «ضد - أوديب» يني عالماً خاصاً، انه خلق لمفاهيم جديدة، وهو بذلك كتاب فلسفة. لأن الفلسفة «هي دائماً انتاج لمفاهيم»^(٣٩). لقد اعتبر هذا الكتاب جواباً عن سؤال: «كيف نحارب الفاشستية التي توجد فينا، التي تتسلط على عقولنا وسلوكاتنا اليومية، الفاشستية التي تجعلنا نحب السلطة، نحب هذا الشيء نفسه الذي سيطر علينا ويستغلنا؟»^(٤٠). لقد أراد دولوز وكواتري لهذا الكتاب أن يكون «قطعة حدث بوحدها انطلاقاً من موضوعين: اللاشعور ليس مسرحاً وإنما هو كمعمل، كآلة انتاج. ثم ثانياً اللاشعور لا يهذي حول أبي - أمي، بل انه يهذي حول الأجناس والقبائل والقارات والتاريخ والجغرافيا أي دائماً حول حقول اجتماعي»^(٤١). كيف نتصور الجسد؟ «توجد آلات في كل مكان، ليس بمعنى استعاري مطلقاً: هناك آلات الآلات باقتراناتها وارتباطاتها. هناك آلة - عضو موصلة بآلة - مصدر: الأولى ترسل تدفقاً تقطعه الأخرى. فالثدي مثلاً آلة تنتج حليباً والضم آلة مفرقة به عليه»^(٤٢) كيف نتصور الرغبة إذن؟ الرغبة هي «تلك المجموعة من التركيبات المنفعلة للرغبة . . ان الرغبة لا ينقصها أي شيء، لا ينقصها موضوعها. إن الذات هي التي تنقصها الرغبة أو لنقل: ان الرغبة تنقصها الذات الثابتة: ليست هناك ذات ثابتة إلا

(36) Gilles Deleuze et Félix Guattari "mai 68 n'a pas eu lieu" les nouvelles, 3-10 Mai 1984. p.75.

(37) Ibid. p.75.

(38) Ibid.

(39) Gilles Deleuze, magazine littéraire n°257 p.16.

(40) Michel Foucault. Ibid p.50.

(41) Gilles Deleuze. Ibid p.21.

(42) Gilles Deleuze et Félix Guattari "Schizophrenie et capitalisme: I- L'anti-oedipe" col: critique. Edit. Minuit, p.7.

بالقمع»^(٤٣). ومن ثمة فالتعارضات قائمة بين الطبقة وما هو خارج الطبقة، بين خدام الآلة وأولئك الذين يحطمونها أو يحطمون دواليبها، بين نظام الآلة الاجتماعية ونظام الآلة الراجعة. إن الآلة الاجتماعية قطعة غيارها هم الناس حتى لو اعتبرناهم مع آلاتهم، فالآلة الاجتماعية تدجهم وتستبطنهم في نموذج مؤسساتي عبر كل مراحل الحركة والنقل والقوة المحركة. ومن ثمة فهي تشكل ذاكرة بدونها لا يمكن أن يحدث تدابؤ بين الإنسان وآلة التقنية، لأن هذه الآلات التقنية لا تشمل بالفعل شروط إعادة إنتاج سيرها، فهي تميل إلى آلات اجتماعية توظرها وتنظمها ولكن أيضاً تحد وتكبح تطورها. هكذا تتحدد طريقة التحليل الفصامي. وهي طريقة رغم اعتمادها على ماركس، وتؤمن بالاقتصاد، إلا أنها ترفض كل سببية مباشرة أو جدلية. فالبرغم من عملية صياغة الأوليات التي تقوم بها الرأسمالية فإن الرغبة تظل حاضرة لا تكتفى (انتظار الجنة) ولكن كطاقة.

يتبنى جون فرانسوا ليونار أيضاً، كدولوز وكواتري، سياسة التحليل الفصامي -schizoanalyse، غير أنه يختلف معهما باستبعاده لكل تحليل نظري، وبدعوته إلى «انحراف لبيدي» *dérive libidinale*، فالثنائية بين الآلات الراجعة والآلات الاجتماعية التي يوحى بها كتاب «ضد - أوديب»، تظل سحينة الخطاطة الماركسية حيث يتم الاعتقاد على أنها أساس الاستلاب. إنها إذن تحافظ داخل عدميتها على فكر سياسي نقدي. أما ليونار فإنه يعتقد بضرورة التخلي عن أي طموح من هذا النوع وتجاوز «الإرهاب» المرتبط بالموقف النقدي.

يبدأ هذا المشروع الذي حددنا معالمه مع كتاب «الخطاب، الشكل»^(١٩٧١)، الذي يحاول طرح نقد للأيديولوجيا من خلال التأكيد على أهمية الفن، مقابل الخطاب الذي أعطيت له الأولوية في الفكر الغربي منذ أفلاطون. وليس المقصود هو إعطاء أولوية للشكل، وإنما بيان حقه «كمجال شكلي» *espace figural* متنوع وغير قابل للاختزال، يطبع الخطاب ويتجاوز التمثل. ومن هنا يدخل ليونار في جدل مع النظرية الفرويدية في العمل الفني، حيث يرفض الطابع الاستيهامي الذي يفسر به فرويد هذا النتاج، مؤكداً على أن نموذج الفن الحديث - الذي لم يستوعبه فرويد - ليس نموذجاً تمثلياً ولا تمثلياً يحفظ الشكل الجميل، بل هو فن يؤكد الأشكال الجميلة ويكسر الذات والجميل والذوق.

(43) Ibid p.34.

وفي كتابه «الاقتصاد الليبيدي» يؤكد على ان الاقتصاد السياسي يخفي الاقتصاد الليبيدي، وهو يدخل في جدل مع النظرية الماركسية: إذ هناك ماركس الذي يكشف قوة الرأسمال وهناك ماركس - الطفلة الصغيرة - الذي يكشف الاستلاب ويظل مسيحياً هيغلياً يؤمن بالذات - البروليتاريا - والماهية - قوة العمل - . لذلك ينتقد ليوتار الخطاب النقدي: «يظل النقد عقلياً في العمق، مطابقاً بشكل عميق للنظام واصلاحياً من حيث العمق: ان النقد يظل في نطاق الشيء الذي ينقده، فهو ينتمي إليه»^(٤٤)، فبالرغم من النوايا المتعارضة بين الخطاب النقدي والنظام، فإننا نصل إلى شيء واحد «الحفاظ على العلاقة السلطوية». إذن ما القول؟ ما العمل؟ يجب أن نحدث انحرافاً عن النقد de-rive، يجب أن نتجاوز مع نيتشه العدمية المثيرة للشفقة إلى عدمية نشيطة: «عندنا عدمية هلعة ومثيرة للشفقة تعتبر ان لا شيء يحمل قيمة، وعدمية نشيطة تجيب: لا شيء يحمل قيمة. هذا أحسن، فلنسر في هذا الاتجاه»^(٤٥). السير في هذا الاتجاه يتطلب الانحراف عن النقد كما تنحرف الرغبة التي تحطم شيئاً فشيئاً النظام الحالي: «بالنسبة للملايين الشباب . . . فإن الرغبة لا تدخل أبداً في التطور الرأسمالي . . . إنهم لا يجدون أنفسهم ولا يتصرفون أبداً كقوة عمل يتم إعطاء قيمة لها من أجل التبادل أي الاستهلاك . . . انهم يشمئزون مما يصير الرأسمال على تسميته بالعمل والحياة الحديثة والاستهلاك، وكل قيم الأمة كالأسرة والدولة والملكية والمهنة والتربية هي قيم يعتبرونها محاكاة كاريكاتورية للقيمة الوحيدة السائدة: قيمة «التبادل»»^(٤٦) إن ما يحققه الجيل الجديد هو شكية الرأسمال وعدميته «فليست هناك أشياء ولا أشخاص ولا حدود . . . ولا معارف ولا معتقدات . ليست هناك أسباب للحياة/ الموت. غير ان هذه العدمية هي في آن واحد التأكيد الأقوى: انها تشمل التحرر الامكاني للدوافع بالنسبة لقانون القيمة»^(٤٧). تصبح الدوافع إذن ضد القيمة والليبدو ضد المال والتلذذ ضد الضرورة. غير أننا لا يجب أن ننخلع بهذا الكلام: «فالأمر لا يتعلق عند ليوتار بإقامة مبدأ ضد آخر بإقامة نظام الانفعال ضد نظام العقل»، بل الأمر يتعلق عنده بإقامة: «فوضى ليبيدية، انحراف رغبة، حرية مطلقة للتلذذ دون رجوع إلى أصل أساسي ودون إقصاء لحب الرأسمال نفسه . . . يقودنا ليوتار إلى

(44) jean François Lyotard. économie libidinale. Minuit 1974.

(45) Politique des philosophes. Coll. figures Grasset 1976. p.126.

(46) cité par François Chatelet in "histoire des idées politiques" op. cit. p.279.

(47) Ibid p.279.

عدمية متطرفة» (٤٨).

وهل يمكن بعد هذا أن نذهب إلى عدم أكبر؟ هناك شخص يؤمن بذلك : انه جون بودريار الذي يأخذ على الثلاثة : فوكو - دولوز - ليوتار الانتفاء إلى منطق انتاجي *logique productiviste* أي إلى أمر إنتاج، فعندهم يعوض الليبدي الاقتصاد السياسي ويحل نموذج تكييف اجتماعي أكثر تدفقاً بالنفسي والجنسي محل نموذج تكييف عنيف وقديم بالعمل . فلا أحد منهم يذهب إلى نهاية نقد الارثذوكسيات الماركسية والفرويدية . ان بودريار يهتم بمجال التمثلات وبالنظام الرمزي الذي يميز مجتمعاتنا وهو لعبة الاستهلاك . وعلى خلاف ما كان في عهد ماركس : أولوية الانتاج - العمل - القيمة ، فإن ما يحدث في عهد بودريار هو أولوية الاستهلاك - المجتمع الاستهلاكي . ففي كتابه الأول «نظام الأشياء» (١٩٦٨) يركز بودريار على تأثير الابداعات التكنولوجية على الحياة اليومية بخلق عالم أشياء جديدة ، هذه الأشياء التي غيرت من معناها (المادة - التطبيق) لتصبح نظاماً منسجماً من الرموز ، وهو نظام لا يمكن فهم مفهوم الاستهلاك إلا بالتركيز على تحليله . وفي كتابه «مجتمع الاستهلاك» (١٩٧٠) يؤكد بودريار على أن الاستهلاك هو الذي أصبح أخلاق عصرنا ، وأن التوازن القديم الذي كان قائماً في الفكر الغربي بين الجذور الميثولوجية وعالم اللوغوس أصبح في خطر ، وأن التوازن الجديد هو الاستهلاك وإدائه . إن الاستهلاك أسطورة قبلية جديدة ولها طقوس خاصة هذه الأسطورة تخلق هوامشها : وسائل الإعلام ، الجنس وأوقات الفراغ . وفي كتابه «من أجل نقد للاقتصاد السياسي للرمز» (١٩٧٢) ، يحدد بودريار البضاعة كرمز والرموز كبضاعات ، وهذا بالضبط ما يحدد ماهية مجتمع الاستهلاك نفسه . وبودريار يعمل على موازنة التحليل الماركسي للبضاعة بتحليل للرمز . وهو يطور هذا التحليل في كتابه «مرآة الانتاج» (١٩٧٣) حيث يلح على ان الماركسية أنتجت نموذجاً إنتاجياً جديداً : فيتشبة العمل ، وأنه يجب أن نكسر مرآة الانتاج التي يفكر بواسطتها الغرب ويبنى ميثافيزيقاه ، كما يجب أن ننزع عن الجدل طابعه الاقتصادي .

ويمثل كتابه «التبادل الرمزي للموت» (١٩٧٦) قمة هذا التكسير ، انه يؤكد على ضرورة اعتبار السلطة خديعة وانها ليست كذلك إلا لأنه يتم تبادلها وتمارس عبر دورة الفتنة والتحدي والمكر . انتهى الانتاج إذن - والثورة مجرد وهم واللعبة الوحيدة هي لعبة

الموت: «إن الرد الفعال على السلطة هو أن نعيد إليها ما منحتنا وهذا لا يمكن رمزياً إلا عبر الموت»^(٤٩). لذلك يبدو الموت: «السلاح المطلق وتهديده الجماعي البسيط للسلطة يمكن أن يجعل السلطة تنهار. أمام هذا «الابتزاز» الرمزي الوحيد (متاريس ٦٨. الرهائن)، فإن السلطة تنحل: بما أنها تعيش بموتى البطيء فإنني أعارضها بموتى العنيف. ولأننا نعيش بموت بطيء فلذلك نحلم بموت عنيف. هذا الحلم نفسه لا تحتمله السلطة»^(٥٠).

ينتهي هذا التحليل إذن إلى أنه أمام السلطة التي تعطي كل شيء لا يمكن أن نعارضها بعدم الطاعة أو بالمقاومات (فوكو) أو بالرغبة (دولوز) أو الانحراف الليبدي (ليوتار)، لأن هذه كلها تشكل جزءاً من السلطة نفسها. أمام السلطة التي تعطي كل شيء لا يمكن أن نعارض إلا بالموت.

يمكن أن نقرأ في هذا الخطاب إما أزمة في السياسة (لوفور، كلاستر، كاستورياديس، لوجوندر)، أو موتاً للسياسي نفسه («الفلاسفة الجدد»). وسنقف في الفصل القادم عند هذين الجانبين.

(49) Ibid p.280- 281.

(50) Ibid p.281.

القسم الثالث:

«الفلاسفة الجدد» جنيالوجيا الشر وأخلاقية المقاومة

"Mal radical plus Refus Judaïque de toute
figuration de l'Idéal: telle est la leçon
qui se réduit de la désaffection du Marxisme"
Jean- Michel Besnier

حددنا في الفصل الأول ثوابت «جنيالوجيا» المثقف وهو يحاول بناء «جنيالوجيا» السلطة: حساسية يهودية، أخلاقية سقراطية، تشكيك مستمر في الذات. هذه الثوابت نبعت إنطلاقاً من قضية دريفوس وحضرت بكل ثقلها في سياسة آلان. . ما حدث مع جيل «الأزمة الحديثة» لم يكن تحطياً لمرآة المثقف بقدر ما كان أصلاً، محاولة للتساؤل حول كيفية بناء هذه المرآة نفسها: هل نبنينا على أساس «طبيعة بشرية» أبدية، أم على أساس فلسفة تاريخ عملية؟. هل نعيد «جنيالوجيا» السلطة إلى أساس «الطبيعة البشرية»، نفسها، أم إلى سيطرة الإنسان على الإنسان: سيطرة الطبقة، النخبة، الجماعة الضاغطة؟. ان هذا التحول الهيكلي في السؤال هو ما أحدث قطيعة جيل «الأزمة الحديثة» مع «جيل الأساتذة».

غير أن فلسفة التاريخ هذه، التي شكلت أساس رؤية جيل «الأزمة الحديثة» لإشكالية المثقف والسلطة، لعبت هي بنفسها نفس الدور - العائق الذي لعبته فكرة «الطبيعة البشرية» بالنسبة لجيل الأساتذة. إذ أن ما حدث مع جيل «فكر الاختلاف» لم يكن هو أيضاً تحطياً لمرآة المثقف بقدر ما كان أصلاً محاولة للتساؤل حول إعادة - بناء هذه المرآة نفسها: التاريخ لا يملئ الحل، الدولة الإشتراكية لا تنهار، والدولة الليبرالية تميل أكثر إلى خلق فاشستيتها الخاصة من أعلى. . لا يمكن إذن أن نفكر في السياسة ضمن آفاق فلسفة التاريخ. إذ كيف إذن يمكن ذلك بعد كل هذه التكذيبات؟ كيف يمكن بعد هذا أن نفكر في حكومة صالحة ودولة مشروعة؟، لم يصبح السؤال: كيف نجد مكاننا في التاريخ؟، بقدر ما أصبح ما السلطة، ما هذا الشيء الذي يقهرنا؟. يعيد المثقف بناء مرآته باسم الاختلاف والتعدد والتكثُر. . لكن هذا يعيد خلط الأوراق ويضرب المرأة نفسها. . .

مع فوكو ستبدأ مغامرة جديدة، مغامرة سوف لن تقتصر على التساؤل حول وضعية المثقف بل بداية الإعلان عن... وفاته. يميز فوكو بين المثقف «الكوني» والمثقف «المتخصص»، المثقف الكوني يعتبر نفسه مالك الحقيقة والعدالة: «أن يكون المرء مثقفاً،

معناه أن يكون ضمير الجميع وممثل الكل»^(١). إنه ضمير البروليتاريا بامتياز والكاتب الحقوقي. أما اليوم، فالمثقف المتخصص مثقف في حدود معينة، في نقط دقيقة ومجالات محدودة. إنه لا يكون مثقفاً إلا في مجالات اختصاصه، في ظروف عمله وشروط حياته ومشاكل خاصة. المثقف التقليدي الذي أنتجته قضية دريفوس حقوقي - شرفي Ju-riste-notable. أما المثقف الجديد الذي أنتجته ثورة ماي ٦٨ فهو عالم متخصص-savant expert يقول ميشيل فوكو: «كان المثقف حتى وقت قريب هو الكاتب بامتياز: ضمير كوني وكائن حر يتعارض مع كل أولئك الذين كانوا يُعتبرون مجرد مؤهلات في خدمة الدولة والرأسمال (مهندسون، كتاب، أساتذة...)». إن عتبة الكتابة التي كانت خاصة مقدسة تلاشت اليوم»^(٢). موت المثقف التقليدي هو انهيار نظرية التمثيل: «ما اكتشفه المثقفون منذ الرجة الحديثة، هو أن الجماهير لم تعد تحتاج إليهم لمعرفة واقعها، إنما تعرف ذلك تماماً وبوضوح، وبشكل أحسن منهم، وتقله بشكل أحسن. لكن يوجد نظام من السلطة يسد ويمنع ويقلل من قيمة هذا الخطاب وهذه المعرفة. سلطة لا توجد فقط في الأوامر العليا للرقابة ولكن تتجذر بعمق وبدقة في كل شبكة المجتمع. والمثقفون أنفسهم يشكلون جزءاً من نظام السلطة هذا، وفكرتهم القائلة بكونهم أدوات «الوعي» والخطاب، تشكل أيضاً جزءاً من هذا النظام. لم يصبح دور المثقف إذن هو أخذ مكان، «أمامي وجاني»، لكي يقول الحقيقة الصامتة للجميع، ولكن قبل ذلك أن يصارع ضد أشكال السلطة في المكان الذي يشكل فيه موضوعها وأدواتها في نفس الوقت: في نظام «المعرفة»، في نظام «الحقيقة»، في نظام «الوعي» و«الخطاب»^(٣). وقبل فوكو اضطر سارتر نفسه تحت وطأة الضربة القوية التي أحدثتها ثورة ماي ٦٨ في ذات المثقف، إلى تغيير تصوره للمثقف: «إن أحداث ماي ٦٨ التي انخرط فيها، والتي مسته بعمق، كانت بالنسبة له فرصة لمراجعة جديدة. لقد أحس بتشكك مس وجوده كمثقف، ومن ثمة اضطر، في غضون السنتين اللاحقتين، إلى التساؤل حول دور المثقف، وإلى تغيير التصور الذي كان لديه عنه»^(٤). هذا التصور الجديد - وهذه مفارقة - لا يختلف كثيراً عن تصور فوكو: «إن المثقف محكوم عليه بالانسحاب من الأفق كإنسان يفكر بدل الآخرين:

(1) Michel Foucault. Dialogue avec M. Fontana. L'arc 70. p.22.

(2) Ibid p.22 - 23.

(3) Michel Foucault. Dialogue avec Gilles Deleuze: "les intellectuels et le pouvoir". L'arc n°49. nouv. édit. 1980, p.4.

(4) Simone de Beauvoir, in "la cérémonie des adieux". op. cit. p.15.

أن نفكر بدل الآخرين ، أمر غير معقول يضع مفهوم المثقف نفسه موضع سؤال»^(٥).
ربما يعود مصدر هذه المفارقة إلى أن سارتر كان يبذل ويجدد مواقفه باستمرار .
الحديث عن هذه المواقف يحيلنا إلى الحديث عن أدبيات التشكيك في دور المثقف ،
وهي أدبيات غنية متنوعة تضطر هنا للوقوف عند أهم معالمها .

تجدر الإشارة أولاً إلى كتاب جوليان بيندا Julien Benda الشهير «خيانة القساوسة» la trahison des clercs الذي نبع من قضية دريفوس أساساً ، فعند هذا المؤلف نجد أن دور المثقفين هو دور القساوسة : إنهم أولئك الذين يتمثل نشاطهم بطبيعته في عدم السعي إلى غايات عملية ، ولكنهم يطلبون سعادتهم في ممارسة الفن أو العلم أو التأمل الميتافيزيقي ، وباختصار في امتلاك خير متعال عن الزمن ، يقول المثقف بمعنى من المعاني : «إن مملكتي ليست من هذا العالم»^(٦). غير أن بيندا يضع يده على أصل الداء ، ويلاحظ بشكل دقيق : «أنه في أواخر القرن التاسع عشر حدث تغير كبير: لقد أصبح القساوسة يتعاطون للأهواء السياسية ، فأولئك الذين كانوا يشكلون زجراً لواقعية الجموع أصبحوا هم مثيريها»^(٧). من بين الأهواء التي سيطرت على توجهات المثقفين : الأهواء العرقية (النزعات العرقية - نيتشه) ، والأهواء الطبقية (ماركس ، منظرو البورجوازية) ، والأهواء القومية (الفكر الألماني) . وهذا ما شكل تحولاً في طريقة تصور موقع السياسي : «السياسة أولاً ، يريد داعية الروح المعاصرة . السياسة في كل مكان ، يلاحظ هذا الداعية . السياسة دائماً والسياسة وحدها»^(٨) ، وهذه هي خيانة المثقفين أو خيانة القساوسة .

ويوظف إدوارد بيرث Edouard Berth كلاً من سوريل وبرجسون ونيتشه ضد المثقفين . فالمثقفون هم «بيروقراطيو الفكر» ، قضية دريفوس هي صانعتهم ، بل هي التي صنعت العسكري المثقف وأفقدته روح البطولة . يقول الكاتب في مؤلفه : «مساوئ المثقفين» : «لقد كانت قضية دريفوس في جزء كبير منها صراعاً بين المثقفين والعسكر ، غير أن ما بدا مهولاً بالفعل هو أن المثقفين ظهروا أكثر بطولية من العسكر ، الذين أظهروا أنفسهم خطباء من الدرجة الأولى ، أكثر منهم رجال حركة . وفي الحقيقة ليس هناك أقل عسكرياً من عساكرنا المحدثين ، لقد أصبحوا مثقفين ومدنيين ، أي أنهم فقدوا الإحساس الحقيقي

(5) Sartre: "autoportrait à soixante dix ans". op. cit. p.168.

(6) Julien Benda, in "la trahison des clercs". Grasset, 18ème édit. 1972 p.54.

(7) Ibid. p.56.

(8) Ibid. p.14.

بالبطولة والشرف»^(٩). نشتم في هذا التشكيك في قيمة المثقفين رائحة نبتشه الفرنسي في بداية القرن العشرين: «هذه الطائفة، المثقفون، الذين في سيطرتهم على الدولة يحاولون فرض مثال ذي طعم كره على المدنية الحديثة وإلغاء القيم البطولية القديمة، الدينية الحربية والوطنية، كقيم عمالية حديثة، والتي تدعى نموذجاً إنسانياً سلبياً وعقلانياً»^(١٠).

وفي كتاب سجالي لريمون آرون «أفيون المثقفين»، يتحدث الكاتب عما يسميه بـ«الأساطير الثلاث» للمثقفين: اليسار، الثورة، البروليتاريا: «إن ميثولوجيا اليسار هي تعويض وهمي عن الهزائم المتتالية (١٧٨٩ و ١٨٤٨) . . . فاليسار والثورة والبروليتاريا، وهي مفاهيم موضوعية، ردود متأخرة لأساطير كبرى أصبحت تنعش التفاؤل السياسي، التقدم والعقل والشعب»^(١١). فليس هناك يسار أبدي عبر التاريخ وعبر مختلف الظروف، له نفس القيم ونفس المطامح. إن الصراع حول «وحدة اليسار» يخفي اختلافات عميقة: «فاليسار لم يكن إيديولوجياً منسجماً، فهو تارة معاد للدولة وتارة معاد للنزعة التنظيمية وتارة داعية مساواة»^(١٢). وفيما يخص الثورة والبروليتاريا حاول ريمون آرون «أن يرد الشعر الإيديولوجي إلى نثر الواقع»، فأسطورة الثورة تعمل كامتلاء للفكر الطوباوي، وكمعدل بين الواقعي والمثال. ومن ثمة تسقط في جاذبية العنف (ضد سارتر وميرلوبونتي وألبير كامو)، وفي «عبادة التاريخ». ويشير ريمون آرون إلى العلاقة بين من أساهم بـ«رجال الكنيسة»، أي الشيوعيين الذين يقبلون بأرثوذكسية الحزب. و«رجال الإيمان»، أي أولئك الذين يفكرون على هامش الماركسية Paramarxistes كميرلوبونتي والمسيحيين اليساريين الذين يخدمون - في رأيه - المبادئ الأساسية للإيمان (رسالة البروليتاريا، خلاص البروليتاريا)، دون الخضوع حرفياً لأرثوذكسية الحزب.

ويخلص في الأخير إلى وضع تصنيف للمثقفين بالمقارنة بين مثقفي مختلف الدول ومواقفهم تجاه الوطن، والسجلات المميزة لكل جماعة منهم. تصنيف يخلص إلى القول: «إن فن المثقفين البريطانيين يتمثل في اختزال بعض الصراعات ذات الطبيعة الإيديولوجية إلى مصطلحات تقنية. وفن المثقفين الأمريكيين هو تحويل صراعات تمس الوسائل أكثر

(9) Edouard Berth, in "les méfaits des intellectuels". Paris, Marcel Rivière et Cie 1914 p.230.

(10) Ibid. p.335.

(11) Raymond Aron. mémoires op. cit. p.321.

(12) Ibid. p.320.

من الغايات إلى صراعات أخلاقية. أما فن المثقفين الفرنسيين فهو تجاهل المشاكل الخاصة بالأمّة وأحياناً تضخيمها بواسطة إرادة متعجرفة تعتقد التفكير من أجل الإنسانية أجمع»^(١٣).

اعتقاد المثقفين الفرنسيين في «التفكير من أجل الإنسانية أجمع»، هو ما نجد اليوم أنفسنا أمامه مع خطاب «الفلاسفة الجدد». يقول أحد أبرز رواد هذا الجيل في هديان منسق: «لو كنت فيلسوفاً موسوعياً لأعدت كتاباً ما يلي في قاموس لسنة ٢٠٠٠: «الإشترابية، اسم مؤنث، نمط ثقافي نشأ في باريس سنة ١٨٤٨ ومات بباريس سنة ١٩٦٨»^(١٤). ويقول في هديان آخر: «يجب أن نكتب في قواميس سنة ٢٠٠٠: «المثقف، اسم مذكر، فئة اجتماعية وثقافية نشأت في باريس زمن قضية دريفوس، وماتت في باريس أواخر القرن العشرين»^(١٥). هذه النزعة الباريسية الضيقة هي ما نجد اليوم أنفسنا أمامه ونحن نحلل خطاب «الفلاسفة الجدد»: «إنه تعريف النزعة الباريسية نفسها افتراض أن المثقف هو مركز العالم والفكر»^(١٦).

(13) Raymond Aron: l'opium des intellectuels. Gallimard 1968. p.258.

(14) Bernard Henri Lévy: La barbarie à visage humain. Grasset. Figures.

(15) Bernard Henri Lévy: Eloge des intellectuels. B. Grasset, Paris 1987. p.48.

(16) Marc Kravetz. Libération, 14 Juin 1979.

الفصل السابع

أسطورة «الفلاسفة الجدد» / أسطورة «الفلسفة الجديدة»

"A chaque rentrée scolaire, commence une nouvelle époque".

DE MUSIL.

*"Ce n'est pas la "nouvelle philosophie", mais de nouveau
la philosophie. La faculté d'ouvrir les yeux et de s'étonner.
Le refus de se laisser entraîner sur les rails d'une pensée
toute faite, issue il y a un siècle et demi, d'un illustre barbu".*

André Glucksmann

تتبعنا في الفصل السابق ظاهرتين فكريتين عامتين طفتا على سطح الفكر الفرنسي منذ أواخر الخمسينات: الاندحار التدريجي لفلسفة التاريخ الشمولية ونشوء خطاب فلسفي - سياسي حول التوتاليتارية.

أشرنا متحدّين عن اندحار فلسفة التاريخ إلى نقد كلود ليفي ستراوس وفوكو لسارتر كممثل لجيل «الأزمة الحديثة»، ونقد ليونار وبودريار لماركس كمبدع للمادية التاريخية. مشروع فيلسوف وباحث اجتماعي ككاستورياديس Castoriadis يدخل في هذا الإطار.

إن ما عمل عليه كاستورياديس هو إيضاح كيف أن التفكير في الثورة لم يعد يخضع لموجهات الماركسية الأرثوذكسية. إن كاستورياديس ينطلق من نقد لتصورات المادية التاريخية ليصل إلى تصور جديد فيما يخص العلاقة بين الزمنية والمجتمع: «ليس الاستغلال هو المشكلة المركزية، بل المشكلة هي كون كل تواصل إنساني حقيقي قد تحطم، وكون قدرة الناس على أن يخلقوا بدون توقف وبالاعتماد على أنفسهم أشكالاً جديدة للعلاقات مع العالم ومع الآخرين قد تهدمت»⁽¹⁾. لذلك فالتاريخ يجب أن يكون أساساً - في رأي كاستورياديس - إبداعاً وخلقاً مستمرين، يجب أن يكون شيئاً عارضاً،

(1) Jean François Lyotard, in "économie libidinale" Minuit 1974, p.142.

انه قوة شعرية Poésis. وإذا كان ذلك كذلك، فإن النتيجة الأساسية هي انه يجب التخلص من الماركسية كفلسفة للتاريخ وكمعرفة للصيرورة وضرورتها، وذلك «لأنه لا توجد معرفة صارمة حول المجتمع والتاريخ ولا يمكنها أن توجد مطلقاً»^(٢) ومن ثمة فالسؤال السياسي عند كاستورياديس ينشأ من خلال «طرح المجتمع لتخيله المجتمعي المقام»، أو هو «الإقامة التخيلية للمجتمع»، وهو عنوان كتاب شهير لكاستورياديس. وهذه الصياغة الجديدة لمشكلة المجتمع تجعل الكاتب يقف ضد كل نظرية، لأن النظرية في عرفة: «تدعي امتلاك - أو إمكانية امتلاك - معرفة حول كينونة التاريخ وكينونة المجتمع وكينونة الانسان»^(٣). ومقابل إقصائه لفلسفة التاريخ الماركسية باعتبارها أولاً غير مطابقة للوضع - إذ لا السببية الاقتصادية ولا مبدأ الوعي الطبقي بإمكانها فرز وتفسير لحظة دقيقة من التاريخ - وباعتبارها ثانياً غير ضرورية - لأنها تختزل التاريخ في خطاطات بسيطة - بل وباعتبارها ثالثاً خطيرة - لأنها تقدر الحاضر بالنسبة للماضي.

يطرح كاستورياديس «رؤية جديدة، وتصوراً إيجابياً للسياسة يسير في خط مواز لقطعية في الفكر الفلسفي والانطولوجي الموروث، ويتضمن تصوراً جديداً للعلاقة بين الفكر الفلسفي والسياسي. فالفكر الكلاسيكي يدعي أنه يمتلك رؤية نظرية لما هو كائن في محدداته «الماهوية» أو «الأساسية»، وهو ما سيحدد أيضاً في نظره ما يمكن عمله. هذا نجده عند أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وعند كبار المثاليين الألمان، ولكن نجده أيضاً عند ماركس في آخر تحليل. فعند ماركس وبالنسبة له، توجد نظرية للمجتمع والتاريخ توضح في نفس الوقت ما هو كائن وما سيكون الأمر عليه في مرحلة لاحقة»^(٤). وهذا ما يلغي السياسة نفسها ويحولها إلى مجرد «تقنية سياسية»، تتدخل في اللحظة المطلوبة. ويطرح كاستورياديس مقابل ذلك فكرة الإبداع الخلاق كموجه للتاريخ: «إن التاريخ كإبداع للمجتمع باعتباره دائماً مقاماً ومقيماً (لا يمكن للمجتمع أن يوجد ويتقدم إلا كمجتمع مقام - ولكن أيضاً كإقامة لإبداعه الخاص). . . . التاريخ هو إبداع ذاتي وإقامة ذاتية مستمرة للمجتمع»^(٥). كل هذا من أجل إقامة تصور جديد للبراكسيس. ويسير نقد فلسفة التاريخ في الفكر الفرنسي المعاصر في خط متواز مع نقد السلطة،

(2) Cornélius Castoriadis, dialogue, esprit n°2 Février 1977, p.202.

(3) Ibid p.203.

(4) Ibid.

(5) Ibid. p.204.

كلود ليفي ستراوس إلى جانب ميشيل فوكو، وكاستورياديس إلى جانب بيير لوجوندر
Pierre Legendre .

يؤكد بيير لوجوندر على أن هيمنة اللاهوت تؤمن سيطرة مؤسسة الدولة المركزية. فبالأمس كانت هناك هيمنة دينية واليوم هناك هيمنة علمانية. لقد علم اللاهوت الدولة كيف تلعب بالرغبات الجنسية وتفرض عليها نظام رقابة، ولكن أيضاً علمها كيف تصبح موضوع حب: «نلمس المؤسسات بأعيننا ويمتد بيننا وبينها الممنوع، الذي يطرح القانون من خلاله كمجال اجتماعي للخطاب وقد غطاه المشرعون. تنفرد الدولة التي وصفتها السكولائية الغربية بالروح بدل أن يتحدث اللامرئي الذي يعني رغبة سيد بدون اسم. هذه الرغبة توجد مكتوبة من طرف خرافة الدولة، وبالفرنسية في النص الكبير منذ العصور الحديثة»^(٦). هذه الدولة تخلق أسطورة الواحد L'Un، وهذا الواحد هو كإله أفلوطين «يستبطن السلطة الأبدية، والأنوار تعمينا، إننا لا نفهم من أمره شيئاً»^(٧). إن السؤال الذي يسمح التحليل النفسي وسياسة اللاشعور بطرحه هو كسؤال المتوحشين: كيف تعمل السلطة للسيطرة علينا؟. هذا السؤال يحضره العلم السياسي الرسمي، فالعلم السياسي خطاب سيد. فعلياً إذن أن نطرح هذا السؤال على هامشه إذا نحن أردنا أن نفهم فعلاً هذه «الأشياء اللامعقولة السورالية».

إن ما يجب أن نلاحظه أولاً هو أنه «في اللعبة الأبدية للمؤسسات، يفترض القانون أصناماً يوجه الحب إليها باستمرار»^(٨). وكدولوز وكواتري وليوتار يعمد بيير لوجوندر إلى استلهم التحليل النفسي: «يجب ألا نجابه عالم المؤسسات بالأفكار بل بالاستيهامات»^(٩). بالاستيهامات وحدها يمكن الدخول إلى عالم تكرار النص الكبير حيث توجد الحقائق التي يتبناها الخطاب الذي يهذي حول القانون وتتجدد». إن المؤسسات تستهلك الملايين من البشر ليس فقط بتأثير الآلية الاقتصادية أو حسب النظام الاجتماعي لعلاقات قوى الإنتاج، ولكن أيضاً باحترام ومساعدة هذان مقدس»^(١٠). طابع القداسة هذا وحده هو الذي يضمن إعطاء معنى للسلطة: «فإذا

(6) Pierre Legendre "jouir du pouvoir": traité de la bureaucratie Patride. édit. Minuit 1976. p.9.

(7) Ibid. p.9.

(8) Ibid. p.13.

(9) Ibid.

(10) Ibid. p.20.

قطعناها عن جذر المعتقدات وآلية الرموز، فإن العلاقة مع السلطة تصبح غير مفهومة»^(١١).

هذا الخطاب حول السلطة يتقاطع مع خطابان متوازيان: الخطاب حول الطغيان والخطاب حول التوتاليتارية، ونقطة التماس بينهما هو الحديث عن الستالينية. وإذا كنا قد لمحنا إلى مصدر أول للخطاب حول الطغيان (الحوار الذي نقله زينوفان بين هيرودوت وسميونيد)، فإن هناك مصدراً آخر لم يكتشف بشكل جدي إلا في السبعينات، ويتمثل في كتاب مغمور «الخطاب حول العبودية الإرادية» لمؤلف من القرن السادس عشر يدعى إتيان دي لا بوتي Etienne de la Boétie.

إن السؤال الخطير الذي يطرحه هذا المفكر هو: «أريد فقط أن أفهم كيف يمكن لكل هذه الجماعات من الناس والمدن والأمم أن تتحمل أحياناً طاغية متوحداً ليس له من قوة إلا القوة التي تعطى له، وليس له من سلطة في إلحاق الضرر بهم إلا بقدر ما يريد الناس أنفسهم ضمان استمراريتها، وليس له أن يتسبب لهم في مضرة إذا لم يكونوا هم يحبون أن يعانون من بطشه أكثر من أن يناقضوا قوله؟»^(١٢)، وإتيان لا بوتي لا يقدم جواباً عن هذا السؤال بل يقدم فقط إمكانية جواب، إذ ربما يعود الأمر في رأيه إلى أن الناس «مفتنون ومسحورون باسم الواحد وحده»^(١٣). وهذا ربما يعود إلى «ضعف البشر».

إن هذا «السؤال التفكيكي» أنعش من جديد الفلسفة السياسية الفرنسية وأعطى ضوءاً جديداً لتحليل مفكرين سياسيين فرنسيين: كلود لوفور Claude Lefort وبيير كلاستر Pierre Clastres، ومجهود مفكر كمارسيل غوشيه Marcel Gauchet.

يصف كلود لوفور قول لا بوتي بأنه: «قول سياسي» حيث يتم من خلاله الانتقال من خطاب سياسي إلى خطاب حول السياسة. خطاب يقترب في بعض أصوله من ماكيافلي، ولكنه يحتفظ بإشكاليته الخاصة. كيف يمكن التفكير في مفهوم العبودية الإرادية: «هذا المفهوم الذي لا يمكن تصوّره، والمنحوت من تركيب ينفر اللسان من نقطه، لكي يشير إلى واقعة سياسية معادية للطبيعة»^(١٤) إن لا بوتي يستبعد كل التعليقات الطبيعية: فلا ندالة الناس ولا جبنهم ولا طمعهم يشكلون سبباً من أسباب العبودية الإرادية. إن لوفور

(11) Ibid. p.22.

(12) Etienne de la Boétie: "discours de la servitude volontaire" Payot. 1978.. p.15.

(13) Ibid.

(14) Ibid. p.247.

يؤكد على أن القراءة الغنية الوحيدة الممكنة للخطاب حول العبودية الإرادية هو اعتبار أن الكل يتمحور حول لعبة الواحد الذي يضمن هوية الجماعة ويعطي للحياة الجماعية معنى «ان محرك السيطرة يعود إلى الرغبة الموجودة في كل واحد . . في التماهي مع الطاغية من خلال صنعه من نفسه سيداً على الآخر»^(١٥) تماهي الواحد والنحن هو الذي يصنع إذن الطاغية . فالعبودية الإرادية وليدة سلسلة تماهي مزدوج : بالأول تعرف الجماعة نفسها في الواحد وتقبل بهذا قيادته . وبالثاني تضاعف من القيادة فتكون جماعات تمارس السلطة باسمها . وهكذا «فالطغيان يعبر المجتمع في كل مكان»^(١٦).

لم تقتصر مساهمة كلود لوفور على مجال الانتربولوجيا السياسية بل مست أيضاً الخطاب حول التوتاليتارية . فهو يؤكد على انه «لا يمكن أن نحقق خطوة واحدة إلى الأمام في معرفة الحياة السياسية في عصرنا دون التساؤل حول التوتاليتارية»^(١٧) وعنده أن الأشكال الثلاثة للتوتاليتارية الفاشستية، النازية، الستالينية، تتشابه في اعتمادها على نظام الدولة - الحزب، وعلى قوة الأيديولوجيا، وإبادة الخصوم من أجل ضمان وحدة الجسد السياسي، كما تتشابه في وظيفة الزعيم أو الدوتشه أو الفوهرر أو القائد الأعلى . ومن ثمة فلا يمكن تصور التوتاليتارية إلا بمقارنتها بالديمقراطية . لا تصبح الدولة التوتاليتارية قابلة لكي نبني حولها تصوراً إلا بالنظر إلى الديمقراطية وعلى أساس التباساتها . ان الديمقراطية هي نقض للتوتاليتارية نقطة بنقطة»^(١٨) . إلا أن هذا لا يعني ان التوتاليتارية حدث عارض شاذ، انها وليدة الديمقراطية نفسها : «إن الديمقراطية تمجد في نفسها قوة عدوة، ولكنها تحملها أيضاً في جوفها»^(١٩) ولهذا فمواجهة التوتاليتارية لا تمكن إلا بالإبداع المستمر للديمقراطية : «لا يمكن أن نصارع التوتاليتارية إلا بإعادة إبداع الديمقراطية باستمرار وليس بالحفاظ على المكتسب الذي يبدو دائماً تراجعاً . إن الإبداع الديمقراطي اليوم يتمثل في كل الاحتجاجات . . والثورات القادمة من الشرق والتي تعطينه معناه . إن هذه الاحتجاجات والثورات هي التي تظهر لنا أن الديمقراطية ليست ذات ماهية بورجوازية»^(٢٠).

(15) Ibid. p.301.

(16) Ibid.

(17) Claude Lefort: "l'invention démocratique" livre de poche, biblio. Essais, Fayard. 1981. p.11.

(18) Ibid. p.42.

(19) Ibid.

(20) Ibid.

أما بيير كلاستر فيرى في «السؤال التفكيكي» الذي طرحه لا بويتي سؤالاً عابراً للتاريخ، إنه سؤال يتعالى على التاريخ لأنه يطرح أن هناك شيئاً آخر ممكن ومن ثمة فهو يحقق انزلاقاً خارج التاريخ - المنطق، ويطرح مسألة سوء الحظ المؤسس أو الصدفة التراجيدية. فالانتقال من الرغبة إلى حب العبودية هو حدث غير عقلي، سقوط وفقدان لطبيعة الأشياء. «إن كل مجتمع منقسم هو مجتمع عبودي»^(٢١)، إنه وظيفة للآلات الاجتماعية. ومن ثمة: «فكل علاقة بالسلطة هي علاقة قمعية، وكل مجتمع منقسم يسكنه شر مطلق باعتباره مخالفاً لروح الطبيعة ونقياً للحرية»^(٢٢). غير أن تحليل لا بويتي يظل مجرد استنتاج منطقي في حين ما يطمح إليه بيير كلاستر هو إقامة تحليل تحريري: «ما لم يكن يعرفه لا بويتي، يمكننا نحن أن نبني حوله معرفة تجريبية لم تعد ناتجة عن استنتاج منطقي ولكن عن ملاحظة مباشرة»^(٢٣). هذه المعرفة التجريبية يجدها بيير كلاستر في الاثنولوجيا. لقد علمتنا الاثنولوجيا أن نميز بين مجتمعات ما قبل الحدث المأساوي ومجتمعات ما بعده، بين المتوحشين والمتحضرين، بين المجتمع والتاريخ - والحقيقة أن الوصف الحقيقي للمجتمعات «البدائية» هو كونها مجتمعات بدون دولة: «إن العلاقة بالسلطة تحقق قدرة مطلقة على التقسيم في المجتمع، وهي بذلك تشكل ماهية مؤسسة الدولة نفسها. إنها وجه الحد الأدنى للدولة. مقابل ذلك ليست الدولة إلا امتداداً للعلاقة بالسلطة وتعميقاً مطبوعاً باستمرار بطابع اللامساواة بين أولئك الذين يحكمون وأولئك الذين يطيعون. يمكن اعتبار المجتمع البدائي إذن كل آلية اجتماعية تعمل حسب غياب العلاقة بالسلطة، ومن ثمة فالمجتمع ذو الدولة هو كل مجتمع يتضمن عمله ممارسة السلطة، كيفما كانت درجة هذه الممارسة»^(٢٤).

ولكني أوضح بشكل جيد سر السيطرة، لا يكتفي بيير كلاستر بإعادة قراءة لا بويتي، بل هو يحاول تجديد الاثنولوجيا السياسية، واستخلاص بعض النتائج السياسية والفلسفية من خلال دراسة المجتمعات البدائية التي تظهر على أنها مجتمعات بدون دولة. يستخلص التصور المعاصر لهذه المجتمعات - تحت تأثير نزعة انتاجية تطويرية - إن هذه

(21) Pierre Clastres, in Etienne de la Boétie: "le discours de la servitude volontaire, op. cit. p.232.

(22) Ibid.

(23) Ibid, p.234.

(24) Ibid.

المجتمعات ناقصة وبالتالي فهي عاجزة. إن ما يحاول بيير كلاستر في كتابه «المجتمع ضد الدولة» أن يعمل على إبرازه: «هو إضفاء الطابع الإشكالي على إشكالية السلطة: فلا يبدو لنا بديهياً أن القسر والتجاوز يشكلان جوهر السلطة أينما وجدت ودائماً»⁽²⁵⁾ وبناء على هذا الطرح الجديد يصوغ كلاستر سؤالين إشكاليين: أولاً: ما السلطة السياسية، ما المجتمع؟. ثانياً: كيف يتم الانتقال من سلطة سياسية غير قسرية إلى أخرى قسرية، ما التاريخ؟. والاقتران بين هذين السؤالين اقتران إشكالي. إن هذين السؤالين يزعمان نزعة التمرکز الأوروبي حول الذات التي تتصور التاريخ وكأنه ذو اتجاه وحيد وكأن المجتمعات محكوم عليها أن تندمج في خط تطور المجتمعات الأوروبية الحديثة: «إن كل واحد منا يحمل في ذاته وبشكل مستبطن، كإيمان المؤمن، الاقتناع بأن المجتمع هو دائماً مصنع للدولة»⁽²⁶⁾. وضداً على هذه النزعة يرى كلاستر أولاً أنه لا يمكن الانطلاق من فكرة وجود مجتمعات ذات سلطة وأخرى ليست لها سلطة. إن فعل السلطة عالمي محايث لما هو اجتماعي ولكنه يمارس بطريقتين: طريقة قسرية وأخرى غير قسرية. وثانياً إن السلطة السياسية كسلطة قسرية ليست هي نموذج كل سلطة حقيقية ولكنها مجرد حالة خاصة مرتبطة بالمجتمعات الغربية ولا يمكن اتخاذها كنموذج تفسيري. وثالثاً، أنه حتى في المجتمعات التي لا توجد فيها مؤسسة سياسية ولا زعماء، فإن السياسة حاضرة ومسالمة السلطة مطروحة. فالسلطة ليست خاصية ضرورية للطبيعة الانسانية (ضد نيتشه)، ولكنها خاصية محايثة لما هو اجتماعي: «يمكن أن نتصور السياسة دون عنف، ولكن لا يمكن أن نتصور ما هو اجتماعي دون السياسة: وبكلمات أخرى لا يوجد مجتمع بدون سلطة»⁽²⁷⁾. ومن ثمة فكللاستر يخلص إلى ما يلي: «إن ما يظهره لنا المتوحشون هو ذلك المجهود الدائم من أجل منع الزعماء من أن يكونوا زعماء. إنه الرفض للتوحيد، إنه العمل على إقصاء الواحد، الدولة. يقال إن تاريخ الشعوب التي لها تاريخ، هو تاريخ الصراعات الطبقة. أما تاريخ الشعوب التي لها تاريخ فنقول بأنه تاريخ الصراع ضد الدولة»⁽²⁸⁾. إن هذا التعارض يتوافق مع تعارض ميتافيزيقي حاسم: «إن أنبياء المتوحشين واليونان القدماء يفكرون في نفس الشيء، الواحد. غير أن هندي كاراني يقول

(25) Pierre Clastres "la société contre l'état", édit. Minuit 1974 p.12.

(26) Ibid. p.161.

(27) Ibid. p.21.

(28) Ibid. p.186.

بأن الواحد هو الشر، في حين يقول هرقلitus بأنه هو الخير»^(٢٩).

ويلاحظ مارسيل غوشيه أن الاشكالية السياسية الحديثة ترتبط بإشكالية التوتاليتارية: «أن نفكر في السياسة اليوم يجب أن يكون أن نفكر أولاً في الدولة التوتاليتارية»^(٣٠). يريد مارسيل غوشيه أن يكون مشروعه النظري استمراراً لمشروع بير كلاستر: «إن دراسة «الشعوب التي لم تعرف الكتابة» وضعت أساساً موضع سؤال عالم تاريخ ذي شكل واحد متجه نحو التقدم في شكله التطوري المتلىء الساذج»^(٣١). يعي مارسيل غوشيه التحولات الحاضرة الآن في الفكر الفرنسي ويضع مشروعه النظري في إطار هذه التحولات: «لقد آن الأوان للشروع في عملية فحص مزدوج: فحص أولاً لهذه الفلسفات التي ادعت تحريزنا من أوهام التاريخ وحباط العقل وتوهمات الكلية. وفحص ثانياً للممارسة الحاضرة للعلوم الاجتماعية ورهاناتها الثقافية حيث أن النموذج الذي بنوا عليه مثال معرفة وضعية سجنهم»^(٣٢). إن التفكير الجديد في السياسة هو تماماً كما عند كلود لوفور تفكير في التوتاليتارية: «فالتوتاليتارية ليست بمعنى ما من المعاي إلا عودة المكبوت السياسي. معها نشأت مسألة طبيعة السياسي ومكانة السياسي ضمن الاجتماعي»^(٣٣). يصبح إذن من المستحيل أن يصيبنا العناء تجاه ستالين وهتلر وماو بعد كل هذا. والأمر ليس في بناء أخلاقية أو رفض للسياسة باسم الأخلاق بل: «لا يمكن التفكير في التوتاليتارية إلا ضمن الحقل السياسي وبمقولات سياسية»^(٣٤). فمن جهة أولى، فإن تحليل النظام الذي يختفي خلف غطاء الماركسية يرجع بنا إلى ما قبل ماركس ومجهوده من أجل تجاوز التفكير الكلاسيكي حول السياسة بمصطلحات التنظيم السياسي. ومن جهة أخرى يتعلق الأمر بتمديد تفكير ماركس وإعطائه طابعاً جذرياً: «فنحن نظل ورثة ماركس حين يطرح بدل إشكالية أنماط الحكم إشكالية الصراع الأهلي»^(٣٥). إذا كان التفكير الكلاسيكي تفكير انسجام فإن تفكير ماركس تفكير

(29) Ibid. p.185.

(30) Marcel Gauchet: "l'expérience totalitaire et la pensée de la politique" in esprit n° spécial "retour du politique" 7- 8 Juillet- Aout 1976. p.3.

(31) Marcel Gauchet: "le désenchantement du monde: une histoire politique de la religion: nrf Gallimard 1985. p.VIII.

(32) Ibid. p.XX.

(33) Marcel Gauchet: "l'expérience totalitaire". op. cit. p.4.

(34) Ibid. p.4.

(35) Ibid.

صراع، لكن ماركس يلغي في نهاية المطاف هذا الصراع بتقديم حل جهنمي له. وهذا هو جانب الظل في فكر ماركس: «هذا هو ما يظهر به من خلال تجربة عصرنا كنقطة سوداء في فكر ماركس: إنها المصادرة القائلة بالطابع الثائوي والممكن اختزاله للانقسام المجتمعي. هذه مصادرة لم يضعها ماركس أبداً موضع شك ولكن الماركسية المجسدة اليوم تجعلنا نضعها موضع سؤال: إمكانية قيام مجتمع غير منقسم»^(٣٦). هنا يوظف مارسيل غوشيه «فرويد ضد ماركس»، ذلك لأنه يمكن أن يكون فكر فرويد ذا بعد سياسي بارز باعتباره فكر عدم اختزال الصراع المؤسس للتكوين النفسي للإنسان»^(٣٧). فرويد حين يوظف ضد ماركس يوضح لنا أن ما يوحد بين الفاشستية والشيوعية هو تماهي المجتمع مع نفسه. إن هناك تكاملاً بين النظامين: «فليس هما صدفة أبناء نفس العصر، إنها نتاج مجتمع واحد ويعبر كل واحد بطريقته عن نزعة لا يمكن زجرهما مما ينتج عنه أن المجتمع يتنكر لنفسه»^(٣٨). ذلك أنه - وهذا ثابت الأنظمة التوتاليتارية -: «بقدر ما أعلنت الدولة انتهاءها إلى الشعب، بقدر ما امتلكت المجتمع ونفذت إليه، وبقدر ما حطمتها بالفعل بالإرهاب وظهرت غريبة عنه»^(٣٩)، وهذا بالذات هو ما يشكل منطق التناقض الذاتي للتجربة التوتاليتارية. إن ما نحتاج إليه لفهم السياسة هو «قفزة تأويلية راديكالية وضرورية»^(٤٠)، تتمثل في الاعتراف «بالانقسام الأصلي للمجتمع»^(٤١)؛ هذا الانقسام الذي يظهر المجتمع على أنه «ضد نفسه، وأنه لا يطرح نفسه إلا حين يطرح ضد نفسه، وإلا حين يكون آخر نفسه»^(٤٢). هذا الاعتراف الهاديء بالانقسام الأصلي للمجتمع يؤدي إلى تغيير قانونين على الأقل من قوانين اللعبة النظرية في السياسة الماركسية، يمس أولاً لعبة الاقتصاد كمحدد للسياسي: «إن الأساس النهائي للانقسام الطبقي لا يتمثل في التملك الخاص للرأسمال. بل الانقسام السياسي هو الذي يخلق الانقسام المجتمعي»^(٤٣)، ويمس ثانياً السلطة كمصالح طبقة خاصة: «إن السلطة هي تجسيد لشمولية فوق كل المصالح الخاصة. إنها أمر منظم شمولي ومنسجم»^(٤٤). إن السلطة تعمل في الحقيقة بواسطة ثلاثة رموز أو عناصر: القانون، العنف والشمولية. إن

(36) Ibid. p.6.

(37) Ibid.

(38) Ibid. p.11.

(39) Ibid. p.13.

(40) Ibid. p.17.

(41) Ibid.

(42) Ibid. p.18.

(43) Ibid. p.17.

(44) Ibid. p.18.

السلطة هي الوجه الآخر للمجتمع . إنها القوة ضد الذين لا سلاح لهم ومعرفة الجماعة ضد المعرفة الخاصة والمشروعية ضد الرغبات الفردية . ومن ثمة فمحكوم عليها بالعراء والتبرج : «إن ماهية السلطة تظهر في فرجة السلطة»^(٤٥)، ووظيفتها هي خلق وحدة في المجال الاجتماعي .

إن التفكير حول الظاهرة التوتاليتارية تفكير متشعب ، ومن ثمة تصعب الإحاطة بكل ما كتب حول هذا الموضوع . لذلك فكل ما سنعمل عليه هنا هو وضع تمهيد للحديث عن خطاب «الفلاسفة الجدد» الذي لا يمكن فهم خطابهم دون التركيز على خطاب التوتاليتارية . سنركز هنا فقط على ثلاثة خطابات : الخطاب الفينومولوجي (حنة آرندت) ، الخطاب الليبرالي (ريمون آرون) ، والخطاب النقدي (مدرسة فرانكفورت) .

لم تكتشف حنة آرندت في الفكر الفرنسي المعاصر بشكل جدي إلا في السبعينات . فهذه الباحثة اليهودية الأصل والتي غرقت من معين التيار الفينومولوجي الألماني ، اعتبرت التوتاليتارية منطلق انحطاط . «كيفما كان تقليده الوطني أو المصدر الخاص لإيديولوجيته ، فإن النظام التوتاليتاري يحول دائماً الطبقات إلى جماهير ويعرف نظام الأحزاب ليس بديكتاتوريات ذات حزب واحد وإنما بحركات جماهيرية ، ويغير مركز سلطة الجيش والشرطة ، ويضع سياسة خارجية تهدف إلى السيطرة على العالم»^(٤٦) . إن النظام التوتاليتاري يؤمن بالقانون ، قانون التاريخ (البلشفية) والطبيعة (النازية) ، كمصدرين للقوانين الوضعية ، لكنه يدعي أن النوع البشري نفسه هو تجسيد للقانون . فالتوتاليتارية عند حنة آرندت تجد أصلها في الحداثة نفسها ، حيث الميل إلى تفسير مرآة الطبقات وتقديس العلمية والإحساس بانعدام الجذور في عصر طبعته الثورة الصناعية . غير أن حنة آرندت لا تؤمن بأن الأفكار هي التي تغير العالم بل الأحداث : «ليست الأفكار ولكن الأحداث هي التي تغير العالم»^(٤٧) ، مما يجعل كتاباتها بعيدة عن كل «قراءة اكسيمومية للتاريخ» ، تستخلص التاريخ من الأفكار كما سنلاحظ ذلك مع «الفلاسفة الجدد» .

إذا كانت حنة آرندت قد أكدت على أن التوتاليتارية تتجذر في الديمقراطية وطرحت

(45) Ibid. p.19.

(46) Hannah Arendt, le système totalitaire, cité par François Chatelet "hist. des idées..." op. cit. p.179.

(47) Hannah Arendt: "condition de l'homme moderne" Pref. Paul Ricoeur, trad. Georges Fadier, Calmann-Lévy 1961 et 1983. p.334.

فكرة أن الإنسان هو مقاوم التوتاليتارية، فإن الفكر الليبرالي اعتبر التوتاليتارية مجرد خطأ تاريخي أو غلطة سياسية.

يندرج مجهود ريمون آرون في كتابه «الديمقراطية والتوتاليتارية» ضمن إطار السوسيولوجيا السياسية: «إن السوسيولوجيا السياسية كما أريد أن أقيمها لن تكون مرتبطة بالتصور الغائي للطبيعة الانسانية الذي يتضمن تحديد النظام الأحسن بالنظر إلى ميل الإنسان، ولكن لن تكون أيضاً مرتبطة بالفلسفة الماكيافيلية أو التاريخية. إن الماكيافيلية التي ترى جوهر السياسة في الصراع من أجل السلطة وحده هي فلسفة جزئية تميل إلى أن تناقض نفسها تماماً كأى فلسفة شكية»⁽⁴⁸⁾. إن ما يلح عليه آرون هو التعارض بين الديمقراطية والتوتاليتارية، وهو يجعل من نظام الحزب الثابت الأساس الذي تستنبط منه الخصائص الخمس للظاهرة التوتاليتارية: حزب واحد محتكر للنشاط السياسي، يطرح هذا الحزب المحتكر إيديولوجيا رسمية تشكل حقيقة الدولة، فتتخفى الدولة باحتكار مزدوج لوسائل القوة والاقناع، وتخضع الأنشطة الاقتصادية والمهنية للدولة. كما ان كل شيء يصبح مجرد نشاط للدولة خاضع للإيديولوجيا مما ينتج عنه الارهاب. هذه العناصر اجتمعت في ظرف تاريخي معين فخلقت لنا نظام التوتاليتارية.

أما مقارنة مدرسة فرانكفورت للظاهرة التوتاليتارية فلأنها تتميز بطابعها الفلسفي العميق، إذ يلاحظ ماكس هورخيمر ان التوتاليتارية تطابق انتصار الأساطير على العقل، فالعقل نفسه أصبح توتاليتارياً يربط المنطق الأعلى للدولة. وهكذا تظهر التوتاليتارية على أنها امتلاك للعقل ووضعه في خدمة السيطرة. وهذا يلح عليه أدورنو الذي يكشف عن الامكان التوتاليتاري في كل بنات السلطة وفي كل التراتيبات، وينادي بفكر سالب، في إطار تشاؤمية راديكالية: «لو أردنا تحقيق تقسيم عادل للحقوق، سيكون علينا أن نحرم الناس من أشياء كثيرة، وبالخصوص من أن يطغى بعضهم على بعض... لكن بقدر ما يتصاعد حجم الحرية، بقدر ما يكون ذلك الذي يتمكن من استعمال قواه بمهارة أكثر من الآخرين قادراً على استعبادهم. وهكذا سنصل إلى أقل درجة من العدالة»⁽⁴⁹⁾. إننا نصل إلى النتيجة المشائمة القائلة: «بقدر ما يتم تحقيق العدالة بقدر ما تنعدم الحرية»⁽⁵⁰⁾.

(48) Raymond Aron: "démocratie et totalitarisme" nrf Gallimard coll. Idées n°88. 1965 p.50.

(49) Adorno et Horkheimer: "théorie critique" Payot 1978, p.358.

(50) Ibid.

هذه التشاؤمية هي التي نجدها اليوم في خطاب «الفلاسفة الجدد» .
أطل علينا سوق الثقافة الفرنسية في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٧٦ بملف أعدته مجلة
«الأخبار الأدبية» يحمل عنوان: «الفلاسفة الجدد»، من توقيع مفكر شاب عرف كمسؤول
عن سلسلة بإحدى دور النشر يدعى برنار هنري ليفي . جاء في مقدمة الملف: «فلاسفة
جدد لهم بدون شك أقل عدد من نقط الالتقاء من مجالات الاختلاف . تيار جديد إذا
ألحنا على ذلك ولكن مقطوع الأوصال، بدون رأس، بدون متزعم وبدون مبدأ . ولكي
نصور ذلك: «موجة جديدة»، ولكن لها هذه الخاصية: إنها تكنس كل مساحات
الشواطيء المهجورة للموروث»^(٥١) ومن الأسماء الموقعة «لبيان» «الفلسفة الجديدة»،
بالإضافة إلى الذي أعده: ميشيل كيران Michel Guérin، جون بول دولي، J.P. Dollé،
لاردرو Guy Lardreau، كرستيان جامبي C. Jambet، جون ماري بينوا Jean-Marie
Benoi، فرنسواز ليفي Françoise Lévy، وآني لوكليك A. Leclerc. هذا الملف
«ساندته»، بعد أقل من حول، ثلاثة ملفات أخرى: ملف أعده جيرار بوتي Gerard
Petitjean في مجلة «النوفيل اوبسرفاتور» بتاريخ ١٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ تحت عنوان:
«الحكماء الروحانيون الجدد» Les nouveaux Gouroux تم تقديمهم فيه بالطريقة المثيرة
التالية: «بارث، لاكان، فوكو، دولوز، دريدا، ليوتار . منذ زمن قصير استثمروا معادل
المعرفة - الكوليج دي فرانس، السوربون، المدرسة العليا، فانسين - والآن بعض عشرة
آلاف مريد يشغفون بعجيل جديد من الفلاسفة ويناقشون دروسهم ويتبادلون كتبهم . .
إنهم مجهولون، وقحون، يتفلسفون بضمير المتكلم، ويمحرقون ماركس أحياناً بعد أن كانوا
قد عبدوه . لهم ما بين خمس وعشرين سنة وأربعين سنة، ويسمون دولي وبينوا وجامبي
ولاردرو وبودريار وكلوكسان وهونكنغم وبولنزاس . إنهم أبناء ماي ٦٨ بكل تأكيد،
يرفضون بطاقة «اساندة» الفكر، ولكنهم يبنون أفكاراً ربما ستكون أفكارنا نحن
غداً»^(٥٢) . وملف ثان أعده بيير فياسون بونتي Pierre Viasson Ponté جاء فيه على
الخصوص وبنفس الطريقة المثيرة: «جاحدون لأصلهم أم ورثة، إنهم ينحدرون عن أب
مجهول وأم معروفة جداً: إنهم أبناء ماي ٦٨ . إسمهم وسام، إنهم وسيمون، مشهورون،

(51) Bernard Henri Lévy "les nouveaux philosophes", les nouvelles littéraires, N°2536, 10
Juin 1976.

(52) Gerard Petitjean "les nouveaux gouroux" N°609, 1976, p.62 (le nouvel observa-
teur).

مطمئنون، يحبون الظهور في الصور الصحافية، مكنونون معرفياً كما تثبت ذلك دبلوماساتهم الرائعة. إنهم الحداثة»⁽⁵³⁾. وجاء في ملف أعدته جريدة لوموند بتاريخ ٢٧ أيار (ماي) ١٩٧٧: «حول السجّال يسيطر بشكل غير مرئي ولكنه حاضر، ظل ايهم كلهم جاك لاكان، والسلطة التي تم إنكارها لمريهم الأكبر ألتوسير، وأعمامهم فيليب سولي وجيل دولوز ورولان بارت وكلود ليفي سترأوس، وبالخصوص جدهم الأكبر كارل، الذي عن طريق اوديب لم يتم تجاوزه، لا ينتهون من استخراج شبحه ولعنه، بعد أن كانوا قد عبدوه وشرفوه»⁽⁵⁴⁾.

نقتصر فقط على ذكر هذه الملفات الأربعة. انطلقت «الفلسفة الجديدة» إذن وانطلق روادها «الفلاسفة الجدد». لكن لنبحث عن هذه الفقاعة من الصابون بعد أيام قليلة من نشر هذه القصة العجائبية. يصرح برنار هنري ليفي: «أرفض ذلك النعت «الفلاسفة الجدد» الذي ألصقته الصحافة بهم»⁽⁵⁵⁾، ويصرح جون بول دولي: «ليس هناك حكماء روحيون»⁽⁵⁶⁾، ويؤكد دانييل غيران: «لست فيلسوفاً جديداً، ليس هناك فلاسفة جدد»⁽⁵⁷⁾، ويصرح أندريه كلوكسمان: «ليس هناك فلاسفة جدد، على الأقل لا أعرف أحداً يحمل هذا الاسم وأنا لا أصنف ضمن خائنهم...»⁽⁵⁸⁾ وتتوالى التصريحات المنكرة المستنكرة التي اخترنا هنا أكثرها فصاحة. من هم هؤلاء: «الفلاسفة الجدد»؟ ما هي هذه «الفلسفة الجديدة»؟ يقول أحد أولئك الذين قدموهم على طبق من ذهب إلى جريدة لوموند: «الحديث عن الفلسفة الجديدة، معناه إذن مطاردة أشباح»⁽⁵⁹⁾. لا نريد هنا أن نقوم بدور الساحر، نخرج الأفعى بالناي، بل كل ما نحرص عليه هنا هو تتبع هذا الجيل الجديد وهو ينسج أسطوره، مبددين بعض الملاحظات العامة التي تنطبق على بعض تحولات الثقافة الفرنسية في الثمانينات.

(53) P. Viasson Ponté: la nef (n°35) cité par Michel Winock in le débat "l'aventure des idées" N°50 mai- aout 1988. p.115.

(54) Le monde du vendredi; 27 mai 1977. p.1.

(55) Bernard Henri Lévy, cité par François Aulal et Xavier Delcourt in "contre la nouvelle philosophie" "idées Gallimard 1977. p.14- 15.

(56) Le monde 27 mai 1977. p.11.

(57) Daniel Guérin, Le monde 3 juin 1977.

(58) André Gluksmann, dialogue avec Max Gallo, l'express N°1358. 18- 24. juillet 1977. p.50.

(59) Roger Paul Droit, le monde 27 mai 1977, p.1.

إن أول وصف أعطي لهذا الجيل: «الحكماء الروحانيون الجدد»، وثاني وصف: «المتنافزيون»، وثالث وصف «المسيحيون اليساريون»، ورابع وصف «ورثة ماي ٦٨». وإن أول الشعارات التي حملها هذا الجيل: «الماركسية بربرية»، ثانياً: «يجب التخلص من الرؤية السياسية للعالم»، وثالثاً: «الإشتراكيون؟ خداعون»، ورابعاً: «يجب أن نراهن». هذه الأوصاف الأربعة والشعارات الأربعة هي ما شكل الوجه العاري لأسطورة: «الفلاسفة الجدد»، وهم ينسجون أسطورة: «الفلسفة الجديدة». ولو قمنا بتركيب لهذه الأوصاف والشعارات لحصلنا على تعريف أولي يشمل كل «الفلاسفة الجدد» - باستثناء اندريه كلوكسمان: «نحن حكماء روحانيون جدد، متنافزيون، مسيحيون يساريون وورثة ماي ٦٨. نعتقد ان الماركسية بربرية وانه يجب التخلص من الرؤية السياسية للعالم، وان الإشتراكيين خداعون، فالحل الوحيد أمامنا هو أن نراهن».

إن أغلب أعضاء هذه الجماعة تربوا في ظل التوسير وماوتسي تونغ. بل إن بواكير تأليفهم كانت «نضالية». فكلوكسمان (من مواليد سنة ١٩٣٧)، تقلب في منظمات يسارية متطرفة وساهم في مجلات يسارية سرية: من «لجنة الاساس لإلغاء نظام الأجور وتحطيم الجامعة»، إلى مجلة «الثورة الثقافية»، ومن جماعة «اليسار البروليتاري»، إلى جريدة «إني أنهم». . . اهتم بحركات السود وبالفكر الاستراتيجي. وموريس كلايف، جد «الفلاسفة الجدد»، (من مواليد سنة ١٩٢٠)، مارس أنشطة يسارية موسعة، ترأس تحرير جريدة ليبراسيون وساعد في تحرير جريدة «إني أنهم». . شارك إلى جانب سارتر وفوكو في أنشطة يسارية. وكريستيان جامبي، (من مواليد سنة ١٩٤٩) وغبي لا ردر (من مواليد سنة ١٩٤٧)، تلميذان ستالينيان للتوسير، كتبوا بالجريدة اليسارية المتطرفة: «قضية الشعب»، ومارسوا أنشطة يسارية متطرفة متنوعة. . .

تري ما المعنى الذي كان هؤلاء يعطونه لأنشطتهم اليسارية؟. يقول كلوكسمان: «إن الجماعة هي مكان إعادة إنتاج المعرفة البورجوازية بامتياز، واليوم هي حلقة ضعيفة يمكن للثوريين أن يحطموها. إن تحطيم الجامعة هو بداية تحطيم السلطة البورجوازية»^(٦٠). ويتحدث كريستيان جامبي عن جيله: «إنهم لا يريدون الثورة البروليتارية، إنهم يريدون العقاقير. يريدون حياة شيوعية حرة بعيدة عن الأسرة. يريدون اللذة والمغامرة العجائبية. يريدون الموسيقى، والدخان الأزرق إذا كانوا يرغبون فيه فلا أنهم يعتقدون في

(60) Glucksmann, cité par Hervé Hamon et Patrick Rotman: Génération 2- Les années de poudre. Seuil Janvier 1988. p.58.

الحق في الاختلاف ويخلقون اختلافهم الخاص. إنه الهروب الجميل خارج ضجر الدروس»^(٦١).

ويؤكد موريس كلافل: «كل شيء يمكن إعادته إذا كنتم تمتلكون الشجاعة. إذا حصل الحقل والحى والمعمل والمصنع والمدينة والناحية والشعب، على الحق في الكلمة، وحافظ عليه. أنتم الذين ستعيشون غداً»^(٦٢).

هذه الشهادات اخترناها للحديث عن الماضي «اليساري» لجماعة «الفلاسفة الجدد». وهو ماضي زعزعه حدثان أساسيان: تجربة ثورة ماي ٦٨، وتجربة المنشقين السوفيات، خصوصاً مع صدور كتاب سولجنتسين «أرخيبيل الغولاغ» سنة ١٩٧٥.

كيف عاش هذا الجيل ثورة ماي ١٩٦٨؟ يجيب أحد أبناء هذا الجيل الأديب والروائي الفرنسي فيليب سولي: «في النهار كان النشاط النظري. كنا نقيم مخططات استراتيجية في المدرسة العليا مع الألتوسريين. كنا نذهب لنقوم بالثورة. في الليل كانت الممارسة، التمارين، باريس مدينة مفتوحة ومقلوبة رأساً على عقب. ولكن في الحقيقة كان النهار الحقيقي هو الليل حيث كنا نعمل على تحقيق كل ما سيعمل فعلاً على تحويل نظرنا فردياً، في حين كان الليل الحقيقي هو النهار، حيث ظلامية النظرية والفكر غير القادرين على تصور وتوجيه ما كان يحدث»^(٦٣). إلا أن ما أظهرته هذه التجربة كان أمراً مهولاً. يقول رفيق درب «الفلاسفة الجدد»: «لقد عشنا في تلك التنظيمات اليسارية تجارب توتاليتارية مصغرة... ولأننا لمسنا بشكل مشخص وحميمي حماقة هذا المنطق، لهذا فنحن صارمون جداً فيما يخص الموقف من مسألة التوتاليتارية»^(٦٤).

هذا التقييم لتجربة ثورة ماي ٦٨، وهو تقييم يعكس تناقضاً وجدانياً صارخاً، هو ما نجده في أول كتاب مبكر ينتمي إلى موجة «الفلسفة الجديدة» ولأحد «الفلاسفة الجدد»: جون ماري بينوا: «مات ماركس». يتناول الكتاب لحظة ماي ٦٨ أو ما يسميه الكاتب بـ«المستنقع المقدس لرموز ماي»^(٦٥). إن ماي ٦٨ هو في رأي الكاتب عودة الرموز القديمة بشكل استعاري قداسي ودغمائي وكهنوتي: «إن ما أضاف إلى قلقنا في حركة ماي ضحكة ساخرة هو عودة وحضور شامل، ليس فقط مضاداً لحركة التاريخ، ولكن أيضاً

(61) Christian Jambet. Ibid p.197.

(62) Maurice Clavel Ibid p.372.

(63) Philippe Sollers "mai 68 n'a pas eu lieu" les nouvelles 3- 10 mai 1984. p.81.

(64) Jean- Marc Salmon "Génération. Tome 2 op. cit. p.66.

(65) Jean- Marie Benoist "Marx est mort" nrf Gallimard 1970. p.8.

في غير محله . . . لجهاز من الرموز القديمة بدت لنا متجذرة في تربة إستمولوجية قديمة ، وبدت لنا عودتها عودة استعرارية قداسية ، دوغائية وكهنوتية^(٦٦) . هذه العودة يلمسها بينوا في خطاب ماي ٦٨ ويعمل على إبرازها وتفكيكها ، مثل مفهوم الصراع الطبقي والثورة ، اللذان يبدوان «كطوطمية للدوال» . والمنهج المتبع في قراءة ثورة ماي يدعي الانتفاء إلى هيوم . فكما هاجم هيوم الميتافيزيقا من موقع استراتيجي سيحاول جون ماري بينوا مهاجمة زخم رموز ماي . هذا المنهج يجند اللسانيات وشك هيوم وشك ديكرت . . . ويصل إلى النتيجة القائلة : «مات ماركس» ، يجب أن يفهم هذا الكلام تماما كصرخة بطل نيشه حول «موت الله»^(٦٧) ، فما يجب العمل عليه هو تطهير الخطاب الماركسي من غشاوته الصوفية : ماركس - الصنم ، ماركس - الطوطم ، ماركس - التابو ، ماركس - النبي ، ماركس - الجهنمي ، وماركس - برومئوس . وذلك «بالسير على أنقاض هذه الآلهة الزائفة ، وعلى مخلفات الرسوبات اللينينية والماوية والكاسترية والتروتسكية»^(٦٨) .

هذه التصفية الثقافية السياسية للموروث الماركسي لن تعلن في «الفلسفة الجديدة» بشكل رسمي إلا بعد ترجمة كتاب : «أرخييل الغولاغ» لسولجنيتسين . وسولجنيتسين أديب غريب الأطوار ، فهو في الوقت الذي ينتقد فيه بمرارة معسكرات التعذيب في الاتحاد السوفياتي ، ينتقد الغرب وتعددته السياسية ، وهو في الوقت الذي يرد فيه على مبدأ سارتر القائل : «إن الماركسية هي الفلسفة التي لا يمكن تجاوزها في عصرنا» ، بقوله : «لقد سقطت الماركسية إلى أسفل السافلين لدرجة انها أصبحت مجرد موضوع سخرية . لا يوجد شخص جدي في بلادنا ، ولا حتى تلاميذ المدارس ، يسمع حديثاً عن الماركسية دون أن يتسم بسخرية»^(٦٩) ، يبني معبداً كاثوليكياً صغيراً في بيته المسيح في الولايات المتحدة الأمريكية . إن ما يمكن أن نستخلصه من روايات سولجنيتسين المتنوعة هو ذلك الاهتمام الواضح بعالم معسكرات الاعتقال وبالحياة القروية تحت ستالين . ففي روايته «يوم من حياة سيرج دينسفيتش» نجد أن : «استحقاق سولجنيتسين يتمثل في كونه أخذ يوماً كالأيام الأخرى في معتقل كالمعتقلات الأخرى ليجعل منه رمزاً لماض لم يتم تجاوزه ولا التعبير عنه بطريقة أدبية»^(٧٠) . وفي قصته «منزل ماتريونا» يتحدث عن قرية في عهد ستالين لم يؤثر

(66) Ibid. p.8.

(67) Ibid. p.249.

(68) Ibid.

(69) Soljenitsyne, cité par Raymond Aron in "mémoires" op. cit. p.666.

(70) George Lukacs "Soljenitsyne", idées nrf Gallimard 1970 trad. serge Bricianer p.22.

فيها التواجد الاشتراكي، وعن امرأة عجوز مستغلة باستمرار، ولكنها تظل طيبة، ربما تشير إلى «الطبيعة البشرية»... وفي أعمال أخرى ركز على روتينية خطب ستالين وشعاراته وعلى استفحال ظاهرة البيروقراطية... إن خلاصة موقف سولجنتسين تتمثل في إدانة نظام معسكرات التعذيب المبنية على التصورات الشيوعية، فهو ينقل لنا حواراً ستالينياً داخلياً بالطريقة التالية: «لم يعمل لينين إلا على خلط الأمور. لقد كان الأمر سابقاً لأوانه لكي يقول أمام العموم: إن آخر طبخة ستكون قادرة على تسير شؤون الدولة!... فالتبأخة تظل دائماً طبخة: مكانها هو المطبخ. إلا أن حكم الناس أمر يحتاج إلى معرفة كبيرة، يجب لتحقيق ذلك وجود أطر متميزة، أطر مختارة بطريقة خاصة، تجربة منذ وقت طويل، أطر صنعت نفسها بنفسها. هذه الأطر ليست هناك إلا يد واحدة يمكن أن توجهها، يد الزعيم»^(٧١).

منذ عشرين كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ كانت الطبعة الروسية من كتاب «أرخيبيل الغولاغ»، الجزء الأول، متوفرة في فرنسا، وقد نشرت بعض المجلات مقاطع منها، لكن الترجمة الفرنسية كانت حاسمة. لقد جعلت كرسيتيان جامبي أول من يعلن «أنا لست ماركسياً»^(٧٢)، وجعلت كلوكسمان يعلن أن مقارنة سولجنتسين للحياة الشقية داخل معسكرات العمل الاجباري والتعذيب هي التي أثبتت أن «تحول الماركسية ضد الشعب ليس «مغامرة جدل»، ولا «جريمة لستالين»، ولا انحرافاً للدولة ما بعد القيصرية، ولا «مصيبراً روسياً خاصاً»^(٧٣). انها جعلت كلوكسمان يطرح سؤالين: «أليس هناك الاتحاد السوفياتي في رؤوسنا؟ أليست هناك لجنة مركزية في عقولنا؟»، يكتب كلوكسمان في ٤ مارس ١٩٧٤ «رسالة الغفران» إلى مجلة النوفيل أبوسرفتور تحت عنوان: «إن الماركسية تصمم آذاننا»: «في أي مكان تعزز فيه الماركسية جهاز القمع توجد مقاومة. هذا الشيء الذي يقاوم، هذا المكبوت في الماركسية الرسمية، يسميه سولجنتسين أحياناً بـ«الشعلة الصغيرة». لقد اقتبست الماركسية الكثير من المسيحية، أو بشكل أدق، من الكنيسة: العقيدة، الطابع الكنسي غير القابل للتخطيء، محاكم التفتيش... لقد وضعت الكنيسة بين الرجل والمرأة القسيس الذي ينتج شيطانه: الأفعى... وبين الشعب والشعب وضعت الماركسية سياجاً من التأطير ينتج عودة هذا المكبوت الذي تم إدانته

(71) Ibid. p.104- 105.

(72) Hervé Hamon et Patrick Rotman. Génération 2, op. cit. p.572.

(73) Ibid. p.569.

بدعوى «عفويته»، «مثاليته»، «ديماغوجيته». . اليوم، إذا كان قلبك يهرب من الدولة فإنك ستفهم سولجنتسين»^(٧٤).

لم يكن أندريه كلوكسمان هو الوحيد الذي كتب «رسالة غفران»، بل إن كتب «الفلاسفة الجدد» بأكملها يمكن اعتبارها رسائل غفران. إن الماركسية كانت بالنسبة لهذا الجيل الأمل الأخير، كانت أمل الثورة. لكن سولجنتسين يبين أن الأمل في الثورة الماركسية ولد الغولاغ. يقول كرستيان جامبي: «إن ذات الثورة مفقودة، غير أنني لا أعتبر كل محاولة للبحث عنها هذياناً. لقد قطعت أولاً مع تلك الصورة لشعب صاحب سيادة، مع بروليتياريا ممثلة حكمة كنا نمجدها وكانت تبدو لي منفرة. بعد ذلك وضعت المنطق موضع سؤال. واليوم أؤمن ضرورة عدم الإيمان بأي شيء»^(٧٥). ويقول غي لاردرو: «لقد قمنا بتجريب ردة، بثورة ثقافية لم تستخلص أخلاقها لحد الآن «لقد خرجنا محطمين من تجربة فاشلة»^(٧٦). ترى ما هي نتائج هذه «الردة»؟ إقامة جنرالوجيا للشر والتفكير في أخلاقية مقاومة.

(74) Ibid. Glucksmann cité p.574.

(75) Christian Jambet. cité in génération 2. op. cit. p.644.

(76) Ibid. p.645.

الفصل الثامن

جنيالوجيا الشر

*"Il ne suffit pas d'avoir été longtemps aveugle
Pour prétendre qu'on voit mieux que les autres, et de
S'être lourdement trompé pour être mieux écouté".
Alain Touraine*

يمكن اعتبار ما توصل إليه ادورنو قمة التشاؤمية الراديكالية، وهي تشاؤمية يتقاسمها معه في حدود كبيرة موريس بلانشو، وفي حدود أقل إمانويل لوفيناس: «وبالفعل، إن الفكرة التي تتردد دائماً في الفكر السياسي المعاصر هي: لكي لا تتحقق تجربة أوشويتز من جديد! . هذا نقرأه عند أدورنو، عند بلانشو، عند لوفيناس . . . يقول المثقف لنفسه اليوم: «إن المثقفين لا يمكنهم من الآن الاغترار بهتلر جديد، وإنهم في يقظتهم وحذرهم لا يمكن أبداً الإيقاع أو التفرير بهم»^(١). تجربتان تاريخيتان تقفان خلف خطاب «الفلاسفة الجدد»: تجربة أوشويتز Auschwitz، المعتقل النازي الذي «اكتشفت» فيه أعداد هائلة من جثث اليهود وقد قتلوا وأبيدوا ببشاعة. وتجربة الغولاغ Goulag، المعتقل الستاليني الذي «أبيد» فيه عدد هائل من المعارضين السياسيين لستالين^(*). هاتان لحظتان أساسيتان من جنيالوجيا الشر كما يبينها «الفلاسفة الجدد»، يعتبرهما موريس كلافييل «الخطيئة الأصلية» للقرن العشرين. إن ما يرفضه «الفلاسفة الجدد» هو اعتبار الغولاغ مثلاً، تأخراً للموجيك (الينشتاين)، أو لعبة أسبوية خالصة (جاك أناتلي)، أو عاقبة خطأ ما في قراءة ماركس (ألتوسير). إن الغولاغ شيء أقوى من

(*) سواء بالنسبة لضحايا الهتلرية من اليهود، أو لضحايا الستالينية من الموجيك، ليست هناك إحصاءات مضبوطة، والخلاف لازال قائماً بين المؤرخين حول هذه المسألة؛ بل إن بعض المؤرخين شكك في المسألة الأولى. إلا أنه من الواضح أنه كان هناك ضحايا!
(1) Jean Michel Besnier "les intellectuels: mission terminée?". raison présente N°73, p.46.

ذلك بكثير. انه شر ويجب الاعتراف بتجربة الشر. يتساءل موريس كلافيل في مقدمة كتابه: «قرنان عند لوسيفر»: «لماذا أزمئة المخاوف هذه، والحروب والمذابح العلمية، ومعسكرات الاعتقال، ومسلسلات وعمليات الإبادة، دون نسيان الاستلابات اللامرئية والقلق غير المحتمل الذي يرافقها، في حين نحن محكومون منذ قرنين بإيديولوجيات حرية وإنسانية تدرك نفسها على أنها أنساق للتحرر الشمولي؟»^(٢). ويتساءل برنار هنري ليفي في مدخل كتابه «وصية الله»: «هل يمكن إذن بدون خسة أن نتحدث عن الأمل في عصر غرف الغاز ومعسكرات الاعتقال؟»^(٣). ويتساءل أندريه كلوكسمان في مقدمة كتابه «ديكارت هو فرنسا»: «كيف يمكن أن نتفلسف بعد أوشويتز؟»^(٤). وكان أدورنو قد تساءل في إطار تشاؤميته الراديكالية الأخيرة: «كيف نقرض الشعر بعد أوشويتز؟».

خطاب «الفلاسفة الجدد» - وهم بينون جنيا لوجيا الشر - واحد: الأنوار الغربية هي المسؤولة. أو كما قال سولجنتسين: «إذا كان كبار مجرمي شكسبير لم يتركوا خلفهم إلا عشر جثث في نهاية الدراما، فذلك لأنهم كانت تنقصهم الأيديولوجيا»^(٥).

إن العقلانية الغربية، الأنوار الغربية، نمت مفارقة خطيرة، هذه المفارقة نجدها على لسان أحد أبطال رواية «المسوسون» لدوستوفسكي: «لقد بحثت عن الحرية المطلقة فانتهيت إلى الاستبداد المطلق». يعلق أندريه كلوكسمان على هذه المفارقة قائلاً: «الاستبداد باسم الحرية، تلك هي خاصية أوروبا»^(٦). هنا يتوزع دور «الفلاسفة الجدد»: موريس كلافيل وسقراط، برنار هنري ليفي وموسى، أندريه كلوكسمان وديكارت، وتحول الفلسفة إلى مجموعة من «عرائض اتهام»: كلافيل ضد أفلاطون، ضد الأنوار، ضد إرهاب الثورة الفرنسية، ضد «أساتذة الفكر»، برنار هنري ليفي ضد المدينة اليونانية، ضد الفلاسفة السياسيين الكلاسيكيين، ضد ماركس. أندريه كلوكسمان ضد أفلاطون، ضد تيليم، ضد فيخته وهيجل ونيتشه وماركس. إن هذين الحداثيين - أوشويتز والغولاج - يعكسان عند «الفلاسفة الجدد» في طابعهما العام إنحرافين في تاريخ الفكر الغربي: إنحراف أفلاطون بالنسبة لسقراط وإنحراف الفلاسفة الألمان بالنسبة للتوراة (برنار هنري ليفي) ولكانط (موريس كلافيل) ولديكارت (أندريه كلوكسمان).

(2) Maurice Clavel: "deux siècles chez Lucifer". "Seuil 1978 p.46.

(3) Bernard- Henri Lévy: "le testament de Dieu "coll.: figures, Grasset 1979 p.7.

(4) André Glucksmann: "descartes c'est la France" Flammarion 1ère édit. 1987 p.14.

(5) Soljenitsyne. Cité par Maurice Clavel.

(6) André Glucksmann, dialogue avec Max Gallo. L'express, op. cit. p.52.

وكلا فيل يخلط لإدراك هذين الانزلاقين بين «نزعة صحافية ترنسندنطالية» Journalisme وtranscendental تقرأ اليومي على ضوء تجربة مقاومة الغولايخ، ونزعة تحليل نفسي وجودية Psychanalyse existentielle تكشف في النص الفلسفي قلق صاحبه. هذان المعطيان المنهجيان يعتبرهما موريس كلا فيل قيمتين منحدرتين عن ماي ٦٨. إن ماي ٦٨ هو بالنسبة لكلا فيل «عودة للروحي الذي يعتبر أساساً لكل ثقافة والذي كان مكبوتاً منذ قرنين»^(٧)، انه «تحرر روحي» «عودة الله»، «عودة الروح» وهو لم يكن له أن يكون ذا بعد «صوفي» كذلك لولاً انه «كان ظهور وبروز شيء لم تنتبه إليه أية فلسفة، ولكنه مع ذلك كان يتجاوزها في كل اتجاه ويكنسها كريحشة في مهب الريح»^(٨). لكن هل معنى هذا ان ماي ٦٨ كان رفضاً للفلسفة؟. «ماي ٦٨ كان رفضاً للخطاب، ولكن ليس باسم أية بربرية معادية للخطاب ولا باسم أية نزعة لاعقلية متوحشة، كان رفضاً باسم شيء ربما يكون سارتر قد أحس به. باسم احساس وجودي تجاوز كل الماهيات، باسم إحساس عابر للعقلي رفض كل عقلانية حديثة، باسم شيء لا ينفذ. . ولم يتم الانتباه إليه إلا اليوم»^(٩) هذا الحديث عن ثورة ماي ٦٨ لا يمكن فهمه إلا بوضعه في سياق «نزعة كلا فيلية»! نزعة تعتقد أننا لسنا نحن البشر إلا أحياء بسطاء ملقون دون سند في هذا العالم القاسي ومربوطون فيه بقوة إلى هذا الجسد النعيس. والشيء الأكثر إشكالاً في هذا والأكثر مأساة هو أنه ليس لنا إلا لغة بائسة منحرفة للتعبير عن هذا الوضع، لغة انسانية جداً. وكل ما عدا هذا هراء، وكذب وبناء فارغ. الميتافيزيقا؟: «إن الميتافيزيقا ليست في نهاية الأمر إلا إحياء جديداً للخطيئة الأصلية: التكبر نفسه»^(١٠). الفلسفة؟ «إن التعالي، الفرصة الوحيدة للحرية. . كل الفلسفة لم تقدر على أن تفكر فيه أو لم تكن تريده في العمق. لقد أصبح واضحاً وضرورياً بشكل تام ان كل فلسفة حرية تصل إلى نقيضها بالفعل»^(١١). الخطاب حول الله؟ «مجرد وهم». الخطاب حول الأخلاق كمعيار للخير؟ «بلادة». ماذا يتبقى إذن؟ تبقى هناك ثلاثة خطابات ممكنة متكاملة: خطاب سقراط، خطاب المسيحية، خطاب الكانطية. تعارضها ثلاثة خطابات «شيطانية» تؤسس اللحظات الثلاث لجنيالوجيا الشر، خطاب أفلاطون، خطاب الأنوار، خطاب

(7) Maurice Clavel: aujourd'hui la révolution culturelle, Magazine littéraire.

(8) Ibid. p.59.

(9) Ibid.

(10) Maurice Clavel: "deux siècles..." op. cit. p.113.

(11) Ibid. p.207.

الفلاسفة الألمان بعد كانط .

إن الذي أوقف طغيان اللوغوس حامل الشر هو سقراط ؛ هذا الإيقاف له قيمة مطلقة في ذاته ، لأنه ضد الشر: سلطة المعرفة (الأستاذية) والاستلاب الديني الوثني : «إني أرى في اللوغوس الذي تم إيقافه الأستاذية والاستلاب»^(١٢). إن سقراط كلافيل «قديس» ؛ سقراط «يهودي» ، ثائر دائماً ومتشكك دائماً . ليس ثائراً ضد الوضع الاجتماعي القائم في عصره وإنما ضد العقل واللوغوس ! . لكن «قداسته» هذه التي يلح عليها موريس كلافيل لا تمنع من أن يكتسي عندنا طابعاً إشكالياً . حين يقيم كلافيل عمل سقراط بقوله : «ليس هناك حوار سقراطي يصل إلى بناء معرفة أو تعريف»^(١٣) فإننا لا نملك هنا إلا أن نطرح ثلاثة أسئلة . سؤال تاريخي : أين هو سقراط الحقيقي من سقراط الأفلاطوني ؟ ، ومنهجي : إذا كان أفلاطون قد خان روح أستاذه سقراط - في رأي كلافيل - فكيف أمكن توظيف سقراط الأفلاطوني بالضرورة ضد أفلاطون نفسه ؟ ، وفلسفي : إذا كان الحوار السقراطي لا يوصل إلى تحديد أية معرفة ولا إلى تعريف فهل يختلف عن الحوار السوفسطائي ، والأنكى من ذلك هل يختلف عن الحوار الكلبي ، خصوصاً حين نستمع إلى كلافيل وهو يقيم فكر سقراط : «إنه نقد جذري تماماً للمعرفة والمفاهيم الأخلاقية التي كانت تسمح للمدينة والانسان بالعيش في عصره»^(١٤).

هذا الطابع الإشكالي لصورة سقراط في خطاب «الفلاسفة الجدد» يظل قائماً ، وهو يزداد تعقداً كلما حاولنا رسم صورة أفلاطون ضمن هذا الخطاب . يؤكد كلافيل أن جنرالوجيا الشر تبدأ مع أفلاطون ، مع «نصف خيانة أفلاطون» ، وهي «خيانة» يصفها كلافيل في النص التالي : «إن سر خيانة أفلاطون يتمثل في كوننا أردنا أن نطمئن ونأمن علاجياً ووقائياً ضد سقراط ، ضد القلق الذي يوحى به لنا ، ضد موته الذي دعانا إلى اقتسامه أو اتباعه ، والذي انتهى بنا إلى السياسة . ليس فقط بانتمائنا وتحركنا ضمن إطار السياسة ولكن في تصورنا للسياسة»^(١٥) معنى هذا أن السياسة شر . إن جنرالوجيا الشر تختلط في خطاب الفلاسفة الجدد مع جنرالوجيا المثقف ، وهو يتصور ويبنى رؤية سياسية للعالم . هذا خطاب يشترك فيه موريس كلافيل وبرنار هنري ليفي وكريستيان جامبي وغى

(12) Maurice Clavel: "aujourd'hui la révolution culturelle" op. cit. p.63.

(13) Ibid.

(14) Ibid.

(15) Ibid.

لاردرو. يقول كرستيان جامبي وغي لاردرو: «إن هناك يقيناً مطلقاً هو أن الأمر بالنسبة لنا لن يتعلق أبداً بأن نكون مناضلين لأن النزعة النضالية - وهذا سبب حاسم - تجذب ما هو دائم، وتسجن في المعرفة واحترافات الثورة، وهي أشياء لا نريد أن نعرف عنها شيئاً. . إننا لا نخشى أن نقول هذا، لقد كنا ستالينيين لأننا كنا سياسيين. ونحن الآن نسعى إلى ثورة ثقافية لأننا نتحرر من السياسة»^(١٦). ما معنى التخلي عن السياسة خصوصاً إذا علمنا مع إمانويل لوفيناس: «إن السياسة متروكة إلى نفسها تحمل الطغيان»^(١٧). وكأنه صدى لقول آلان القديم: «السلطة متروكة لنفسها خلقت التعذيب كأساس للتهذيب»^(١٨)؟. إن محاولة التخلص من «الرؤية السياسية للعالم» عند موريس كلافيل تجد أصولها مع اكتشاف خطاب المسيحية: «لا علاقة للفكر بالعقل، وفي هذه الحالة فإن المسيحية عليها أن تكون هي فكر الإنسان»^(١٩). فكر الإنسان هذا ليست فكراً بالمعنى الصحيح، إنه إيمان: «إنني أحمل إليك مسيحتي كقيمة قائمة وليس كأيدولوجيا لأنها خلقت معي، ولست أدري كيف حدث ذلك، ودون أي تبرير فكري غير التحطيم الراديكالي لكل فلسفة ممتلئة، عن طريق النقد الذي ترك نقباً أو هاوية جاء الإيوان للملثم»^(٢٠). هذا الإيوان وجد تحطيمه في عصر الأنوار وفلسفة الأنوار اللذين قادا إلى الثورة الفرنسية: اللحظة الثانية في جنبا لوجيا الشر. وإذا كان كلافيل قد انتقد اللوغوس، لوغوس أفلاطون، فإنه يقوم بانتقاد جذري لعصر الأنوار. فعنده مع هذا العصر يحدث تحول خطير من الدولة إلى عقل الدولة، إلى دولة العقل. والثورة الفرنسية عبر نزعتها البعقوبية المتطرفة هي قمة عقل الأنوار الإستعبادي: «لقد كان العقل الموسوعي مضطرباً وأقل نسقية. والآن (مع الثورة الفرنسية) ستكون لنا حلول نهائية أكبر مدى»^(٢١).

لحظة الشر الثانية هذه تتطور عبر قرنين لاحقين، والشخص الوحيد الذي انتبه إلى شر اللحظة الثانية هو كانط. إن الإيمان وحده غير كاف ويجب أن نعطي قلبه الشكلي الصالح، هذا القالب يجده كلافيل في المذهب النقدي. يقول برنار هنري ليفي عن كلافيل: «أتذكر نزعتي الشكية وقلقي التام تقريباً في اليوم الذي أسر إلي فيه كلافيل بأن

(16) Christian Jambet et Guy Lardreau, magazine littéraire, mai 1976.

(17) E. Lévinas cité par Olivier Mongin: "la politique en questions" esprit 7-8, Juillet- Aout 1976. p.51.

(18) Alain, cité par Albert Thibaudet in "la république des professeurs", op. cit. p.245.

(19) Maurice Clavel: "faut-il un pape?" le nouvel observateur N°718, Aout 1978. p.25.

(20) Maurice Clavel: "deux siècles..." op. cit. p.30.

في هذه الصفحة من «النقد» أو من «المدخل إلى العقل الخالص» يكمن خلاصنا، وحل صراعاتنا. ومصير الفكر نفسه»^(٢٢) ضد تيار الفكر الفرنسي المنحدر عن هيغل يطرح كلايفيل طريق كانط - لكن كيف يقرأ كلايفيل كانط؟. يعتقد كلايفيل أن كانط اكتشف مبكراً اكتشافاً حاسماً، هو أساساً النقد الجذري. نقد حطم دفعة واحدة قرنين من تاريخ الفلسفة. لكن نور النقد أعمى بصيرته وحد من جرأة اكتشافه. فأخذته رعشة وخوف الاكتشاف، ثم عاد لينام من جديد في دوغمائيته القديمة. وما مؤلفات كانط إلا تعبير عن مقاومة عنيدة لهذا الاكتشاف. ان ما سعى إليه كلايفيل هو «نقد أعمال كانط باسم الموقف النقدي نفسه»^(٢٣)، وهو يؤكد ان لا وجود لنظرية معرفة عند كانط ولا لمنطق ترنسندنتالي فهيجل مخطيء بصدد نقده لكانط. ان نقد كانط «ليس له نمط ولا فكرة مسبقة»، فهو يتعلق بنقد «العناصر» الظاهرة الإنسانية التي تسعى - أولاً - إلى معرفة ممكنة»^(٢٤) والنتيجة المنطقية لهذا هو: «أن الميتافيزيقا تظهر بشكل نهائي غير ممكنة»^(٢٥). لكن كانط يتناقض مع مشروعه هذا، إنه يبين أخلاقاً، رؤية أخلاقية للعالم: «إن الأخلاق الكانطية تبدو على الأقل في نتائجها وبالأعلى على النقد»^(٢٦).

إن اللحظة الثالثة من جنبا لوجيا الشر هي لحظة الفلاسفة الألمان الكلاسيكيين، حين تتحول دعواتهم إلى الحرية إلى دعوات الشر، ويتحول التعالي إلى محايثة وفكر الله إلى موت الله واشتراكية ماركس إلى غولاغ. ان هذه اللحظة الشريرة تتولد كلها من مبدأ «موت الله»، عن وثنية «موت الله»، التي يصوغها كلايفيل في الصيغة التالية: «كل الناس هم آلهة. لكن بماذا هم آلهة؟ بالعقل أو الفكر. إذن ذلك الذي يفكر لهم هو إله الآلهة». هذا نجده عند فيخته: «بدأنا بالفلسف عن تكبر وفقدنا بذلك براءتنا»، «إن نسقي هو أول نسق للحرية. إن نسقي، في مسلمته الأولى، يضع الإنسانية كماهية مستقلة. . الحرية هي المطلق، الحرية هي الحقيقة»^(٢٧)، وعند هيغل: «الدولة عند هيغل هي السلاح

(21) Ibid. p.59.

(22) Bernard- Henri Lévy: "l'aube triomphale du clavierisme", le nouvel observateur. n°807 mai 1980. p.50.

(23) Maurice Clavel: deux siècles..., op. cit. p.96.

(24) Ibid. p.83.

(25) Ibid. p.95.

(26) Ibid. p.105.

(27) Fichte, cité par Clavel "deux siècles..." op. cit. p.115 et 125.

الأؤكد ضد الايمان ، والايمان هو الخميرة الخطيرة للفوضى والثورة»⁽²⁸⁾. عند نيتشه نجد الدعوة إلى «السيطرة على الأرض» التي معناها في نظر كلافيل تعميم التوتاليتارية ، ويحذر برودون كارل ماركس : «إن فكرك يجعلني أخاف على مستقبل حرية الناس»⁽²⁹⁾. ففكر ماركس مسؤول عن الغولاغ : «إن الغولاغ هو في فكر ماركس الذي لم يكن يريد به بكل تأكيد»⁽³⁰⁾، يقول كلافيل للذين يودون في نظره إنقاذ ماء وجه ماركس «إن النهر مسموم من منبعه وتريدون الشفاء بالاستحمام فيه؟»⁽³¹⁾. ذلك لأن الماركسية ألغت الملكية والدولة والحق ، وثانياً لأنها عدمية ، ولأنها كأنطولوجيا توتاليتارية تضع البراءة الأصلية كمسلمة لتعود إليها من جديد ، ليس عند ماركس إلا الحقد على الله ، أما ما تبقى فالتحليل النفسي الوجودي لا يرى فيه فائدة ، بل يمكن أن نفند كل أطروحات ماركس - في رأي كلافيل - في عشرين صفحة لا أكثر ولا أقل ؟ . «يتم التساؤل في أي لحظة تم الانحراف عن ماركس للوصول إلى الغولاغ . قلت أنا وكلوكسيان : لقد كان الغولاغ قبل ذلك في ماركس . لقد عوضنا «بالرغم» التي أدخلت كل التعقيدات ، بـ«بسبب»»⁽³²⁾. ومفكر بزناز هنري ليفي لا يتعد كثيراً في أطروحاته عن موريس كلافيل ، فكلاهما يدينان العقل والأنوار وأفلاطون والثورة الفرنسية والماركسية ، وكلاهما يدعيان إلى التحرر من «الرؤية السياسية للعالم» ، وكلاهما أيضاً يعود إلى النص الديني : الانجيل بالنسبة لكلافيل والتوراة بالنسبة لبزناز هنري ليفي . ويلخص بزناز هنري ليفي اقتراجه من كلافيل ومن «الفلاسفة الجدد» عموماً في النقاط التالية : أولاً ، «تصفية شاملة لكل الأفكار التوتاليتارية» ، فليس هناك «توتاليتارية سياسية لا. تبتدىء بأنطولوجيا توتاليتارية» . ثانياً ، «مطاردة كل تسربات الإيمان (الوثنى) إلى المجال الخاص بالعلوم» باسم فلسفة لأدرية راديكالية . ثالثاً ، «التعالى الضروري : إيمان بالله لا يمكن دحضه لدرجة يصبح غير قابل للبرهنة»⁽³³⁾ ، فموت الله هو موت الخطابات التوتاليتارية حول الله .

يحاول بزناز هنري ليفي باستمرار الابتعاد في كل المناسبات عن ماي ٦٨ ، بل هو يسعى في كل كتبه إلى إعادة النظر في قيم ماي ٦٨ : «كيف يمكنني أن أتذكر إذن ماي؟

(28) Ibid, p.202.

(29) Proudhon, cité par Clavel Ibid 228.

(30) Ibid.

(31) Ibid, p.230.

(32) Maurice Clavel, la croix, 11 Juin 1976.

(33) Bernard- Henri Lévy: "l'aube triomphale du Clavélisme" op. cit. p.52.

ولماذا يجب - باسم أية ذاكرة - أن نحتمي بجنائزته ونحتفل بحفل تأبينه^(٣٤). نفتقد كتابة برنار هنري ليفي غالباً إلى شروط الكتابة الفلسفية الصارمة تماماً ككتابة كلافيل، فهما معاً يكتبان غالباً بضمير المتكلم العصبي وهذه الكتابة تبدو أحياناً مجموعة من الهذيانات.

إن جنياولوجيا الشر التي يريد برنار هنري ليفي إن يشيدها تتعلق بظهور واختفاء «هذا الوجه الإشكالي» الذي هو الفرد. هذه الجنياولوجيا تتطابق مع لعبة التذكر والنسيان، يجب أن نتذكر وننسى، نتذكر موسى وننسى ماركس، نتذكر التوراة وننسى «الرأسمال»، فننسى بذلك أو شويتز: ذلك «الوجه البارد المخيف». يميل برنار هنري ليفي أكثر إلى محاورة الفلسفة السياسية الكلاسيكية في القرن السابع والثامن عشر. ففي هذين القرنين نتحدث «الفصل الأول» من مأساة الشر: إعلان الموت التاريخي لله. «الفصل الثاني» منهما. إنسحاب الله. «الفصل الثالث»: إعلان الديانة الوثنية الجديدة. هذا هو موطن الداء، وتلك قصة الشر يحكيها الله على لسان برنار هنري ليفي: «وصية الله»: هذا هو بالذات ما سيجاوله روسو، هذه الديانة الطبيعية التي وضع حجر تأسيسها. «الآن ستصبحون «كالألهة»، في سلطتكم، أقوياء ثيوقراطيون على مستوى إنساني^(٣٥). تصبح السياسة مع عصر الأنوار تصوفاً وإلغاءً للتعالي، تصوفاً أرضياً: «إنه لا يتجزع فقط الدولة غير الدينية، وإنما دولة الأوثان والأيقونات والأصنام - دولة الإله العقل بمعنى روبسبير^(٣٦). تصبح السياسة وثنية، ديناً مشخفاً يعبد الدولة والشعب والسيادة. الثورة الفرنسية هي التي أعطتها شكلها الأول عبر حكم العقوبيين والنازية هي التي أعطتها شكلها الثاني عبر حكم هتلر والشيوعية هي التي أعطتها شكلها الثالث عبر حكم ستالين، ماو، كاسترو...»

يعود بنا برنار هنري ليفي إلى الخطيئة الأصلية: المدينة اليونانية، التي يعتبرها أول تجربة توتاليتارية مصغرة تسجن الروح وتقدم الفرد مسربلاً إلى مقصلة الدولة والتاريخ: «المدينة اليونانية... هي الشكل الواضح للاستعباد... الحياة في المدينة اليونانية كانت عند أفلاطون وأرسطو هي التخلي عن الروح الفردية والحميمية الداخلية^(٣٧). وكل

(34) Bernard- Henri Levy, Ibid.

(35) Bernard- Henri Levy "le testament de dieu" op. cit. p.33.

(36) Ibid. p.34.

(37) Ibid. p.50.

العصر الحديث ليس إلا استعادة للنموذج اليوناني ضد نموذج مدينة الله: «كل العصر الحديث لم يعمل شيئاً آخر غير استبطان درس هذه العبودية المهولة: أسلم روحك، تنازل عن رغبتك، هذا العبء الثقيل، هذا الترف الذي يحطمك، وسيكون لك مقابل ذلك نيل السعادة عبر قناة المؤسسة»⁽³⁸⁾. المدينة اليونانية مدينة توتاليتارية والحداثة والأنوار اللذان اكتشفا العمل الجماعي والشعب... توتاليتارية تجد أصلها الوحيد في العودة إلى فكرة «موت الله»: «ليس هناك منذ روبسبير حتى ماو، توتاليتارية دون هذه العودة الملحة المرضية والوسواسية إلى موت الله الواحد صاحب السيادة»⁽³⁹⁾، «عودة اليونان»، «عودة الوثنية»، عودة الشر. الماركسية الأمس واليوم هي تجسيد للشر، لأنها عودة إلى اليونان «إن الماركسية نزعة تاريخية، ولكن هذه النزعة التاريخية مبنية كالرواقية. ومن المحتمل أن تكون هذه الرواقية هي الرابطة بين الأفكار التوتاليتارية الأخرى»⁽⁴⁰⁾. ماركس هو الغولاغ «يكفي أن نفتح أعيننا: دون أوهام ولا ادعاء على معتققات التعذيب، حتى تظهر لنا نفسها على أنها ماركسية، ماركسية تماماً كما أن أوشووتر كان نازياً»⁽⁴¹⁾ يعلن سولجنتسين ليست هناك دودة في الفاكهة، ليست هناك خطيئة أصلية، «الدولة هي الفاكهة هي... ماركس»⁽⁴²⁾.

وظل أندريه كلوكسمان يتعبد باستمرار عن تيار «الفلاسفة الجدد»، ولكن بقدر ما كان يخيل إليه أنه يتعبد بقدر ما كان يقترب بالفعل، ديوجين القرن العشرين هذا تنحدر كتابته انطلاقاً من تجربته الذاتية، ثلاثة تحولات كبرى: أولها، الانسحاب من الحزب الشيوعي احتجاجاً على قضية هنغاريا والجزائر، ثانيها تجربة ماي ٦٨ «أكبر إضراب في التاريخ». إذ أن ماي ٦٨ علمه «أن الأمر يكون في الشارع. ليس بمعنى أن الثورة تصنع في الشارع، ولكن لأنه في الشارع يمكن أن تتم التواصلات بدون سادة وبدون جدران، مباشرة تلقائية، غير متتهية ولا يمكن السيطرة عليها»⁽⁴³⁾ ثالثها، تجربة المنشقين السوفيات وبالأخص سولجنتسين.

يعود أندريه كلوكسمان أيضاً إلى اليونان، وبالذات إلى أفلاطون، ليعلن ميلاد الشر

(38)Ibid.

(39)Ibid. p.100.

(40)Ibid. p.120.

(41) Bernard Henri Lévy "le vrai crime de Soljénitsyne" le nouvel observateur n°555. 1978.

(42)Ibid.

(43) André Clucksmann, dialogue, l'express. op. cit. p.54.

ويقوم جنرالوجيا له : « كان أفلاطون أول وأكبر أولئك العباقرة السياسيين الذين حشروا أنفسهم في قضايا مشبوهة بدون ضمير، رغبة منهم في أن يضعوا، في أذهانهم وكتبهم، فكرة أكثر وضوحاً وأكثر صرامة حول الحكم المثالي للمدينة»^(٤٤). أفلاطون إذن هو المخطط الجهنمي لجمهوريات الشر كجمهورية بتم وهاتلر وستالين، والعقل هو الأداة الكبرى للتخطيط : « إن العقل يحاجج، ينقض ويسكت التشكك»^(٤٥). إن شكل الهيمنة الأوربي « يقيم الاستبداد باسم الحرية، أوروبا الآلات التوتاليتارية الكبرى التي تطحن الحريات. لكن مقابل أوروبا هذه، هناك أوروبا سقراط، سقراط المحرض في الأسواق، المتشكك : « لقد أحس سقراط بقرب عهد المختصين وأصحاب المؤهلات التوتاليتارية أساتذة الفكر»^(٤٦). إن سقراط يحقق تقاسم اللاعلم ضد العلم، أخويات الجهالات ضد المعارف، الديمقراطية الوحيدة المعروفة ضد التوتاليتارية.

اللحظة الثانية في بناء جنرالوجيا الشر هي لحظة الأنوار، حيث يبني كاركانتوا في رواية لرابلي - مدينة تيليم، مدينة علمية، مبرجة، إشتراكية، لكنها مدينة الرقابة الذاتية الجهنمية : « الرقابة في هذه المدينة متبادلة، المركز هو في كل مكان والمحيط غير موجود في أي مكان. يمكن أن نهاجر من تيليم وقتما شئنا لأنه لا يمكن أن نخرج منها أبداً»^(٤٧). هذا نموذج مصغر للحدائق، ميكرو توتاليتارية. أمام أوروبا هذه، هناك أوروبا أخرى. أمام أفلاطون هناك سقراط، وأمام كاركانتوا هناك بانيرج Panurge الوجه المتشكك، الذي يطرح تساؤلات متشككة على باني مدينة تيليم : « هناك إذن أوروبا أخرى من الحرية أجبرت أوروبا الأولى على أن تقلل من استبدادها»^(٤٨). الموقف الآخر، موقف سقراط - بانيرج : « لم يكن يستهدف تأسيس السلطة وإنما كان يأخذها كما هي، غير مؤسسة، كي يشكك فيها»^(٤٩).

اللحظة الثالثة لبناء جنرالوجيا الشر هي لحظة «أساتذة الفكر»، والتي لا زلنا إلى الآن نعيش عواقبها. يتحدث كلوكسمان عن النص الكبير للسلطة، وهو يعتقد بجذية في

(44) André Glucksmann "la cuisinière et le mangeur d'hommes" points, seuil 1975, p.94.

(45) André Glucksmann. Les maitres penseurs, livre de poche. Grasset 1977, p.97.

(46) André Glucksmann, dialogue, l'express, op. cit. p.52.

(47) André Glucksmann, les maitres penseurs, op. cit. p.25.

(48) André Glucksmann, dialogue, l'express. op. cit. p.52.

(49) Ibid.

قيادة النصوص للثورات والتغيرات، يؤمن بعنف وقوة النص سياسياً: «التاريخ يتقدم بتصفّح الكتب»⁽⁵⁰⁾، الانحرافات لا تحاسب كما عند ألتوسير على «قراءات خاطئة للنص»، وإنما يحاسب النص نفسه من خلالها. إن ألمانيا القرن التاسع عشر هي التي كان لها شرف حمل العلم والثقافة الأوربيين إلى نقطة الغليان. . لهذا يجب أن نحاور الفلاسفة الألمان فعندهم الخبر. يقول نيتشه: «لقد اقترب الزمن الذي سيكون فيه الصراع من أجل السيطرة على الأرض باسم المذاهب الفلسفية الأساسية»⁽⁵¹⁾. إن هيغل هو أول «موظف فلسفي» لمصلحة الدولة العليا، ومعه يصبح «سقراط مستحيلاً»، فالفلسفة لم تعد «مسألة خاصة»، إنها «مسألة الدولة». فـ«المقصلة المنطقية» يصفى هيغل الحساب مع سقراط، ويحقق «الموت النظري لسقراط متشكك»⁽⁵²⁾، لسان حال هيغل يقول: «ليس لدينا الحق أن نكون متشككين تجاه العلم الفلسفي»⁽⁵³⁾. إن الكوجيطو الجديد للفكر السياسي والعلم الفلسفي وأساتذة الفكر هو «أن نفكر، أن نتصور، معناه أن نسيطر»⁽⁵⁴⁾، وهو مبدأ ينحل عند آخر تحليل إلى هذه الحقيقة: «أفكر، إذن الدولة موجودة»⁽⁵⁵⁾، الفكر في خدمة السيطرة وفي خدمة الدولة، فمنذ: «سنة ١٨٠٠ يمرر أساتذة الفكر الشعلة بينهم: بالنسبة لفيخته آخر فيلسوف هو كانط، بعده معي يبدأ العلم. وبالنسبة لهيغل يظل فيخته آخر فيلسوف. وبالنسبة لماركس، آخر الفلاسفة هو هيغل»⁽⁵⁶⁾. ماذا يعرف أساتذة الفكر؟ إنهم يعرفون قانون السيطرة/ المعرفة، أو لنقل المعرفة/ السيطرة: «أن نسيطر معناه أن نعرف، وأن نعرف معناه أن نسيطر»⁽⁵⁷⁾ والاستاذ هو الذي يعرف، هو الذي يملك العلم الفلسفي، العلم الإجتماعي والعلم السياسي، أي هو أفلاطون العارف ضد سقراط الجاهل.

هنا يؤكد كلوكسمان على نشأة منطقتين متعارضتين: منطق الإقناع-logique de persuasion، ومنطق الإثراء-logique de dissuasion المنطق الأول منطق حوار يمسك الخصم بالحجة فيها كان نوعها، والثاني منطق اللاحوار يثني ويصد الخصم عن السؤال

(50) André Glucksmann: les maitres penseurs op. cit. p.61.

(51) Nietzsche. cité par André Glucksmann, les maitres penseurs p.68.

(52) Ibid. p.115.

(53) Ibid. p.103.

(54) Ibid. p.178.

(55) Ibid. p.177.

(56) Ibid. p.164.

(57) Ibid. p.187.

والاعتراض: «قديماً كان الناس يقنع بعضهم بعضاً، يتبادلون الأدلة الايجابية سواء كانت أخلاقية أو فيزيقية، بالعنف أو بالحيلة، بغية الوصول إلى قرار. أما اليوم فيكتفي الناس بإثناء بعضهم البعض عن الحوار، يتبادلون أدلة سلبية، الكل يتساوى أمام الموت»⁽⁵⁸⁾. فكر الأستاذة يريد أن يحقق مخططة العلمي المعرفي العقلي عبر ثلاث مراحل: ثورة العقول التي يمهدها علم العقول، إرهاب الجموع للجموع، إقامة نهائية لنظام جديد بمسؤولين جدد. وهذه هي نفسها مسلسلات النازية في ألمانيا، الشيوعية في روسيا والماوية في الصين... العالم الذي يسمى حديثاً عند كلوكسمان هو: «العالم المملوء بحروب الديانات ومعسكرات التعذيب، حيث سُلط الهدم الإجتماعي تكلف بتأسيس النظام»⁽⁵⁹⁾. من أهم سلط الهدم التي يجاهاها كلوكسمان بلا هوادة: الماركسية. إن ماركس هو المسؤول عن الغولاغ، وذلك لأنه لم يمنع بأفكاره من أن يتشكل الغولاغ - إن أفكاره الإيجابية الممتلئة هي التي ملأت معسكرات التعذيب، فالغولاغ ابن طبيعي لماركس.

إن شر الشرور في القرن العشرين هو ظاهرة التوتاليتارية، وما يعمل عليه كلوكسمان هو تجاوز ما يسميه بالطرح الكلاسيكي للتوتاليتارية إلى طرح ما بعد التوتاليتارية، الطرح الكلاسيكي يجده في كتابات جورج أورويل وحنأ أرندت: «إن أرندت وأورويل ومعاصريهما، كانوا يفكرون خلال مرحلة سياسية واجتماعية قصيرة: حيث الإرادة التوتاليتارية. . كان محكوماً عليها بأن تفنى بحكم تناقضاتها. أما اليوم، فعلى العكس من ذلك تماماً، فإن روح التوتاليتارية، كما تتجلى في مرحلة ما بعد التوتاليتارية، ليس محكوماً عليها بتحطيم ذاتها بل بالحفاظ عليها»⁽⁶⁰⁾. التوتاليتارية هي إذن ابن شرعي للحدثة وهي غير قابلة للإفناء لأن شروطها الفكرية لازالت قائمة.

إن ما تخلص إليه هذه الجنيالوجيات الثلاث هي أن الماركسية هي اللحظة الأكثر حسماً في ظهور الشر. كل هؤلاء الناس يرفعون عقيرتهم بالصباح: الغولاغ هو ماركس. لكن كيف يبنون ذلك؟ ما منطق بناء هذه الجنيالوجيات؟ . يمكن أن نميز في هذا المنطق بين الآلية البيانية للبناء، والتكتيك السجالي للدفاع.

(58) Ibid. p.202.

(59) André Glucksmann, dialogue, le monde du 20 Mars 1980. reproduit in Entretiens avec le Monde: 1- philosophie, op. cit. p.121- 122.

(60) André Glucksmann: la Bêtise. Grasset 1985. p.73.

الآلية البيانية آلية تعتمد البيان للاستدلال، تعتمد لغة تشبه لغة المارو في قوتها وضعفها معا، يصعب تجريد استدلالها. فهناك أولاً جدل نازل من ماركس إلى الغولاغ يحققه كلافيل، وهناك ثانياً جدل صاعد من الغولاغ إلى ماركس يحققه كلوكسمان. يقول موريس كلافيل محدداً هذه الآلية: «إننا نتكامل أنا وكلوكسمان: أنا أستنبط الغولاغ من ماركس، وهو يصعد من الغولاغ إلى ماركس»^(٦١). هناك أيضاً نقد لهيغل وأساتذة الفكر لأنهم دعوا إلى دولة قوية، وهذا ما يحققه كلوكسمان، وهناك كذلك نقد لهيغل وأساتذة الفكر لأنهم حملوا حقداً دفيناً على الله، نادوا بموت الله، وهذا ما يحققه كلافيل. يقول موريس كلافيل، فيلسوف المزاج: «تلح ضجة الدولة الهيجلية على كلوكسمان. وألح أنا على تجذيفية دينه. هذا نفس الأمر: تيوقراطية الدولة»^(٦٢). هذه الاستدلالات المزاجية يسمح بها استعمال آلية قص، مقص أو كام، يقطع أوصال مذهب أساتذة الفكر، وماركس بالخصوص، ويفصلها من جديد بطريقة تتلاءم مع «الغولاغ»، وتطرد كل ما هو مخالف للغولاغ، كل نزعة تحريرية نافذة عند ماركس من مثل: «بقدر ما يتعلق الأمر بي، فأنا لست ماركسياً». يقول موريس كلافيل: «لكن، سيقول البعض هناك أشياء أخرى عند ماركس غير الحقد على الله. أجيب: لا، لا شيء، أو تقريباً لا شيء. إن الحقد على الله والتكوين الهيجلي يكفيان لتوليد النسق الماركسي بأكمله»^(٦٣). آلية القص هذه تنتج نماذج استدلالية كاريكاتورية، تطبيقية مصاغة مسبقاً، مصادرات في فكر مزاجي: ١- الغولاغ يوجد. ٢- النظام السياسي الذي أنتج الغولاغ يدعي الانتهاء إلى الماركسية. ٣- الماركسية نظام فلسفي بناه ماركس. ٤- إذن المرور من ماركس إلى الغولاغ منطقي. هذا المنطق يمكن أن ننحرف به من مقدمته الثالثة فنضع الشق الثاني من استدلال «الفلاسفة الجدد»: ٣- ماركس قرأ هيغل ٤- هيغل قرأ فيخته ٥- فيخته تأمل الثورة الفرنسية ٦- الثورة الفرنسية نتيجة فلسفة الأنوار ٧- إذن من الأنوار إلى الغولاغ الاستنتاج منطقي»^(٦٤). يقول برنار هنري ليفي «ما الغولاغ؟ إنه الأنوار ناقص التسامح»^(٦٥). هذه الاستدلالات الضعيفة تغطي عليها تكتيكات سبغالية لا تجد ما تدافع به عن نفسها إلا تقنية تشبه تقنية «البليار»: ضرب الأول بالثاني بهدف الثالث.

(61) Maurice Clavel: le nouvel observateur n°557 du 14 Juillet 1975.

(62) Maurice Clavel: "deux siècles..." op. cit. p.205.

(63) Maurice Clavel: "ce que je crois". Grasset p.86.

(64) France Berçu: "les petits maitres non penseurs" L'arc n°70 p.66.

(65) Bernard- Henri Levy. le Barbarie à visage humain.

ليفي يعلن موت التاريخ، كلافيل يعلن ميلاده. التركيب: موت التاريخ الرسمي وولادة تاريخ المقاومة. ليفي ضد ماي ٦٨، كلافيل لصالح ماي ٦٨، ليفي - كلافيل مع عودة الله في ماي ٦٨ ضد عودة ماركس. جامبي ولاردو يعلنان ولادة اللوغوس مع سقراط، كلافيل يعلن وفاته مع سقراط. الثلاثة يعلنون نهاية خطاب الأستاذية. والفارس في كل هذه التصالحات هو برنار هنري ليفي. هذه التكتيكات تلتقي في نهاية المطاف مع فلسفة في التاريخ، فلسفة تعتقد أن الوقائع التاريخية بأكملها مجرد استنباط من مسلمات نظرية مذهبية. التوتاليتارية مجموع وقائع مستنبطة من نص أساتذة الفكر وبالحصوص من نص ماركس. التاريخ إذن لا يفهم إلا عبر نزعة أكسيومية حيث تلد المسلمات الذهنية الوقائع الفعلية: يقول جاك بوفريس: «إن بعض المختصين في المنطق عليهم أن يتساءلوا عن الطريقة التي يستعملها (الفلاسفة الجدد) من أجل استنباط الغولغ من فكر أساتذة الفكر. كما لو أن الأحداث هي تقريباً مجموع مبرهنات يمكن استخلاصها من نسق من المسلمات. إن منطق الأيديولوجيا الحمائية - يصبح أخيراً واضحاً: بما أن كل فكر يشمل خطر أن يحمل عمل الجد، فإن الطريقة المثالية لتفادي ذلك هو العمل على إنتاج أقل قدر ممكن من الأفكار»^(٦٦). يقول كلوكسمان: «إن النصوص لا تصلح أبداً للممارسة السلطة فقط بل هي هذه الممارسة نفسها»^(٦٧). يعلق فرانسوا شاتليه: «إن كلوكسمان... باستنباطه للغولغ من ماركس ولماركس من أفلاطون، يتناول لأخطر نزعة ضرورية في فلسفة التاريخ»^(٦٨). هذا التنازل لفلسفة التاريخ الختمية هو ما يبني عند «الفلاسفة الجدد» جنباووجيا للمقاومة. وهي جنباووجيا تقوم على «منطق» و«أخلاقية الكتابة»، «المنطق» يقول: «١- السلطة هي الشر - ٢- لا يمكن الهروب من الشر - ٣- الشر موجود في كل مكان»^(٦٩)، و«أخلاقية الكتابة» تقول: المزاج أولاً والمزاج أخيراً. يكتب موريس كلافيل في لحظة شطح «فلسفية جديدة»: «اكتب كي لا أصاب بالجنون لكوني لم أكتب»^(٧٠) الدكتوراي مابيز Mabuse إذن كما وصفه جيل دولوز، ذلك الكاتب الذي كان يهوى الكتابة وحدها، والكتابة الهذيانة، في معتقل نازي.

(66) Jaques Bouveresse: "Pourquoi pas des philosophes" critique N°369 Février 1978. p.117.

(67) André Glucksmann: "les maîtres penseurs" p.62.

(68) François Chatelet: "chronique des idées perdues" Stock 1977 p.214.

(69) Alain de Benoist: les idées à l'endroit, Paris 1979.

(70) Maurice Clauvel: "deux siècles..." op. cit. p.235.

الفصل التاسع

أخلاقية المقاومة

"J'ai l'impression que la réflexion contemporaine avorte avant d'avoir commencé; on se jette trop vite sur le problème du pouvoir".

Paul Ricoeur

"En France, on n'a pas de Goulag, mais on a des idées".

Michel Foucault

يقول أدورنو وهورخيمر: «هناك نظريتان في الدين حاسمتان بالنسبة للنظرية النقدية اليوم. الأولى هي تلك النظرية التي حددها فيلسوف كبير عظيم (شوبنهاور) على أنها الحدس الأكبر لكل الأزمنة: مذهب الخطيئة الأصلية. . . والثانية هي قضية مستخرجة من العهد القديم: «لا يجب أن تصنع لنفسك أية صورة كإله»، التي نفهمها نحن على أنها «لا يمكن أن تقول ما الخير المطلق، لا يمكنك أن تمثله»⁽¹⁾. أمام الشر الجليدي لم تبقى هناك إلا المقاومة، والمقاومة باسم ديانة التوحيد نوع من المانوية: هناك الوثنية - الشر، وهناك ديانة التوحيد - الخير، والمسألة مسألة رهان. هذا المبدأ يلتف حوله كل «الفلاسفة الجدد» باستثناء كلوكسمان الذي وإن كان يتعد بتفكيره عن كل مسحة دينية، فهو مع ذلك يمدح ديانات التوحيد ومسيحية سولجتستين. «إن العامل الديني كان حاسماً في اندحار التيار الماوي. . . على مستوى شخصي كان موريس كلافييل داعية فيزيلاي، فخلال تجمعات بيته أساساً بين ١٩٧٥ - ١٩٧٦ تخلّى عن الصفة المنتسبة والثانوية لرفيق الطريق لكي يتحول إلى مرافق. . . عاملاً على إعطاء هؤلاء الأصدقاء الشباب التائهين بعض المفاتيح الميتافيزيقية لتيهم: فرانسوا إيولدا، آلان جيزمار، أندريه كلوكسمان، كرستيان جامبي، غي لاردرو. . . تدخلوا بقسط وفير في هذه المناقشات،

(1) Adorno et Horkheimer. "Théorie critique" Payot 1970 p.361 cité par J. Michel Besnier: "les intellectuels: mission terminée" op. cit. p.48.

حيث كان يختلط الفلسفي بالديني»^(٢). من بين أولئك «الفلاسفة الجدد» الذين طرحوا إمكانية المقاومة من خلال عودة الله، جون لوك ماريون Jean Luc Marion إن ما يعمل عليه هذا الفيلسوف هو محاولة تجديد الفكر المسيحي وإعادة اكتشاف «المسيحية الحقة» من خلال فحص نقدي للفلسفة الحديثة، وهي فكرة نجدها عند أغلب «الفلاسفة الجدد». هناك أولاً ضرورة التأكيد على المسافة العميقة التي تفصل بين الله والإنسان. وهناك ثانياً عدم كفاءة الخطاب الإنساني. عند الحديث عن الله يجب أن نميز بين الوثن L'idole والأيقونة L'icône. إن الوثن هو الصورة التي يبينها الإنسان عن الله إنطلاقاً من تجربة إنسانية عن الإلهي. وهي صورة تحاول امتصاص الابتعاد والتواري الإلهي في الصورة الثابتة لله - في حين تصبح الأخيرة المطلقة لله غير معترف بها ومسافته وابتعاده عن الإنسان غير مقرر بها. أما الأيقونة، فهي صورة إله غير مرئي، إله جمع بين المرئي واللامرئي لكي يكشف عن نفسه.

إن تاريخ الفلسفة هو صراع بين هاتين الصورتين: هل صورة الله هي وثن أم أيقونة؟ وهو صراع وجه المجابهة بين الملحددين والمؤمنين، بل إن الملحددين كانوا أكثر إيماناً بحجم المسافة الإلهية والابتعاد الإلهي وبالصورة الأيقونية من المؤمنين. إن قيمة الإلحاد تتمثل في كونه قد حطم الأوثان الزائفة. فموت الله هو موت الصورة - الوثن. كذا نجد عند هولدرلين ونيتشة، لكن نيتشه يعود فينني صورة وثن لله حين يطرح: «إرادة القوة» كإله جديد! إن ما يجب العمل عليه عند جون لوك ماريون هو الاقتراب من الله بالابتعاد عن الميتافيزيقا والانطولوجيا التقليديتين.

الاقتراب من الله بالابتعاد عن الميتافيزيقا والانطولوجيا التقليديتين هو بالفعل الموجه الأساسي لكل من موريس كلافيل وبرزنار هنري ليفي وكريستيان جامبي وغني لاردرو وهم يحاولون بناء أخلاقية للمقاومة.

إن ما يحاول كلافيل تحقيقه هو «نضج أخلاقي بدون إيديولوجيات ولا أوثان»^(٣)، ثورة أخلاقية ثقافية جديدة، ومن ثمة فهو «مستعد للجدال والاحتجاج بدون مفاهيم، بدون مذهب، بدون علم إنساني بل وضده»^(٤).

(2) Hervé Hamon et Patrick Rotman: Génération 2. op. cit. p.475.

(3) Maurice Clavel: "le bon côté comme même" le nouvel observateur n°735, 11 Déc. 1978. p.98.

(4) Maurice Clavel: "l'éternelle justice", nouvelle obs. N° 600, 10 Mai 1976, p.96.

إن هذه اللاأدرية الراديكالية تنضاف إلى تشاؤمية راديكالية لتوجهها أخلاقية المقاومة . وهي أخلاقية موجهة أساساً ضد كل فلسفة، كل ميتافيزيقا، باسم سقراط كانطي : «سقراط، الذي كَانَ مفكراً كبيراً، كَانَ يعرف انه لا يعرف شيئاً . . في حين لم تكن الميتافيزيقا طول تاريخها إلا بؤرة خطابات بدون نهاية وبدون حكم ممكن يحكم بين هذه الخطابات»⁽⁵⁾. هذه الفلسفة اللاأدرية الراديكالية لا يجد كلافيل صعوبة في التوفيق بينها وبين نزعة الإيبانية، بل هو يضيفها إلى الإيمان ليجعل منها أساساً لمقاومته : «أؤكد بشكل دائم على هذا الإيمان الذي وقد سمحت الفلسفة التقليدية به لا يسكن بالضبط إلا هوامشها وفراغاتها . . إذا كانت كل حرية، كل الحريات، بدخولها ضمن الأنساق يتحول معناها وتصبح استبدادا، فيجب علي أن . . أتصور في الإنسان نقطة، كيفما كانت درجة غرابتها، وخارج العالم . . نقطة تظل لامعة في الوقت الذي تنطفئ فيه كل الأشياء . هذه النقطة هي الإيمان»⁽⁶⁾. هذا الإيمان الابتعادي يرتبط مع تصور عام للإنسان وعلاقته بالدين يقوم على ثلاث أفكار أساسية : أولاً، ليس هناك إله واقعي، الإله فكرة بعيدة كل البعد عن الواقع، الإله هو البعد نفسه، هو المسافة البعيدة عن الخلق، هو التعالي المطلق . ثانياً، إذا لم يكن المسيح هو ما يشكل جوهر حميمة الإنسان الذي حقق التعالي المطلق فلا معنى لوجوده . ثالثاً، كل فلسفة لا تبتدىء ولا تنتهي بالإنسان تسقط في الحضيض وتفقد شرفها . بهذا المعنى يمكن اعتبار المسيحية هي فكر الانسان، ذلك لأن المسيحية هي فكر التعالي ضد فكر المحايثة الذي أعلن موت الله وعودة طغيان اللوغوس بعد أن كَانَ سقراط قد أوقفه : «إن هيجل وفلاسفة العصر، الأساتذة المفكرون . . عندما كانوا يتحدثون عن الشعوب، لم يكونوا يقصدون بذلك إلا تحررهم من الله . . نفي الله . . إن الحرية الإنسانية مستحيلة مطلقاً في كل أنواع الميتافيزيقا المحايثة وفي كل السياسات المرتبطة بها أو المستوحاة لها . ذلك ان التعالي - التعالي الإلهي وتعالي الإنسان بالنسبة لنفسه - لا يمكن أن يكون إلا الضمانة التاريخية الكاملة، وفي نفس الوقت الشرط الميتافيزيقي الوحيد والرهان الوحيد والخط الوحيد التاريخي الممكن، للحرية الإنسانية في الإنسان وفي المدينة»⁽⁷⁾. إن بناء فكرة الحرية يقتضي الابتعاد عن الفلسفة، لأن كل فلسفة هي محايثة : «يبدو واضحاً للعيان وضرورياً بشكل مطلق أن

(5) Maurice Clavel: "deux siècles..." op. cit. p.68.

(6) Ibid. p.137.

(7) Ibid. p.207.

تنتهي كل فلسفة تريد الحرية إلى فلسفة تريد الطغيان^(٨). إن كل فلسفة هي بطبيعتها هيغلية لذلك - وهذه مفارقة - يجب التحرر منها: «لقد أعطى هيغل لكل قول شمولية معناه وقيمته ووزن وجوده.. فنحن نظل دائماً في إطار فلسفته. ماركس هو إفقاره المتبلد. هذا نعرفه. هيدغر وسارتر أخذوا عملته الصغيرة لكي يضاربوا بها. ونهاية الميتافيزيقا في التدفق (دولوز) والاختلاف (دريدا) هو دائماً هيغل»^(٩). هذا التحرر من الفلسفة هو في نفس الوقت وبشكل حاسم تحرر من السياسة. يقول كرستيان جامبي عن كلافييل: «إن مسيحية كلافييل هي ما يسمح له بالهروب من كل رؤية سياسية للعالم»^(١٠).

سقراط، المسيح، كانط: هذه هي العناصر الثلاثة لجنيالوجيا المقاومة. لكن إلى من نوجه خطاب المقاومة؟ إلى الفلاسفة؟ لا، إنهم طغاة. إلى السياسيين؟ لا، إنهم توتاليتاريون. إلى من؟ إلى الضعفاء والمقهورين. إلى «الحساسية الشعبية»، إلى «العامية»: «إنها العامة»: «إنها لواقعة كوننا نكتب من الآن فصاعداً للضعفاء والمتواضعين، لا لإبراز وجودهم ولكن للالتقاء بهم، للمس وتزجئة الأشياء التي يحسون بها بكلمات أكثر، لكي نجعل من أنفسنا خدمة لحریتهم المشتركة التي تنشأ، والتي يتم إنشاؤها، والتي يتم تحريرها.. من أجل المقاومة العاجلة للأساتذة - المفكرين وأنساقهم.. إن المسيح هو خلف وفي كل الضعفاء والمقهورين»^(١١). الأب كلافييل يقاوم إذن ضد شيطان الفلاسفة باسم ملاك الضعفاء. إن هذا الأب بإعلانه أنه يريد أن يعيد «إعلان الكنيسة من جديد» لم يكن يعرف أن أهل الكنيسة رفضوه. فالأب جيار يقر من: «ترجمته المسرحية لالتزام شخصي تجاه المسيحية»^(١٢)، والأب أرنود يؤكد: «لا نريد صيغة كلافييل ولا مراثيته الميتافيزيقية»^(١٣).

أخلاقية المقاومة هذه التي ينحتها كلافييل لا تختلف كثيراً عن الأخلاقية التي ينحتها برنار هنري ليفي مع اختلاف واحد حول قيمة الكانطية، ينطق كلافييل باسم حقيقة المسيح وينطق برنار هنري ليفي باسم حقيقة موسى. وهي حقيقة يريد برنار هنري ليفي

(8) Ibid.

(9) Ibid, p.208.

(10) Jambet et Lardreau: magazine littéraire n°112- 113 Mai 1976.

(11) Ibid, p.41.

(12) Luce Giard: le Dieu de Clavel, Esprit 7- 8 Juillet- Aout 1976. p.112.

(13) Alain Arnaud, Ibid p.114.

أن يفصح عنها بواسطة قراءة لوفيناس ورونيه جيرار للتلمود. بل يعتبر نفسه بناء على مصدره داعية «مناضلاً» من أجل حوار يهودي - مسيحي يدشن مقاومة فعالة ضد الشر التوتاليتاري». يقول أحد «الفلاسفة الجدد»، بيني ليفي: «... وظهر لوفيناس بين ١٩٧٨ - ١٩٧٩. لقد غمرتني الكتابة المقدسة. لم يكن لي إلا أن أشغل بالي بمسألة. كان يجب علي أن أعود لاكتناه النصوص المقدسة ولأتعلم العبرية... إنك تتجه نحو النص فكرياً، وبعد ذلك يستحوذ عليك. كان من الممكن أن أقول: لقد خُذنا، إنها نهاية العلمانية، يجب أن نعود إلى الله»^(١٤). إن ما يسعى برنار هنري ليفي إلى تحقيقه هو العودة إلى الديانة الموحدة لبيني أو يستخلص «أخلاقاً عملية»، إحتفالاً بالحق ورهاناً على الشمولي، دون نسيان الشر. إن الشر موجود في العالم. «إذا كان هناك درس، ودرس وحيد يمكن استخلاصه من تجربة معتقلات التعذيب، فهو بدون شك: الضعف التام للأنوار في مواجهة الشر»^(١٥). إذا كان الله قد مات استعارياً فإنه ترك لنا وصيته وبرنار هنري ليفي هو الذي صاغ هذه الوصية في صك غفران: «وصية الله». إن الأمر أولاً لا يتعلق بمقاومة الدولة، فدولة الحق لا تقاوم، وادعاء الانهيار التاريخي للدولة يعكس نزعة فاشستية: «بالنسبة لي وبالنسبة لكل أولئك الذين كمثلي يرفضون أن يغسلوا أيديهم بلحم العصر الذي تلاشى رماداً ودخاناً، القضية مفهومة: مسألة الدولة، النهاية التاريخية للدولة هي الساعة مسألة بربرية»^(١٦). إن المسألة ليست مسألة الدولة وإنما مسألة الديمقراطية والحرية. ليست الديمقراطية الممتلئة بحماس الجماهير ولا الحرية المؤقنمة، وإنما الديمقراطية الشكلية والحرية العامة: «لا يتعلق الأمر بتاتاً هذه المرة بمقاومة الدولة، وإنما بشيء أكثر عمقاً: يتعلق بمقاومة الدولة التي في رؤوسنا، رؤوسنا التي غزتها الدولة، مثال الدولة في جسدنا ودماعنا»^(١٧). إن أحسن أنماط الحرية اليوم هي الحرية «الخاصة» كما طرحها الليبرالية. الحرية المحرومة من كل سلطة، الحرية المفكر فيها من خلال نزعة صورية خالصة. لذلك يجب الحد من تضخم السياسي، يجب: «الحد من السياسة لإيجاد مكان للأخلاق»^(١٨). ذلك لأن مسألة السلطة كمسألة الدولة ليست هي المسألة المركزية: «إن مسألة السلطة لم تصبح المسألة المركزية بالنسبة

(14) Benny Lévy: Génération 2 op. cit, p.647.

(15) Bernard Henri Lévy, le testament de Dieu. op. cit.

(16) Ibid. p.28.

(17) Ibid. p.13.

(18) Ibid. p.44.

لكل أولئك الذين يميلون اليوم إلى التفكير أخيراً في يؤس الذات المشخصة»^(١٩).
إن الثورات التي حدثت منذ بداية الحداثة هي، عكس ما يعتقده البعض، ثورات متدينة، وتدينها يكمن في وثنيتهما: تقديس الدولة، تقديس السلطة، تقديس الحزب، تقديس الشعب. . إنها عمومياً ثيوقراطيات: «إذا كنا نسمي ثيوقراطية إرادة دمج وتجسيد الله في العالم، فإن كل سياسة ثورة هي في جوهرها دائماً ثيوقراطية، ودائماً موصلة إلى البربرية»^(٢٠). أمام ثيوقراطية ووثنية الحداثة، المطلوب هو «مقاومة ديانة التوحيد»، ضد «ثورة ثيوقراطية»: «إذا كنا نسمي بشكل متطابق مع التوحيد إرادة فصل وتمييز الله عن العالم، فإن التوحيد باعتباره الأساس، وربما الأساس الوحيد، لسياسة تكون غير مكتملة دائماً، وباعتباره لا يعتقد إلا في خير يختفي دائماً، هو الاسم الآخر للمقاومة»^(٢١). ومن ثمة يجب أن نهجر المشروع الفلسفي السياسي الداعي إلى التوفيق بين السياسة والأخلاق، لأن السياسة الأخلاقية والأخلاق السياسية هما الفاشستية بعينها: «إن مثالي في الدولة. . هو الدولة بدون مثال»^(٢٢). الدولة بدون وثن، الدولة بدون مثال هي أولاً الدولة التي تتخلى عن كل تحقيق جماعي للسعادة ولأحسن الدساتير، هي تلك «التي تعلن أن السعادة فكرة توتاليتارية»^(٢٣). معنى هذا أن علينا أن نقلل بشكل كبير من دور السياسة: «أن نقلل من دور السياسي: الدولة الديمقراطية هي دولة في حد أدنى، دولة أقل دولة ممكنة»^(٢٤) ومن ثمة يجب أيضاً أن نقاوم فكرة «الشعب»، لأنها كفكرة السعادة تماماً فكرة توتاليتارية. ففد «فلاسفة الشعب»: هوبز، غروتيوس. . روسو ولوك، يجب أن نؤسس أخلاق «الشخص الخاص»، فلسفة مقاومة ضد سرطان ديانة السياسي. إن أخلاق المقاومة عند برنار هنري ليفي تنطلق من ثلاثة أسئلة أساسية: أولاً، كيف يجب أن يكون الإنسان لكي لا يصبح لقمة سائغة في معتقل؟. ثانياً، كيف يمكنه أن يفكر كي لا يصبح لقمة سائغة في معتقل؟. كيف يمكنه أن يفكر في ذاته لكي لا يصبح قتلاً؟ إن الجواب عن هذا السؤال يجد أصله في أربع أفكار أساسية: الإيمان بوجود قانون شامل مجرد، الرهان على ما هو شامل عمومي، التركيز على الفردانية والتفرد، الانكماش على

(19) Ibid.

(20) Ibid. p.48.

(21) Ibid.

(22) bernard. Henri Lévy: "L'aube triomphale du clavelisme". op. cit.

(23) Ibid. p.50.

(24) Ibid.

المبدأ الداخلي الحميمي الاستبطاني. هذه «المحركات» الأساسية لمقاومة أخلاقية نشيطة تتحول إلى إنجيل يتكون من وصايا: أولاً، «الناموس، ناموسك أقدس من الحدث»^(٢٥)، أقدس من «القدر»، من «العقل المطلق»، من «الجلد». ثانياً، «إذا لم يكن هناك حدث يمكن أن نضحى بالقانون من أجله. فالعالم يصبح إذن ناضجاً، ناضجاً في كل لحظة للحكم، وستكون دائماً فرصة لك من أجل إظهار الخير»^(٢٦)، ثالثاً، «يجب أن تضع دائماً نصب عينيك أن المستقبل ليس شأناً من شؤونك»^(٢٧). رابعاً، «لا يجب عليك أن تفعل شيئاً ما يكون غير قابل ولا مستحق أن تتم إعادته وتكراره»^(٢٨). خامساً، «إن حقيقتك غريبة عن النظام السياسي»^(٢٩). سادساً «ستارس المقاومة بدون نظرية ولا حزب ثوري». سابعاً، «يجب عليك قبل أن تلتزم أن تخرج عن الالتزام أولاً»^(٣٠).

هذه الوصايا السبع الجديدة تنحل إلى المبدأ التوراتي: «لا تقتل»، هذا المبدأ مرتبط بتجربة في الشر، بكوجيطو الشر: «أوجد لأن الشر موجود، ولأن الشر جذري»^(٣١).

هذا إذن هو التوراة الجديد للمقاومة: «بكلمة واحدة، ودون تهافت على السبق أقول: إن ديانة التوحيد هي فكر المقاومة في عصرنا، لأنها تقترح تحديداً للشر، ومذهباً للعدل، وأخلاقية ميتافيزيقية للزمن. وكذلك، لكي نبدأ، مؤشرات جواب عن السؤال الأبدي: ما الذي يمكنني أن أقدر عليه، ما الذي يجب علي عمله في مواجهة استبداد وكذب التاريخ»^(٣٢).

لكن موسى الجديد لم يكن يبشر وسط قبائل العبريين، بل إنه كان يبشر في صحراء قاحلة ليس فيها إلا الفرد. إن الناموس الموسوي هو نتيجة لتكسير الرباط الاجتماعي، لفردانية روبنسونية «إذا كان هناك تبادل للقول فلأن هناك الرابطة الاجتماعية، وكل رابطة اجتماعية هي الحرب بعينها»^(٣٣) هل عدنا من جديد إلى سياسة الآن؟. على أية حال، إذا كان مورييس كلافيل يوجه خطابه إلى «الضعفاء» و«المضطهدين» فإن برنار هنري ليفي يوجه خطابه إلى «الشعب اليهودي». الذي أعبر بسرور وبقوة عن ألوانه»^(٣٤). لكن

(25) Ibid, p.204,

(26) Ibid, p.205,

(27) Ibid, p.209,

(28) Ibid, p.213,

(29) Ibid, p.215,

(30) Ibid, p.220,

(31) Ibid, p.136,

(32) Ibid, p.200,

(33) Bernard Henri Lévy: "Barbarie à visage humain" op. cit. p.47,

(34) Bernard Henri Lévy: "le testament de Dieu". op. cit. p.9,

وتماماً كما حدث لموريس كلافيل - داعية الله - الذي تبرا منه رجال الكنيسة، فإن أهم مثقفي الطائفة اليهودية بفرنسا تبراوا من ليفي أيضاً. فهو بحفره في «الإيديولوجيا الفرنسية» أراد أن «يعرض» فرنسا أخرى قهرت الشعب الذي يخاطبه. أنه يعرض فرنسا من غير الحرية وحقوق الإنسان. يعرض فرنسا الفاشستية العنصرية: «لقد تعبت من العيش في الحلم كعصابي منفصم الشخصية سعيد، كبلد مقتنع، في فرنسا خيالية لا أعرف نفسي فيها»⁽³⁵⁾. إنه يعلن: «آن الأوان لإنهاء صورة فرنسا الديمقراطية»، فنصب نفسه ككاشف للأوهام، وكمقيم «لجنيالوجيا شياطيننا»، بضربه لليمين واليسار معاً على أنهما احتقرا اليهود فلو: «اعترضنا على برنار هنري ليفي لكونه يخرق كل قواعد التأويل الأمين والمنهج التاريخي فإنه سيجيب بأنه يستهزئ» من كل يبارق الجامعة»⁽³⁶⁾.

هذه الأخلاقية المقاومة القائمة على أساس ناموسي هي ما يشترك فيه موريس كلافيل وبرنار هنري ليفي و«فيلسوفين جديدين» قديمين آخرين: كرستيان جامبي وغبي لاردرو اللذان لا يتعلق الأمر بالنسبة لهما بالتقليل من شأن السياسة ونقل السلطة السياسية القائمة إلى سلطة أخرى، ولكن بالتححر النهائي من السياسة، في إقصاء ذاتيهما خارج ميدان السياسة. يتعلق الأمر «باختيار بين رهان التمرد والتصور السياسي للعالم»⁽³⁷⁾، فالسياسة هي دائماً تأكيد للسلطة، عالم غريب حيث يتواجه السادة المسيطرون مع المسيطر عليهم الذين يحاولون التمرد. لهذا العالم يجب أن نضع نقطة النهاية. المقاومة عند «الملاك» هي نوع من المانوية، فلأن السياسة هي ستالين، هي الشر، فإن هناك إمكانية تاريخ آخر، تاريخ المتمردين: «لقد أنقذنا باليقين الذي لم يهجرنا قط، والذي اتضح الآن بانكسار بين اثنين، بمانوية. ليس هناك تاريخ واحد ولا عدد نهائي من التواريخ، هناك تاريخان فقط، ويجب علينا. أن نعيد بناء استقلال التمرد، وممارسة النقد لكي يؤكد ذاته»⁽³⁸⁾.

الوقت الآن لا يلعب لصالح الثائر الذي يواجه السيد في نفس ساحة المعركة وبنفس السلاح: السيادة. انه محكوم عليه ألا يتخلص أبداً من خصمه وأن يشابهه إلى الأبد ويرغب في سلطته. إن الوقت الآن هو في صالح المتمرّد المطلق المستقل نهائياً عن السيد

(35) Bernard Henri Lévy: "l'idéologie Française" col. figures Grasset 1981. p10.

(36) Raymond Aron: Provocation. L'express n°1544, 14 Février 1981. p.21.

(37) Bernard Henri Lévy: le nouvel observateur du 20 Avril 1976.

(38) Christian Jambet et Guy Lardreau. L'ange, Grasset 1976, p.230.

المفصول عنه بشكل مطلق. إن التمرد هو المقاومة.

ويتخذ كلوكسمان مسافة ابتعاد واضحة من هذه المقاومات ذات الطبيعة الدينية الظاهرية. صحيح انه يؤكد مع غي لاردرو وكروستيان جامبي أن «مقاومة جاذبية النبوءة تتضمن التخلي عن خطاب الأستاذية»⁽³⁹⁾، ومع موريس كلافيل وبرنار هنري ليفي بأن ديانة التوحيد أنقذت ديكارت (نموذجه المفضل) من السماح بتسرب أفكار «توتاليتارية» لأن «إله اتخذ مسافات كبيرة، مسافة لانهاية بشكل لانهاية»⁽⁴⁰⁾. إلا أن مشروعه يندرج في إطار آخر نجد له خطاً رفيعاً في تجربة مريرة لليسار الفرنسي «إننا نعرف ما كان يسميه هتلر بالحل النهائي! إنه مذهب سياسي يدعي كونه الحل النهائي ويتضمن الإبادة في أحشائه بالفعل. إن وجود الحرية يفترض الصراع الأكثر شراسة ضد كل سياسة خير وعدل وحقيقة (بالمعنى المطلق)»⁽⁴¹⁾. إن ما يؤكد عليه كلوكسمان - ديوجين القرن العشرين - هو ضرورة أن نعيش بدون أوهام في عالم رسالات، أي: «أن نفكر في الوقت الذي يسقط فيه الظلام». بماذا نؤمن؟ ماذا نقول عن الإنسانية ووجودنا في العالم؟ يحدث الإرهاب باسم الإله الواحد، يتم التقتيل باسم المستقبل الزاهر. أحسن النوايا تؤدي إلى أخطر حمامات الدم. مستحيل أن نظل نعيش على الوهم، ما أمكن حدوثه يمكن أن يحدث دائماً حتى آخر العالم... كيف تتفلسف بعد أوشويتز؟»⁽⁴²⁾. إن عصرنا مصاب بالعدمية، والعدمية ليست هي القول بأن الخير غير موجود وإنما هي القول بأن الشر غير موجود. ما التوتاليتارية؟ «إنها الفكرة القائلة بأن الشر غير موجود»⁽⁴³⁾. وأنه يوجد فقط الخير والعدل والجمال. ما المقاومة؟ هي الفكرة القائلة بأن الشر موجود وبأن الخير والجمال المطلق والعدل المطلق غير موجودين مطلقاً. ما يريد أن يحققه كلوكسمان هو: «أخلاقية جماعية مهضومة تؤمننا في حدود الممكن ضد الشر». تجربة تشكيكية سقراطية، نقطة استهزاء ويقظة بانورجية، تجربة شك ديكارتية، أمر أخلاقي كانطي: «ألا نفعل الشر، دون أن نعتقد في الخير المطلق». لقد كان أوشويتز، حدث الشر.

إن ما يكتشفه كلوسمان في مقاومات المنشقين السوفييات سولجنتسين، زينوفيف،

(39) André Glucksmann: La bêtise, op. cit. 253.

(40) André Glucksmann: "Descartes c'est la France". op. cit. p.38.

(41) Jacques Ellul: "éthique de la liberté" Genève Labor et Fides 1975. T II p.41.

(42) André Glucksmann, Descartes, c'est la France, op. cit. p.195.

(43) André Glucksmann, Ibid. p.14.

ماندولستام . . هو كيف نتعلم التفكير بطريقة أخرى، فهو يلاحظ أن الناس غالباً ما كانوا يقاومون عن طريق تقليد جلادهم نفسه، وهذا وهم، لأنه يفترض تنظيم كبيراً ضد تنظيم كبير، دولة ضد دولة، بوليساً سياسياً ضد سياسة بوليسية. أن ننشق، معناه الصمود ضد هذا التقليد نفسه. كل واحد يقاوم بنفسه ولوحده إلا ولسان حاله يردد مع المنشق السوفيياتي بوكفسكي: «من الأحمق، العالم الرسمي أم أنا؟». إن ما يتم التركيز عليه في أخلاقية «المقاومة عند كلوكسمان هو أن «كل واحد يقرر وينشق وحده. وبعد ذلك تنتشر المقاومات كالنار في سهل: ليس هناك تنظيم للمقاومة، يقاوم بمعنى ما من المعاني، خلف ظهر كل واحد ويوجه مقاومته»⁽⁴⁴⁾. معنى هذا - وكلوكسمان هنا يدعي استيعاب درس فوكو - أنه ليست هناك ذات حاملة للتاريخ وللمقاومة كالبروليتاريا مثلاً، وهو الخطأ الذي وقع فيه الغرب نفسه بعد الشرق: «لقد فوضنا إلى طبقة، إلى دولة، إلى حزب أمر التفكير وأمر المقاومة وأمر صنع تفكيرنا وأملنا»⁽⁴⁵⁾ يجب أن ننبج من خارج القافلة لا من داخلها كديوجين الكلبي تماماً: «إن النظام الاعتقالي يسود في ثلثي كوكبنا، ويجب أن نقاوم بالاعتداد على قوانا الخاصة. هذه القوى قوى فردية لا تنتمي إلى أي تنظيم كيفما كان نوعه ولا إلى أية أيديولوجية»⁽⁴⁶⁾. ان التوتاليتارية تضرب ثلاث مرات: الرأس «المسيرون . . » والاطر والمؤسسات والعادات المتعلقة بإعادة انتاج المعرفة، ثم الهرم الاجتماعي في أساسه: القيم الثقافية الغربية: «إن درس سولجنتسين هو ان المقاومة ضد التوتاليتارية لا تتم في إطار لعبة صراع الزعامات ولا حتى في أهمية المعارضة المتنورة، بل من «الأسفل»، في المقاومة الأخلاقية، الفلسفية والدينية لأناس عاديين»⁽⁴⁷⁾، هؤلاء الناس العاديون يسميهم كلوكسمان مقلداً ميشيل فوكو «العامّة» La plèbe.

لو تتبعنا مفهوم العامة «في الفكر السياسي الكلاسيكي لوجدنا ان أول من أشار إليه كقوة اجتماعية شعبية هو مكيافيلي، ثم نجده عند فيخته وقد أصبح الشعب بدون سلطة، وعند هيغل القوة التي تشكل في الدولة مقابل الشعب الذي هو قوة ذات ثقة في الدولة. يقول هيغل «إنه رأي عامي ووجهة نظر سلبية ذلك الافتراض القائل بأن الحكومة

(44) Glucksmann: dialogue, op. cit, p.52.

(45) Ibid, p.52.

(46) Ibid.

(47) André Glucksmann, La Bêtise, op. cit, p.73.

لها إرادة سيئة»^(٤٨). مفهوم «العامة» هذا نجده بوضوح في كتابات تولستوي، وبعده في كتابات سولجنتسين الذي يقترب منه كثيراً. يقول جورج لوكاش منتقداً بناء فكرة المقاومة عند سولجنتسين على أساس فكرة «العامة»: «إن وعياً بهذه القوة. . إن نقداً ذاتياً لروح العامة يمس العمق الاجتماعي لهذا التنظيم ينقص حتى الآن في كتابات سولجنتسين»^(٤٩) ونحن نعتقد أنه لا ينقص بقدر ما يتماشى مع الغشاوة الدينية التي تلف بعض كتابات هذا الروائي المنشق.

إن الذي حاول نزع الغشاوة الدينية عن تصور العامة هو ميشيل فوكو. يقول فوكو: «لا يجب أن نتصور «العامة» كأساس دائم للتاريخ، الهدف النهائي لكل الاستعدادات، العيش الذي لم تفرخ فيه كل الثورات. ليس هناك بدون شك حقيقة سوسيولوجية «للعامة». ولكن هناك بكل تأكيد، شيء في الجسد الاجتماعي، في الطبقات وفي الجبايات، في الأفراد أنفسهم، ينفلت بمعنى ما من المعاني من بين أصابع علاقات السلطة. . إن «العامة» لا توجد بدون شك، ولكن توجد هناك «عامة» توجد عامة في الأجساد، في الأرواح، في الأفراد، في البروليتاريا، توجد «عامة» في البروجوازية. . هذا الجزء من العامة ليس هو خارج بالنسبة لعلاقات السلطة بقدر ما هو الحد»^(٥٠). هذه «العامة» تفيد في نظره في تحليل آليات السلطة. لأن «العامة» تستعمل دائماً إما عن طريق استبعاد حقيقي، أو كعامة أو استراتيجية مقاومة. ثبات العامة كاستراتيجية مقاومة هو ما يركز عليه أندريه كلوكسيان: «إن تاريخ العامة لا تهيمن عليه أية رغبة في شيء معين - سلطة، ثروات، شرف - ولكنه مستثمر كلية في ألا تكون العامة مضطهدة»^(٥١). وكما قال مكيافيلي سابقاً «إن صداقة الشعب يمكن الحفاظ عليها، إنما لا تتطلب شيئاً آخر غير ألا يكون الشعب مضطهداً». وكلوكسيان يجد أمثلة لمقاومة العامة هذه في حالات فردية (منشقون)، وجماعية (كومونة باريس، ثورة ماي ٦٨. . .). إن العامة هي نوع من «الطابق السفلي» للتاريخ الذي غالباً لا تمسه السلطة. لكن أليس هذا «الطابق الأسفل» ذاتاً حاملة للتاريخ كالبروليتاريا تماماً؟. يجيب كلوكسيان: «لا يتعلق الأمر أبداً بأن نصنع من «العامة» ذاتاً جديدة حاملة للتاريخ. فوكو يقول بالضبط ليست هناك

(48) André Glucksmann: "les maitres penseurs", op. cit, p.220 (Hegel cité).

(49) Georges Luckas: "Soljénitsyne", p.170.

(50) Michel Foucault: Recherches logiques, n°4, 1977.

(51) André Glucksmann: "la cuisinière et le mangeur d'hommes" op. cit, p.217.

«العامة»، وإنما توجد عامة» إن المهم هو أنها تقاوم في مكان آخر أكثر من المكان المنتظر. لقد شهدنا تأمرات عجيبة مع الغولاج، ولكن المقاومات كانت فعل الإنسان الأقل مستوى ثقافي»⁽⁵²⁾. إن وظيفة مفهوم «العامة» تستهدف تكسير احتكار التاريخ من طرف البروليتاريا كما تنصورها الماركسية، وبناء فلسفة سياسية جديدة تعتمد مفهوم العامة كأساس نظري. لكن هذا يطرح مشاكل نظرية عديدة: «إن عامته هي كذلك مطهرة من التناقضات كبروليتاريا المذهبيين... هناك من جهة أولى سلطة وخطاب السادة (فلاسفة، ملوك، يعقوبيون، ماركسيون...)، منظم حول قواعد قسر الدولة، ومن جهة أخرى الطبقة التي ليست لها سلطة، العامة، سخاء خالص، خطابها يعبر عن الرغبة الوحيدة في ألا تكون مضطهدة»⁽⁵³⁾. علاوة على هذا، فإن الرفض الكبير للسلطة الذي يميز عامة مشروع كلوكسمان لا نجده عند فوكو الذي يفكر في السلطة انطلاقاً من مقولات سياسية كبرى كالوضعية والاستراتيجيات وعلاقات القوى: «ليس هناك إذن بالنسبة للسلطة محل للرفض الكبير الشامل - روح التمرد، مجال كل التمردات، قانون خالص للثوري - ولكن مقاومات... لا يمكنها أن توجد إلا في الحقل الاستراتيجي لعلاقات السلطة»⁽⁵⁴⁾. فلو طبقنا المنطق الذي يتحرك في إطاره «الفلاسفة الجدد» فيما يخص التفكير في السياسة والسلطة والدولة لقلنا: «إن المقاومة نفسها سلطة». لقد حارب كلوكسمان أيام ماويته «الفاشستية التي تأتي من أعلى»، أما اليوم «فلربما هو يدافع عن الفاشستية التي تأتي من أسفل».

إذا كانت «جنرالوجيات الشر» تضع في نهاية المطاف الشر في الماركسية. فإن «جنرالوجيات المقاومة» تضع أساس المقاومة في نهاية المطاف في شخصية اليهودي. إن فكر «الفلاسفة الجدد» يترجم حساسية يهودية مفرطة، بل عصاباً يهودياً. يقول موريس كلافيل «يهودية فكر». نعم، هنا أيضاً، يجب أن نكون كلنا يهوداً. لأنهم لا يحبون اليهود، أساتذتنا... ومن ثمة فالتوراة عندهم فضلة»⁽⁵⁵⁾. يهودية الفكر هذه لا تخلو من أي كتاب من كتب «الفلاسفة الجدد». موريس كلافيل حين يتحدث عن الناس الضعفاء، فإنه يقصد اليهود أصلاً، وبرنار هنري ليفي حين يتحدث عن المقيهورين

(52) André Glucksmann: Les entretiens du Monde. op. cit. p.120.

(53) Jacques Rancière: "la bergère au goulag", les révoltes logiques n°1 p.109.

(54) Michel Foucault: "la volonté de savoir" cité par François Aubral et Xavier Delcourt (contre la nouvelle philosophie) Gallimard, 1977. p.330.

(55) Maurice Clavel: "deux siècles..." op. cit. p.23.

والمضطهدين فإنه يقصد اليهود بالذات، وإن كلوكسمان حين يتحدث عن العامة فهو يقصد اليهود بالذات. جنرالوجيا الشر هي جنرالوجيا اغتراب اليهودي عن ذاته، وجنرالوجيا المقاومة هي جنرالوجيا عودة اليهودي إلى ذاته. إن ما يبحث عنه «الفلاسفة الجدد» في محنة أوشفيتز هو صورة اليهودي. الآخرون لا يهتمون إلا بقدر ما يدافعون عن اليهودي. كلوكسمان - أكثر «الفلاسفة الجدد» إحساساً بيهوديته بالإضافة إلى برنار هنري ليفي - حين يقيم جنرالوجيا للمقاومة يرسم هذه الصورة «البريئة» البطولية لليهودي: «بالنسبة للفلاسفة الألمان، اليهودي هو الذي يحاول «الانشقاق». . . إنه ينفلت أولاً من قبضة الدولة. إن اليهودي هو بوهيمي كالغجري، لذلك يجب وضعها في معسكرات الاعتقال. بالإضافة إلى ذلك، اليهودي هو الذي يتحدث لغة مخالفة، فهو بذلك يهدم البيروقراطيات المركزية. . . وأخيراً هناك المال أي ترويج اقتصادي ينفلت من قبضة الدولة. . . إن الجانب «الخاص» في اليهودي هو المستهدف»⁽⁵⁶⁾. يصبح هذا تاريخ المقاومة هو تاريخ وعي اليهودي بذاته: «ماذا تستهدف نزعة معاداة السامية حين تتحامل على اليهودي «الوسخ»؟ الثري (روتشيلد)، المثقف (إينشتاين)، الكافر (فرويد). إنها تعلن كراهيتها الكبرى لثروة غير وطنية، لفكر بلا روابط ولا ضفاف، لوضع الأنحلاق موضع تساؤل دائم، كذا الحياة الجنسية والتقاليد: إن اليهودي يجسد، منذ القرن التاسع عشر، كل ما يتم الإحساس به على أنه غير وطني من طرف أوروبا الأمة الشابة، أي الترويج الحر للناس والمال والأفكار والرغبة»⁽⁵⁷⁾. إن اليهودي هو الحياة Eros، هو العقل Logos، هو الحوار المفتوح Polémos في رأي كلوكسمان. ويقول برنار هنري ليفي: «إني أتحدث عن شعب اليهود، وهو بالطبع الشعب الذي لم يكن من الممكن أبداً ترويضه، لأن مثابرته على وجوده تظل إحدى أعمق الألغاز التي تطرح أمام الضمير المعاصر. إني بقوة وسعادة، اخترت أن أحمل وأعبر عن ألوانه وراياته. وإني أدعي وأبرهن على ذلك بأن أصحاب الكتاب المقدس هم مخترعو الفكرة الحديثة للمقاومة»⁽⁵⁸⁾. أمام هذا العصاب اليهودي يصبح كل الفلاسفة الكلاسيكيين معادين لليهودي إن لم نقل نازيين: «إن أساتذة الفكر ليسوا نازيين. . . ولكن لهم مع النازية

(56) André Glucksmann: dialogue, l'express, op. cit. p.52.

(57) André Glucksmann: "la Bêtise", op. cit. p.56.

(58) Bernard Henri Lévy "le testament de Dieu", op. cit. p.9.

علاقة مباشرة مثيرة: المعادة للسامية (اليهود)⁽⁵⁹⁾، ففيخته معاد لليهود وهيغل معاد لليهود، بل وماركس اليهودي أيضاً معاد لليهود، بل إن ما يوحد بين تجربة الغولاغ وتجربة أوشفيتز، أي ما يبنى جنجالوجيا الشر والمقاومة - هو المعادة لليهود. إن منطق الفلاسفة الكبار في رأي كلوكسمان هو «أنا موجود، إذن اليهودي غير موجود»⁽⁶⁰⁾.
 وحين يتحدث فوكو عن اعتقال المجنون فإن كلوكسمان يضع محل المجنون، اليهودي: «إن العقل في العصر الكلاسيكي لم يعتقل أبداً المجنون وحده. إن سياسة العقل حين أصبحت «وعياً بالذات» كانت تستهدف اليهودي»⁽⁶¹⁾. حين تضبط هذا التعريف لليهودية في عرف كلوكسمان فإنه لن يصبح أماناً إلا أن نقول بأن فلسطيني الأراضي المحتلة هم اليهود الحقيقيون. يقول كلوكسمان: «اليهودية هي كل شكل جماعي خارج عن سلطة الدولة، كل حياة جماعية خارجة عن مراقبة الدولة المركزية»⁽⁶²⁾. والصهيونية، ماذا عن أمرها؟ يجيب برنار هنري ليفي بالنيابة: «كلنا أبناء إسرائيل»، ويضيف: «هذا هو الموقع الغريب لإسرائيل التي ليست هي مكان في العالم بقدر ما هي مقولة فكرية. هذا هو معنى أننا كلنا، أنكم، يهود فلسطين تلك»⁽⁶³⁾. ما العمل إذن حين تتحول اليهودية من عصاب إلى الصهيونية كمقولة فكرية: «أنا صهيوني، إذن أنا موجود». مفارقتان تطبعان هذا الموقف: أولاً، حين يؤكد «الفلاسفة الجدد» أن الغولاغ كان ضد اليهود فكيف نفسر أن أغلب المنشقين السوفيات اليمينيين كانوا دائماً يعتبرون المسؤول عن الثورة البلشفية في بلادهم هم اليهود؟ أن سولختنسين يحاول في بعض رواياته البرهنة على الطابع اليهودي لكل صانعي الثورة البلشفية. بالإضافة إلى هذا كيف يمكن أن ننكر وجود طابور خامس في الدول الشرقية حاول دائماً توجيه سياسة هذه البلدان إزاء المشرق العربي، كي نفسر أن أول من اعترف بالدولة الصهيونية هو ستالين؟^{١٩}.

(59) André Glucksmann: les maitres penseurs. op. cit. p.123- 124.

(60) Ibid. p.131.

(61) Ibid. p.132.

(62) Ibid. p.152.

(63) Bernard Henri Lévy. Le testament de Dieu. op. cit. p.193.

تساؤلات الساحة الثقافية الفرنسية

"DE l'affaire Dreyfus à Hitler et à Auschwitz, il s'est confirmé que l'antisémitisme (avec le racisme et la xénophobie) qui a révélé le plus fortement l'intellectuel à lui-même: autrement dit, c'est sous cette forme que le souci des autres lui a imposé (ou non) de sortir de sa solitude Créatrice".

Maurice Blanchot

"... Et l'on apprend tour à tour que tout langage est fasciste, que tout discours est discours du pouvoir, mais que le pouvoir n'existe pas car ses "réseaux" sont partout, (sauf, attention, au collège de France) et que du reste si fascisme il y a, c'est que les torturés, les exploités, etc, jouissent de l'être..."

Cornélius Castoriadis

من قضية دريفوس إلى بداية الإعلان عن «موت المثقفين» قرابة مائة سنة، ومن سياسة الآن إلى سياسة الفلاسفة الجدد، قرابة خمسة عقود من الزمن. ما يمكن الاحتفاظ به ضمن إشكالية المثقف والسلطة بفرنسا ثلاث قيم شكلت الوجه الإشكالي للمثقف وهو يقيم جنيا لوجيا للسلطة وأخلاقية مقاومة: أولاً، المثقف الفرنسي - يهودي بالقوة، يهودي الحساسية ويهودي الانتماء الثقافي والفكري العام. ثانياً؛ تاريخ المثقف الفرنسي هو تاريخ قضايا اجتماعية وسياسية كبرى: قضية دريفوس (الآن)، قضية الجزائر وهنغاريا (جيل «الأزمة الحديثة»)، قضية المنشقين السوفيات («الفلاسفة الجدد»). ثالثاً: المثقف الفرنسي يصفي باستمرار حسابه مع وعيه السابق ويعلن باستمرار «موت المثقف».

كانت هذه القيم الثلاث هي التي وجهت فصولنا الثلاثة: تحدثنا عن قضية دريفوس اليهودي، واستخلصنا قيمها الثابتة، تحدثنا عن جيل «الأزمة الحديثة» وغرامه بالتاريخ، عن جيل الستينات وغرامه بالاختلاف، عن جيل السبعينات وغرامه بالرغبة

والجسد، عن جيل الثمانينات وغرامه بشخصية اليهودي: سقراط الأبدي... لكن هذا «الجيل الجديد» استرعى انتباهنا بالخصوص، لأننا نعتقد أنه «الوعي المزيف» لجنيا لوجيا المثقف وهو ييني جنيا لوجيا السلطة. إنه جيل يتيم، يتيم من حيث أنه لم يفلح أبداً في تكريس نموذج فلسفي دقيق كجيل «الأزمة الحديثة» (الفينومولوجيا والوجودية)، وجيل الستينات والسبعينات (البنوية والاختلاف). ويتيم أيضاً من حيث ضعف تكوينه الفلسفي العام، حيث تربى في أحضان ماركسية علموية وتحليل نفسي وضعاني سرعان ما ثار ضدهما. حين يتحدث «الفلاسفة الجدد» عن ماركس يقصدون ماركس - التوسير، وحين يتحدثون عن فرويد يقصدون فرويد - لاكان. لقد أحسوا كالصبي أنهم لا يخافون من الظلام بقدر ما يخافون من مرافقهم في الظلام: ماركس - خطاب الأستازية. إن تتبعنا لفكر «الفلاسفة الجدد» سمح لنا بدون تردد أن نحكم على هذا الفكر بأنه مهتز: منطق المزاج وأساسه التمويه وإعمال مقص أوكام ليفصل النصوص الفلسفية الكبرى ولينميها على سرير بروكست. لكن السؤال الذي ظل يرافقنا منذ بداية اهتمامنا بخطاب «الفلاسفة الجدد» هو: من سمح بهذا الخطاب؟

إن الجدل حول هذه المسألة شغل حيزاً كبيراً من اهتمام المثقفين الفرنسيين. لقد اتفق أغلب الباحثين في ظاهرة «الفلاسفة الجدد» على أن وسائل الإعلام لعبت الدور الأكبر في خلق «اتفاق» جماهيري واسع حول المواضيع التي يمكنها أن تناقش: تحليل ظاهرة التوتاليتارية، نقد الدولة والغولاج، الصراع من أجل «حقوق الإنسان»، الطعن في العقل الأوربي... إن «الفلسفة الجديدة» يمكن فهمها أولاً على أنها انقياد، وخلق في نفس الوقت، لفلسفة تضبط خطابها مع ما تروجه وسائل الإعلام الغربية يومياً وسط الناس، لدرجة أن أحد المهتمين لم يتردد في القول بأن «تبسيطة الفلسفة الجديدة عزفت على الإيقاعات الحساسة للخطاب المشترك»^(١)، لكن هذا الخطاب المشترك ليس في نهاية المطاف إلا الخطاب المفروض من طرف وسائل الإعلام. لقد «حطمت فرنسا رقماً قياسياً بالفعل: نجحت في أن تبيع الفلسفة في التلفزة»^(٢). يقول جيل دولوز: «لقد اكتشفت الصحافة في نفسها فكراً مستقلاً ومكتفياً بذاته... إنه فكر من نمط جديد، الفكر -

(1) Olivier Mongin: "d'une vulgate à l'autre: à propos de la nouvelle philosophie" Esprit n°12 Décembre 1977. p.15.

(2) Jean- Marie Domenach: "enquête sur les idées contemporaines" Points 1981. p.19.

الاستجواب، الفكر - الحوار، الفكر - الحقيقة . . إن هذا هو الذي ممكن من إحداث مشاريع للتسويق الثقافي»⁽³⁾.

لكن هذا الموقف المشترك بين الكثير من المثقفين الفرنسيين اليوم لا يجب أن يغرينا كثيراً، فوسائل الإعلام المستهدفة اليوم، كانت في الأمس القريب تلعب دوراً كبيراً في ترويع الثقافة الرفيعة وسط الجماهير، وعوض أن تكون الجريدة كما ادعى برودون «مقبرة للأفكار»، كانت أداة تواصل ثقافي واسعة، لتذكر مثلاً مجلة «الأزمة الحديثة» أو مجلة «فكر» . . .

إن هذا التحليل لن يصبح ذا فاعلية إلا إذا أضفنا إليه ظاهرة جديدة عرفت الساحة الثقافية الفرنسية منذ الستينات، ويتعلق الأمر بظاهرة الجمل القصيرة العنيفة، تلك الجمل التي مارست عنفاً واضحاً على القارئ وأسست خطاباً صحافياً تبسيطياً منطقها المبالغ؛ هذا الخطاب كان خطاباً عنيفاً انتقد العقل بشكل مطلق وانتقد السلطة بشكل مطلق وانتقد الدولة والحزب بشكل مطلق وعاد بنا إلى المنطق القائل: إن كل الأبقار سوداء في الظلام؛ كل السلط رمادية، وكل الأحزاب توتاليتارية، وكل خطاب فاشستي: «فبدأنا نسمع أن كل لغة فاشستية وأن كل خطاب هو خطاب سلطة»⁽⁴⁾. هذا الخطاب المبالغ العنيف شق مع الأسف طريقه إلى كتابات رصينة ككتابات ميشيل فوكو وجيل دولوز وفرانسوا شاتليه وجاك دريدا وميشيل سيرس وجون فرانسوا ليوتار . . . إن نقد العقل في الفلسفة الفرنسية المعاصرة يجد أصله في ثلاثة مصادر: تقليد فلسفي هيدجري قال عنه ذات يوم جورج لوكاش: «إن سفينة هيدجر المتعجرفة لن تصبح غداً إلا مركباً شبحاً»⁽⁵⁾. ونظرية ذات طورها جاك لاكان: «تنبعث ذات استيهام في كل ذات تمثل»، وإيمان أنتربولوحي بتعددية الثقافات. هذه المصادر الثلاثة ساهمت في خلخلة أسس العقلانية الكلاسيكية، ولكنها من جهة أخرى ولدت بعض المبالغات القريبة من الهذيان والشطحات.

يقول ميشيل فوكو: «الحقيقة هي نفسها سلطة»، «السلطة موجودة في كل مكان»⁽⁶⁾. . . ويقول فرانسوا شاتليه: «الدعوة إلى العقل هي دائماً دعوة للخضوع إلى

(3) Gilles Deleuze, cité par Régis Debray: "le pouvoir intellectuel en France" op. cit. p.113.

(4) Castoriadis: "La psychanalyse" projet et élucidation" Topique n°19 Avril 1977. p.74.

(5) Georgy Luckàs: La destruction de la raison, cité in Magazine littéraire n° spécial Heidegger. p.21.

(6) Michel Foucault. L'arc n°70.

الدولة»، «إن الحزب الحديث.. هو أحسن سند للدولة».. (٧)، ويقول ميشيل سيرس: «إن العقل قاتل للأقليات منذ ولادته»، «إن الخطاب في المنهج هو خطاب حرب» (٨).. هذه استشهادات قليلة إذا ما قورنت بحجم ما يمكن استخلاصه من كتابات فوكو وشاتليه وسيرس وديريدا ودولوز وليوتار. إن هذا الخطاب الهامشي الصحافي هو الذي وظفه «الفلاسفة الجدد» في نسبة كلبية، حيث كل الأبقار في الظلام سوداء، كل السلط رمادية، كل الحقائق توتاليتارية، كل العقلانيات قاتلة، كل المذاهب طغيانية، كل الأنساق بناة للغولاغ.. كل المواقف المضادة للصهيونية نازية.

يقول برنار هنري ليفي: «المثال العلمي مثال بوليسي»، ويقول أيضاً: «لقد أثبت ميشيل فوكو أن العقل أداة استعباد» (٩). ويقول كلوكسمان: «إن العقل يجادل وينقض ويسكت المتشككين» (١٠)، ويقول موريس كلافيل «إن «تاريخ الجنون» هو الكتاب الأول الذي برهن على أن العقلانية أداة هيمنة واستعباد للناس» (١١). هكذا تتحول «سكرة الخطاب» من «سلطة الخطاب» (فوكو)، إلى «لاشعور الخطاب» (لاكان)، إلى «تفكيك الخطاب» (ديريدا)، إلى «فاشستية الخطاب» (بارث). والنتيجة أن كل خطاب فاشستي، وأن العالم خطاب، والتاريخ خطاب، والعالم سلطة، والخطاب سلطة، والتاريخ سلطة، والفيلسوف هو أيضاً سلطة، سلطة الأستاذ. يقول جاك لاكان: «أيها وجد خطاب توجد الأستاذية» (١٢)، ويقول ليوتار: «إن فرضيتي كانت دائماً هي أن العقل المعرفي يكمن في قواعد اللعبة اللغوية» (١٣)، وقواعد اللعبة اللغوية تكمن في لعبة السلطة، ولعبة السلطة تكمن في لعبة الفلسفة، وكل الفلسفة - كيفما كان مجالها - يجب أن تكون سياسية. يقول ميشيل فوكو: «إن الفلسفة اليوم كلها سياسية وكلها تاريخية. إنها السياسية المحايثة للتاريخ والتاريخ الضروري للسياسة» (١٤).

(7) François Chatelet: Chronique des idées perdues op. cit. p.122. 123. 159.

(8) Michel Serres: Thanatocratie. ciritique n°289 Mars 1972. p.210.

(9) Bernard Henri Lévy: Politiques de la philosophie. Figures, Grasset, 1976 p.177. 186.

(10) André Glucksmann: Les maitres penseurs, op. cit. p.78.

(11) Maurice Clavel: "la révolution culturelle aujourd'hui" Magazine littéraire, Septembre 1977, p.58.

(12) Jacques Lacan: Le séminaire, livre XI seuil 1973. p.47.

(13) Jean François Lyotard: Le monde 2 juillet 1984. p.XV.

(14) Michel Foucault: cité par Jacques Bouveresse: "pourquoi pas des philosophes?" critique n°369 Février 1978. p.118.

ومما زاد في الطين بلة ، أن هؤلاء الفلاسفة (فوكو، بارث) أوحوا في مناسبات عديدة بأنهم يوافقون «الفلسفة الجدد» في أطروحاتهم، فنجد فوكو يكتب عن كتاب كلوكسمان: «الأساتذة المفكرون» مقالاً تقرظياً واضحاً حيث يقول: إن أخلاق المعرفة اليوم ربما تتمثل في جعل الواقع مرأً، فقطاً، وعراً، غير مقبول. لاعتقائياً إذن؟ بالطبع إذا كان جعله عقلاً معناه تهدئته، وملؤه بيقين هادئ، أي تمريره في آلة نظرية كبرى صالحة لإنتاج العقلانيات المهيمنة. بالطبع أيضاً، إذا كان جعله لاعتقائياً معناه منعه من أن يظل ضرورياً وجعله قابلاً لسيطرة الصراعات والخصومات الجلية، وقابلاً للنقد ما دمنا قد نزعنا صفة العقلانية عنه»⁽¹⁵⁾، ونجد بارث يعجب بأسلوب برنار هنري فيني بل بسياسته، ويعجب بكلوكسمان: «إنني أعرف كلوكسمان، لقد عملنا جميعاً وأحب ما يعمل»⁽¹⁶⁾.

إن هذا التقرير سمح «للفلاسفة الجدد» بقراءة غريبة لأعمال ميشيل فوكو، حيث استدعيت نصوصه في كل المناسبات لتبرير منطق كلبي واضح، فكلوكسمان يوظف نصوص فوكو في كتابه «الطباخة وأكل لحم البشر» و«الأساتذة المفكرون» بشكل يدعو إلى التعجب. وبرنار هنري ليفي يستشهد به في مناسبة وفي غير مناسبة، وكلا فيل يوظفه في كل حواراته. لكن حين تستعصي بعض النصوص عن الامتثال أمام آلة الاقتباس والتضمين، توجهه الضربات لفوكو. فبرنار هنري ليفي يتعجب من فلسفة «موت الإنسان» التي تدافع عن «حقوق الإنسان» ويعتبر أركيولوجية المعرفة مسؤولة عن تجميع الثقافة أكثر من وسائل الإعلام. نفس المصير يلقيه جاك دريدا وجيل دولوز.

إذا كان هذا الخطاب، خطاب «الفلاسفة الجدد»، قد أوضح بما فيه الكفاية أنه لم يعد من الممكن اليوم الحديث عن الماركسية، عن ماركس الفرنسي، كما كان من قبل، ماركس المفصلة ملابسه وفق العلم الوضعي، فإنه من جهة أخرى ثانية حظي بردود فعل عنيفة سواء من طرف جيل «الأزمة الحديثة» أو جيل الستينات والسبعينات. من الجيل الأول اخترنا نموذجين: سارتر وآرون، ومن الجيل الثاني: دولوز، كاستور ياديس، شاتليه، لوفور، وجاك بوفريس.

(15) Michel Foucault: "la grande colère des faits" le nouvel observateur n°652 du 9/5/1977.

(16) Roland Barthes "A quoi sert un intellectuel?.. cité par François Aubral et Xavier Delcourt "contre la nouvelle philosophie". idées. Gallimard 1977. p.302.

إذا كان سارتر قد أكد أن: «الماركسية كفلسفة سلطة قدمت فياسها في روسيا السوفياتية»، وأنها هي «بالفعل في قلب النظام السوفياتي ولم تحرف من طرفه»، فإنه من جهة أخرى أدان «النزعة التهويلية» للغولغ عند «الفلاسفة الجدد» وأكد على ضرورة «خلق فكر آخر، فكر يأخذ بعين الاعتبار الماركسية ليتجاوزها، ليلفظها ويأخذها من جديد فيشملها في ذاته»^(١٧). أما ريمون آرون فهو يقيم فكر «الفلاسفة الجدد» في مناسبات عديدة: «إن «الفلاسفة الجدد» لا يثيرون انتباهي شخصياً، إنهم لا يمثلون طريقة أصيلة في التفلسف، فلا يمكن مقارنتهم بالفيثومولوجيين ولا بالوجوديين ولا بالتحليليين. إنهم يكتبون مقالات خارجة عن القواعد الأكاديمية، فانحصارهم سببته وسائل الإعلام وغياب أمر نقدي عادل ومعتز به في باريس اليوم»^(١٨).

ودولوز الذي نشر نقداً لاذعاً ضد «الفلاسفة الجدد» ووزعة شخصياً بالجامعة الفرنسية، كان من أقسى الذين انتقدوا «الفلاسفة الجدد». فليس خطابهم في رأيه إلا تكيفاً مع شروط وسائل الإعلام: «إن الفلاسفة الجدد حين يدينون ماركس لا يعملون على إقامة تحليل جديد للأسس الذي يفقد بشكل غريب كل وجود عندهم، إنهم يدينون نتائج سياسية وأخلاقية ستالينية يفترضون أنها متولدة مباشرة عن فكر ماركس»^(١٩). أما شاتليه فهو ينتقد: «أولئك الذين يقفون ضد ماركس بدعوى أنه أنتج... الغولغ... إن هذه تقارير غريبة ومثالية من بين نتائجها نزع المسؤولية عن التشكيلات الاجتماعية والفاعلين الاجتماعيين الذين أنتجوا فعلاً هذه الأحداث»^(٢٠). وكاستورياديس بعد أن يؤكد على أن «صناعة وسائل الإعلام تحتاج كل ستة أشهر إلى نجم جديد»^(٢١)، يعيب على «الفلاسفة الجدد» انطواءهم في نزعة أخلاقية: «إن الانطواء على الأخلاق، هو في أحسن الأحوال، ليس إلا حلاً زائفاً مستنسخاً من تجربة التوتاليتارية... ليست هناك أخلاق تقف عند الحياة الفردية. فبمجرد أن توضع المسألة الاجتماعية والسياسية فإن الأخلاق تصبح متصلة بالسياسة»^(٢٢). ويحذر كلود لوفور أيضاً ضد خطاب «الفلاسفة

(17) Sartre: *Autoportrait à soixante dix ans*, op. cit. p.193- 220.

(18) Raymond Aron: *Mémoires* op. cit. p.705.

(19) Gilles Deleuze: *Dialogue avec Raymond Bellour et François Ewald*. Magazine littéraire n°257, N° spécial: Deleuze, Septembre 1988. p.21.

(20) François Chatelet: "chronique des idées perdues" op. cit. p.162.

(21) Casteriadis: *Topique*, op. cit. p.74.

(22) Castoriadis: *Esprit* n° 9- 10 septembre 1979 p.30.

الجدد» في مناسبات عديدة، هذا الخطاب الذي تصبح فيه كل أنواع الدولة توتاليتارية: «يتم التحامل على الدولة كما لو أنها كانت قوة شر حين تحول إلى أداة بسيطة وخالصة للقمع أو مراقبة الأفراد دون أن تتم ملاحظة أن الدولة لا توجد أصلاً إلا للقيام بمهمة ضمان القانون»^(٢٣). إن ما يدعو «الفلاسفة الجدد» إلى تقويضه: الأنوار، ليس إلا العدل والحرية والحقيقة، وهي مفاهيم: «لها معنى سياسي كامل، وباختصار إننا لا نصارع السلطة ولكن المبالغة في استعجالها». وجاك بوفريس يدين خطاب «الفلاسفة الجدد» ويعتبره عودة لسياسة آلان ويرى في منطق «الفلاسفة الجدد» عشاً للمزاج والمزاجية: «بما أن الماركسية (بالفعل) مسؤولة عن الغولاج، يجب أن نكون نسقياً ضد الماركسية، وبما أن الماركسية هي (بالفعل) الشكل الأمثل للعقلانية، يجب أن نكون نسقياً ضد العقلانية»^(٢٤). ضداً على هذا المنطق يدعونا جاك بوفريس إلى الاستفادة من التجربة الفلسفية الانكلوسكسونية.

إن المتتبع اليوم للثقافة الفلسفية الفرنسية يلاحظ هيمنة ثلاثة هواجس أساسية تعطي معنى جديداً لإشكالية المثقف والسلطة:

١ - هاجس إثبات الهوية الحضارية للمثقف: «هل نحن يهود؟ هل نحن إغريق؟ هل نحن يهود مسيحيون؟ هل نحن هند - أوربيون؟ نعرف أن كل مجتمع يحتاج إلى احتزال هوية وأن يمثل في ماض معين»^(٢٥). إذا كان «الفلاسفة الجدد» يمينون بأنهم يهود، وكان «اليمن الجديد» يجب بأنه وثني، فإن هناك من المثقفين الفرنسيين من لازال يعتقد: «إننا نعيش في الاختلاف وبالاختلاف بين (اليهودي والإغريقي)، أي برياء قال عنه لوفيناس بعمق بأنه ليس فقط شائبة شنيعة عارضة في الإنسان، ولكنه تمزق عميق في عالم مرتبط معاً بالفلاسفة والأنبياء»^(٢٦).

٢ - هاجس الانفلات من قبضة التلمذة للألمان، وهو هاجس وجه «الفلاسفة الجدد»، ويوجه الفكر الفرنسي الآن بأكمله. آخر ضحايا تصفية الحساب مع فكر التلمذة: هيدجر. ومرة أخرى مازال هناك من يدعو إلى موقف رصين. يقول جاك

(23) Claude Lefort: L'invention démocratique de la société. voir aussi: esprit n°9- 10 Septembre 1979. p.37.

(24) Jacques Bouveresse. critique n° 369 Février 1978. p.108.

(25) Olivier Mongin: contre l'immobilisme intellectuel. Esprit 9- 10 Septembre- Octobre 1979. p.45.

(26) Jacques Derrida. L'écriture et la différence. Seuil 1967 p.228.

دريدا: «إن النماذج التي تنهار الآن هي بصفة مجملة تلك التي راهن عليها، منذ فجر المجتمع الصناعي، «الفلاسفة الكبار» الألمان، من كانط إلى هيدجر، بالمرور عبر هيغل، شيلنج، هامبولدت، شليرماخر، نيتشه، قبل وبعد تأسيس جامعة برلين. لماذا لا نعيد قراءتهم، نفكر معهم/ ضدهم، ولكن بأخذ الفلسفة بعين الاعتبار؟»^(٢٧).

٣ - هاجس إعادة النظر في قيم ماي ٦٨، فالاختلاف أصبح مبدأ نسبياً، والثورة أصبحت في خبر كان. لقد تحلى المثقفون الفرنسيون عن مبدأين أساسيين من مبادئ ثورة ماي ٦٨: التغيير الثوري العنيف للمجتمع، والكراهية المطلقة للرأسمالية. إن الفكر الفرنسي اليوم يتجه أكثر فأكثر إلى تهمين الفكرة الليبرالية، إلى تهمين الفكرة الجمهورية، إلى إعادة النظر في موقف ماركس من مبادئ الليبرالية كحقوق الإنسان والعدالة والمساواة. إن الشككية في هذه المبادئ أصبحت مطلوبة لذاتها.

من هنا تخطر بالبال إمكانية إقامة «سوسيولوجية إخفاق» بالنسبة للمثقف الفرنسي، سوسيولوجيا تقف مليّة عند سنة ١٩٥٦: (قضية هنغاريا، المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي)، لتعلن: من هنا حدث الانحراف! قال مؤسس جماعة «إشتراكية أم بربرية» سنة ١٩٥٦: «ليس هناك كلام طيب يمكن أن ننشره ولا أرض موعودة يمكن أن نعكس عليها الأفق»^(٢٨). وبعده صرح إدغار موران سنة ١٩٦٢: «إن دور المثقف اليوم هو أن يعلن أنه لا يوجد نبأ سعيد»^(٢٩). واليوم يعلن برنار هنري ليفي: «يجب على المثقف أن يتعود على القبول بمأزقه»^(٣٠).

من إشكالية المثقف والسلطة في الفكر الفلسفي الفرنسي أي سوسيولوجية إخفاق المثقف الفرنسي يظل الباب مفتوحاً. لكن هل بقي مكان لاستحضار المثل الروسي: «الرغيف الأول يكون دائماً مليئاً بالرماد».



(27) Jacques Derrida, Dialogues avec le monde, Philosophes, La découverte/ le monde Paris 1984, p.90.

(28) Castorindis cité par Jean Michel Besnier: les intellectuels: mission terminée? raison présente n° 73, p.49.

(29) Ibid.

(30) Bernard Henri Levy: Eloge des intellectuels op. cit. p.133.

الفهرس

| | |
|-----|--|
| ٥ | تقديم |
| ٧ | مقدمة |
| ١١ | القسم الأول: من الذات إلى التاريخ: مغامرة جيل |
| ١٢ | تمهيد |
| ١٤ | الفصل الأول: قضية دريفوس ونشأة سلطة المثقف |
| ٢٤ | الفصل الثاني: سياسة الآن |
| ٣٣ | الفصل الثالث: الجامعة الفرنسية والجيل الجديد |
| ٥٧ | القسم الثاني: أحداث ماي ٦٨ وأثرها في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر |
| ٦٠ | الفصل الرابع: إنصاف آلهة ما بعد الحرب |
| ٧٥ | الفصل الخامس: ثورة ماي ٦٨: الحدث والدلالة |
| ٩١ | الفصل السادس: أثر ثورة ماي في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر |
| ١٠٧ | القسم الثالث: الفلاسفة الجدد، جنيالوجيا الشر وأخلاقية المقاومة |
| ١١٣ | الفصل السابع: اسطورة «الفلاسفة الجدد»/ اسطورة «الفلسفة الجديدة» |
| ١٣١ | الفصل الثامن: جنيالوجيا الشر |
| ١٤٥ | الفصل التاسع: أخلاقية المقاومة |
| ١٥٩ | حصيلة وتقويم: تساؤلات الساحة الثقافية الفرنسية |
| ١٦٧ | فهرس |

نميد مطبعة دار الكتب - طبعة الصاررية - شارع سوريا
تلويح . ٣٧٠٠٧٣ - ٨١١٥٧١ - ص ب : ١١٣٥٥٩ - بيروت - لبنان

٩١/٣٠٠٠/١١٢٢

يعرض هذا الكتاب ؛ لأول مرة في تاريخ الثقافة العربية الحديثة ؛ أوجه المناظرة والمساجلة بين مختلف فلاسفة فرنسا منذ أواخر القرن الماضي إلى حدود العقد الأخير حول السلطة والتشكيلات السياسية وقضايا العصر الكبرى . من قضية ريفوس إلى بداية الاعلان عن « موت المثقف » قرابة مائة سنة ؛ ومن سياسة « جيل الأساتذة » إلى سياسة « جيل الاختلاف » ؛ قرابة خمسة عقود من الزمن ، ما يمكن استخلاصه من إشكالية المثقف والسلطة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر ثلاثة قيم أسست الوجه الاشكالي للمثقف - الفيلسوف الفرنسي وهو يقيم جنيا لوجيا للسلطة وأخلاقية للمقاومة ؛ أولاً ؛ المثقف الفرنسي - يهودي بالقوة ، يهودي الحساسية والافق . ثانياً ؛ تاريخ المثقف الفرنسي هو تاريخ قضايا سياسية اجتماعية كبرى ، قضية ريفوس ، قضية الجزائر ، قضية هنغاريا ؛ أحداث مايو ٦٨ ، قضية المنشقين ... ثالثاً ؛ المثقف الفرنسي ينتقد وعيه السابق باستمرار ويكاد يقدم على سحب نفسه من الافق كل هذه الأمور يتناولها هذا الكتاب بالدرس والتحليل سالكاً مسلك التدقيق والتحقيق ، باحثاً في المهمش ، مبرزاً للمختلف ، مدققاً في الفروق ، معتمداً على متن ينفلت من بين الأصابع كالماء ، متن موزع بين عدد هائل من المجالات والدوريات والبيانات والشهادات والمذكرات والمؤلفات ، حيث تتداخل الأحداث بالنصوص ، وحيث يفرض على المؤلف أن يعمل كموثق للنصوص ومؤرخ للأفكار